الخطيئة والتكفير في النقوش السبئية

د. سلطان عبد الله المعاني

أستاذ مساعد في الكتابات السامية

قسم الآثار - جامعة مؤتة

إبراهيم صالح صدقة

ماجستير في الكتابات السامية

الرمثا - الأردن

الخطيئة والتكفير في النقوش السبئية

الملخص:

يعالج هذا البحث مسألة التكفير عند السبئيين معتمداً على النقوش السبئية كمصدر رئيس، من حيث تناول المشكلة وفق الخطوط العريضة التالية: جنس مرتكب الخطيئة ورتبته، والأفعال التي استخدمت للإعلان عن الخطيئة والتكفير عنها، ويعرض البحث الآلهة التي أعلن إليها التكفير، ونوع الخطيئة والأسباب الموجبة لذلك، وارتباطها بالعقوبة المترتبة عليها. وتأتي أهمية هذا البحث من اعتماد النقوش التكفيرية مجتمعة، مادة أساسية لدراسة جانب هام من جوانب الحياة الدينية. حيث ينصب الحديث في هذا البحث على جانب واحد محدد دون الجوانب الأخرى، وهو التكفير، والذي تطرق إليه بعض الدارسين، مثل يوسف عبد الله، الذي ذكر نبذة موجزة عن التكفير دون تحديد نقوش معينة (عبد الله ١٩٩٠: ٥٠-٥١)، وريكمانز Ryckmans, G. الذي تحدث عن الاعتراف على الملأ في العربية الجنوبية قبل الإسلام، مبيناً حالات الاعتراف والآثام المقترفة والتكفير عنها مصحوبة بالتضرع أحياناً، والعقاب. والغرض من ذلك هو الحصول على مباركة الإله مع التعهد بعدم اقتراف الإثم مجدداً(Ryckmans, G. 1945)، ويتحدث جاك ريكمانز عن الاعترافات العمومية السبئية مبيناً العناصر المكونة للنقش، مثل مقدمة يتم فيها تحديد هوية الشخص المكرس، وصيغة الاعتراف والإله الذي يتوجه له الشخص، كما يذكر الأخطاء المقترفة، واللعنة، وشعور المقترَف بما يقترف. ويقارن ريكمانز ما توررده هذه النقوش ببعض الممارسات عند المسلمين (Ryckmans. J. 1972).

وينقسم هذا البحث إلى جزئين الأول منهما يتضمن مجموعة نقوش الدراسة، والثاني هو دراسة لمحتوى النقوش بما بخص الحطيئة والتكفير الواردة في النقوش السابقة.

أولاً:

:CIH504

١ ق ي ل ز أ د أ م ت ف ق م ٢ ن هـــ ق ن ي ت ذ ت ب ع د ن م
٣ م س ٣ ن د ن ع ذ ب م ب ذ ت ٤ س ٣ ل ب ت ب ت هـــــ أ ب ع ل ي
ب ٥ ن م ب ح ر ع د ن و إ ل ٦ ظ ي ت

الترجمة:

١ قبل زأد أمة فقمن ٢ قدمت (للإلهة) ذات بعدن ٣ المسند غرامة/ جـزاءً لأن ٤ ابنتها أب علي سلبت ماءَ ٥ البئر؟ (المسمى) ع د ن، ولم تكن ٦ طاهرة (طـــهارة عبادة).

التعليق:

- **س ٣ ع ذ ب م:** اسم مفرد غير معرف مذكر، ومعناه في الســـبئية (غرامـــة، جزاء، تعويض) (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٣)، وقد أورده بيستون بهذا المعنـــى أيضاً (CIAS. I. 88).

- **س ٥ م ب ح ر:** صيغة إسمية من الجذر ب ح ر ومعناه فـــي الســـبئية بـــئر، صهريج؟ (المعجم السبئي، ١٩٨٢: ٢٨) وترد في الحضرمية والمعينية بيد أنـــه لـــم تـــرد لـــها شـــواهد فـــي القتبانيـــــه (Arabach 1993: 20؛ أنظـــر Ricks 1989).

- **س ٦ ظ ي ت:** يفهم من معناها الوارد في المعجم السبئي أنها صفـــــة، وهـــي صيغة مؤنثة من الجذر «ظ ي ي» وتعني (تنظيف، طاهر للعبـــادة) (المعجـــم السبئي ١٩٨٢: ١٧٣، انظر CIAS I. 88). ولم ترد شواهد أخرى فـــي غـــير السبئية من مجموعة النقوش العربية الجنوبية (انظـــر Ricks 1989; Arbach 1993).

Haram 40 = CIH 523 :

(يعود هذا النقش إلى فترة ملوك سبأ وذي ريدان)

١ ح ر م ب ن ث و ب ن ت ن خ ي و ت ن

٢ ذ ر ن ل ذ س م و ي ب هـ ن ق ر ب م

٣ ر أ ت م ب ح ر م هـ و و م ل ث ح ي ض

٤ و هـ ن ب هـ أ ع ل ي ن ف س م و هـ ن ب

٥ هـ أ غ ر ط هـ ر و ي أ ب ب أ ك س و ت

٦ هـ و غ ر ط هـ ر و هـ ن م س أ ن ث

٧ ح ي ض و ل م ي غ ت س ل و هـ ن ن

٨ ض خ أ ك س و ت هـ و هـ م ر ف هـ ض ر ع

٩ و ع ن و و ي ح ل أ ن و ل ي ث و ب ن

الترجمة:

١ اعتراف حرام بن ثوبان ودفع كفّارة «كفّر» (عن ذنبه).

٢ (للإله) ذي سماوي، لأنه قرب.

٣ امرأة للجماع في فترة الإحرام، وجامع (امرأة) حائضاً بنهم،

٤ ولأنه دخل على (امرأة) نفساء، ولأنه

٥ دخل على (امرأة) غير طاهرة، وأصاب ملابسه نجاسة

٦ غير طاهرة، ولأنه مسّ امرأة

٧ حائضاً ولم يغتسل، ولأنه رشق

٨ ملابسه بسائل منوي، فذلّ

٩ واغتم، ودفع كفّارة، وليجزين (الإله)

التعليق:

- **س ١ ت ن خ ي: تعد** هذه الكلمات صيغة فعلية، بينما تعد الكلمة التي تليها «ت ن ذ ر ن» صيغة مصدرية، وهذا مألوف في السبئية، إذ ترد الصيغ الفعلية أولا ثم تليها الضيغ المصدرية (بيستون ١٩٩٥: 8:2). ت ن خ ي: «ح ر م ب ن ث و ب ن ت ن خ ي و ت ن ذ ر ل ذ س م و ي» ;CIH523/1; 532/2 533/1- ٢ ٥٤٧ / ١ الصلوي ١٩٩٣/ ٢؛ «ت ن خ ي ت ت ن خ ي و» (CIH546/1). «خ و ل ي ت أ م ت س ل ي م ت ت ن خ ي ت» (RES3956/1-2)، من الجذر نخي «أقر، أعترف بذنب أو خطيئة» (المعجم السبئي ١٩٧٢، ٩٥)، ولم يرد لها شاهد في القتبانية والحضرمية. (Arabch 1993: 67) ومن معاني الجذر nwh في الجعزية يكون «نبيلا شامخا". (Leslau 1987: 409) ونخا في العربية تعني «إفتخر» (التاج، ١٠: ٣٦٢). ويؤكد الغول أن «تمخا» في العربية تعني «تبرأ، وتحرج، وإعتذر» هي التي تقابل «ت ن خ ي» في الاستعمال (Ghul 1993: 48) وفي المجاز أن العرب تنخى من الدنايا أي تستنكف عنها (التاج، ١٠: ٣٦٢). فهي في الأكادية من الجذر nâhu تتضمن معنى «الراحة، السلام»، وهي كذلك بمعنى يهدأ من غضب الإله بصيغة nuhhu (CAD, XI, 1:143).

وجاء في العبرية الجذر(*) بمعنى يضرب بقوة (BDB 644) وفي السريانية "الأنكا" بمعنى يتنبأ، يعظ يبشر (Smith 1903: 325)، فوجه الشبه بين معنى هذه الكلمة في السبئية وما جاء من معنى في الجعزية وما أورده الغول وما جاء بالأكادية

(*) ذكر الباحث مرارا "العبرية" إشارة إلى لهجة التوراة "العهد القديم" علما أن التوراة ذاتها لم تأت ولا مرة واحدة على ذكر "العبرية كلغة، بل جاء ذكر"شفة كنعان" و"اليهودية". وفي الحقيقة، لهجة التوراة هي مزيج من الكنعانية والآرامية، (رئاسة التحرير).

هو أن الشخص الذي يعترف بذنبه يشعر بالراحة ويتبرأ معتذرا مما إقترفته يداه، ويكون شامخا وفخورا.

- **س٢ ت ن ذ ر ن:** صيغة مصدرية منتهية بالنون؛ ولعله يلاحظ ما يشبه هذا السياق والمعنى في أحد نقوش الأختام العمونية AS49"... bn I' bndb šnd r l'št bsdn tbṙkh"، إذ ورد الفعل «ndr» مقابل «ن ذ ر". ولعله يفهم من هذا الفعل معنى «كفر»، فالتكريس هو تكفير بشكل أو بآخر، وهي من الجذر و/ن ذ ر/ يعني كفر عن ذنبه (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٩١) و/ن ذ ر في العربية هو ما أوجبه الفرد على نفسه. وفي العربية «العذر والنذر» واحد، ومعنى العذر، «الحجة التي يعتذر بها» و«تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه» (التاج، ٣: ع ذ ر). ومن الألفاظ المرادفة لكلمة نذر، والتي جاء بها التاج الأرش وهي ما يجب دفعه عند حصول الجرح (التاج ج ٣: ٥٦١؛ أنظر الهمذاني ١٩٨٦: ٢٦٤، هامش ٣؛ ٢٩٢ هامش ٥)، وأكد ذلك ما جاء عند يوسف عبد الله من ذكر للمفردة بنفس المعنى (عبد الله ١٩٩٠: ٥٠)، وقيل في معناها «يمزق» (Beeston 1953: 111; Arbach 1993: 7). وفي العبرية يرد الجذر بمعنى «يرجو»، ويقابلها المعجم العبري بالمفردة الآشورية eristu (BDB 77). وفي الجعزية nãzara بمعنى «نذر طفل لخدمة الإله» (Leslau 1987: 412).

- **س ٢ ق رب:** في السبئية «قرب إمرأة لجماع» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٠٦). وفي العربية «قرب فلان أهله قربا إذا غشيها»، و«المقاربة والقراب» المشاغرة وهو «رفع الرجل للجماع» (التاج، ١: ق ر ب). ومن معاني الجذر في الأكادية qerebu «مارس علاقة جنسية» (CAD XIII: 233)، وهي بالعبرية بهذا المعنى أيضا (BDB 897).

- **س٣ ب ح ر م و:** يقرؤها روبان Robin ب ح ر م <هـ> و أي بإضافة الهاء (Robin 1992: 110) وتعني في السبئية «فترة إحرام، فترة تحريم» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٧١)، ويحتمل بيستون أن تكون هذه الكلمة بمعنى «عادة

شهرية»، وهي كلمة مركبة من ح ر م + الضمير (هـ) وللمؤنث (بيستون ١٩٩٥، حاشية 38). ومعلوم أن العادة الشهرية هي فترة يحرم بها الجماع مما يؤكد تناغم المعنيين.

- **م ل ث:** وتعني في السبئية «جامع امرأة» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٨٦)، وفي العربية الملث «من لا يشبع من الجماع» (التاج، ١ : م ل ث). واسترشاد بالعربية تفسر «م ل ث» بـ «جامع امرأة بنهم".

- **س ٤-٥ ب هـ أ:** وتعني في السبئية «دخل على امرأة في نفاسها» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٢٧). في حين أن المعاني الواردة في «معجم نقوش مذابن» لا تشير إلى المعنى الوارد في المعجم السبئي بهذا الخصوص. كما أن هذه الكلمة لا شواهد لها في النقوش القتبانية والحضرمية (انظر Arbach 1993: 20; Ricks 1989). وجاء في العربية «بها» مثل «سعى» معنى ودلالة (التاج، ١٠: ب هـ و)، ومعنى سعت «بغت»، وسعت الأمة تسعى سعيا أي بغت وساعاها مساعاة أي طلبها للبغاء، وهذا في الإماء خاصة (التاج، ١٠: س ع ي). ولعل البغي الوارد في النقش خاص بإماء المعبد.

- **س ٥ ي أ ب:** يفسرها المعجم السبئي بـ «أصاب بنجاسة» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٦٧)، وجاء في العربية ما يوحي لهذا المعنى، إذ ورد الوأب بمعنى «الاستحياء و**الانقباض**» والموئبات «المخزيات". ووأب منه وأناب أي «خزي واستحيا» (التاج، ١٠: و أ ب). ويمكن القول أن النجاسة شيء يبعث على الخزي والاستحياء.

- **س ٦ م س:** من الجذر «م س س» تعني في السبئية «مس» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٨٧). وهي في العربية «لمس» وهي كناية عن المباضعة والنكاح في قوله تعالى: «لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن» (البقرة ٢٣٦)، وفي قوله تعالى: «والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودوا لما قالوا فتحرير رقبة من

قبل أن يتماسا» (المجادلة ٣)، وفي قوله تعالى: «فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا» (المجادلة ٤؛ أنظر التاج، ٤: م س س).

ويمكن فهم العبارة في هذا النقش على أحد وجهين: الأول هو الأخذ بالمعنى البسيط الظاهر وهو «المس، اللمس» وعلى هذا يكون أن مجرد لمس المرأة الحائض موجب للكفارة، أما المعنى الثاني فيقصد به المباضعة والنكاح مع المرأة وهي حائض، فهو الرأي الذي نرجح.

- **س ٩ ي ح ل أ ن:** صيغة مصدرية منتهية بالنون من الجذر «ح ل أ» وتعني في السبئية «تاب من ذنب، أناب من خطيئة، دفع كفارة ذنب» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٦٧)، **وربما** لم ترد هذه الكلمة في باقي النقوش العربية الجنوبية (أنظر Ricks 1989; Arbach 1993). وجاء من الجذر «ح ل أ» في العربية معنى «أعطى» (التاج، ٢: ح ل أ)، وما يشبه ذلك في المعنى، جاء من الجذر «ح ل و (ي)» حلا شيئا أي أعطاه كفايته، ومنها الحلوان وتعني «الرشوة» وهي كذلك إعطاء الكاهن (الحميري ١٩٨٣، ج٢: ٤٥٥، ٤٥٨؛ التاج، ١: ح ل و (ي))، ويمكن تفسير ذلك أن دفع شيء ما للكاهن يعد بدل كفارة عن الذنب، إذ أن الكاهن هو الوسيط في العمل (أنظر Beeston 1952b: 146-147; N 74) نامي ١٩٤٣: ٩٥-١٠٠؛ صدقة ١٩٩٤: ٩٤). ويذكر المعجم السبئي الجذر «ح ل ي» بما يشابه المعنى العربي لكلمة حلى. وعليه فإنه ليس من المستبعد الأخذ بالتشابه العام في معنى الجذرين. ولعل كلمة «ح ل أ» أخذت معنى خاصا في العطاء الخاص بالتكفير عن الذنب. ويذكر الصلوي أن هذه الكلمة لا تزال مستخدمة في لهجات اليمن حتى اليوم، إلا أنها بمعنى أعم هو «تاب عن القيام بعمل ما مرة أخرى» (الصلوي ١٩٩٣: ٦).
- **س ٨ هـ م ر:** وتعني في السبئية «مني» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٥٦)، ولا يوجد لها شواهد في النقوش القتبانية والحضرمية والمعينية (أنظر Ricks 1989; Arbach 1993). وجاء في العربية من معاني «هـ م ر» اسما بمعنى «الماء»

وفعلاً بمعنى «يصب، يسيل» (التاج، ٣: هـ م ر)، وجاء من الجذر «م ن ي» اسماً وفعلاً في سياق واحد في الآية الكريمة «ألم يك من نطفة من مني يمنى» (**القيامة** ٣٧). والفعل «يمنى» بمعنى «يجري، يخرج، يصب» أما الأسم مني فهو «ماء الرجل والمرأة» (أنظر التاج، ١٠: م ن ي).

يلاحظ تشابه المعنى في العربية بين الجذرين «هـ م ر» و«م ن ي» أسماً وفعلاً ويوجد شاهد يشير إلى أن «الماء» الذي من معاني «هـ م ر» يعني «المني» في قوله تعالى: «خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب» (الطارق ٦، ٧). إلا أن النقوش السبئية جاءت على ذكر «هـ م ر» بصيغة أسمية لا غير. ولعل العربية استخدمت المني للدلالة على ماء الرجل والمرأة بينما استخدمت السبئية «هـ م ر» للدلالة نفسها. مع الأخذ بعين الاعتبار بأن السبئية لم يرد لها كلمة «م ن ي» بهذا المعنى.

- **ف هـ ض ر ع**: الفاء حرف عطف، و«هـ ض ر ع» صيغة فعله على وزن هفعل، إلا أنها غير متعدية وقد أشار بستون إلى ذلك مقارناً إياها بـ «أفلح» وأضاف بأنها صيغة مبنية للمجهول من خلال شرح نقش CIH 532 (SI: 50). وفي السبئية بمعنى «تضرع، تذلل» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٤٢). ويشير معجم نقوش مذابن أن «ض ر ع» ليس لها نفس الدلالة في النقوش المعينية وهي بمعنى «أسرع، أخرج» ويذكر أن ليس لها شواهد في النقوش القتبانية والحضرمية (Arbach 1993: 31). وفي العربية بمعنى «خضع وذل» ويذكر التاج حديث عمر رضي الله عنه «فقد ضرع الكبير ورق الصغير»، والتضرع إلى الله هو «الابتهال والتذلل» (التاج، ٥: ض ر ع)، وهناك عدد من الآيات القرآنية الكريمة توضح ذلك المعنى كقوله تعالى: «فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم» (الأنعام: ٤٣). ويمكن أن نستخلص أن معنى هذا الفعل -كما هو في العربية- «ابتهل وتضرع»، وهذان الفعلان لازمان مثل «هـ ض ر ع» في السبئية.

* س ٩ ع ن و: **صيغة** مصدرية وتعني في السبئية «اغتم، اكترب: اضطـــرب» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٧)، وفسرها بيستون قبل ذلك بمعنى تذلـــل (SI:50). ولا يوجد لها شواهد في النقوش القتبانية والحضرمية (Arabch 1993: 14).

أما في العربية فهي بمعنى «خضع وأطـــاع» التـــاج، ١٠: ع ن و). وربمـــا الأصل في المعنى هو «الأسر» (أنظر التاج) والأسير – كما هـــو معلـــوم- يكـــون خاضعاً، والآية الكريمة تشير إلى هذا المعنى «وعنت الوجوه للحي القيـــوم» (طـــه: ١١١). وفي السريانية بمعنى «متواضع، ذليل» (Gottstein 1970: 59) وورد فـــي نص زاكور كلمة «nh» بهذا المعنى «'š' nh `nh» (KAI 202,2). وفي العبرية «be occupied» (BDB 775) و oflicted humble oneself, be bowed (BDB 776) down,.

Haram 33 – CIH 532:

١ ا خ ي ت ب ن ت ث و ب ن ح ن ك ي
٢ ت ن ت ن خ ي ت و ت ن ذ ر ن ل
٣ ذ س م و ي ب ب ي ن ب ذ ت هـ خ
٤ ط أ ت ب ب ي ت هـ م و و م ح
٥ ر م ن و ب ذ ت و ض أ ت ع
٦ د ي م و ط ن ن غ ي ر ط هـ
٧ ر م و ب ذ ت خ ط أ ت ب ل ل
٨ م إ ل ب هـ ن ش ع ر ت و إ ل ل
٩ م ت ش ع ر ف هـ ض ر ع ت و ع ن و و
١٠ ت ح ل أ ن

الترجمة:

١ أخيت بنت ثوبات الحنكية
٢ اعترفت ودفعت كفارة «كفرت» (عن دينها)

٣ للإله ذي سماوي بـــ بين لأنها

٤ أخطأت ببيته ومحرمه

٥ ولأنها خرجت

٦ حتى الفناء الخارجي للمعبد؟ وهي غير طاهرة

٧ وبسبب خطيئة ورذيلة

٨ إما أنها علمت وإما

٩ لم تعلم، فتذللت واغتمت و

١٠ كفرت عن ذنبها.

التعليق:

* **س ٣-٤ هـــ خ ط أ ت:** من الجذر «خ ط أ» على وزن «هفعل» ويبدو أنه فعل لازم، وهذا ما يشير إليه السياق، حيث عقب الفعل حرف جر، وشـــبه الجملـــة «الجار والمجرور» «هـــ خ ط أ ت ب ب ي ت هـــ» في محل نصب مفعـــول به. ولهذا ما يشابهه في العربية، في قوله تعالى: «وليس عليكـــم جنـــاح فيمـــا أخطأتم به» (الأحزاب: ٥) والآية «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» (البقرة: ٢٨٦). فالفعل في الآية الأولى على وزن «أفعل» وعدي بحرف الجر «البـــاء» وهو كذلك في الثانية إلا أنه بقي لازما. ووردت كذلك صيغة أخرى لازمة فـــي السطر السابع على وزن «ف ع ل» «خ ط أ ت» وهاتان الصيغتـــان تمـــاثلان «خطئ» و«أخطأ» في العربية، وهي كذلك في لغات العربية الجنوبية فيما عـــدا الحضرمية (أنظر Arbach 1993: 44). ويحتمل هذا الفعل في العربية وجـــهين هما «التعمد والقصد» في ارتكاب الذنب، و«غير التعمد» في ارتكابه (التاج، ١: خ ط أ). ومثال الأول في الآية الكريمة «إن قتلهم كان خطأ كبيرا» (الإســـراء: ٣١). ومثال الثانية «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطـــأ» (النســـاء: ٩١)، والآية «ليس عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم» (الأحزاب: ٥).

ويذكر التاج قول المنذري أنه سمع أبا الهيثم يقول «خطئت لما صنعه لفعال عمدا وهو الذنب، وأخطأت لما صنعه خطأ غير عمد. ويستشهد التاج كذلك بأبن قتيبة ومن كتاب مشكل القرآن عن الحديث بخصوص سورة الأنبياء أنه ليس من نبي إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ...» (التاج، ١: خ ط أ).

يلاحظ أن العربية تعرض نمطين أحدهما يفسر على أنه «إثم، خطيئة» وهو ما يفسر العمد في ارتكاب الخطأ. والثاني على خلاف ذلك، إلا أن مثل هذا لا يوضحه هذا النقش (أنظر تعليق آخر Robin 1992: 101).

* **س ٥ و ض أ ت**: من الجذر «و ض أ» وتعني بالسبئية «خرجت» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٥٦)، وهي كذلك في النقوش العربية الجنوبية ما عدا الحضرمية (أنظر Arbach 1993: 101)، ومناقشة الغول (Ghul 1993: 47).

* **س٦ م و ط ن ن**: صيغة أسمية وهي، مفرد، مذكر، معرف، من الجذر «و ط ن» أوردها المعجم السبئي بعدد من المعاني غير المؤكدة (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٦٦). ولعله لا توجد لهذه الكلمة شواهد في غير السبئية. إذ لم يذكرها المعجم القتباني ولا معجم «نقوش مذاين» وهذا الأخير معجم مقارن للمفردات المعينية والسبئية والقتبانية والحضرمثة.

ويرى بيستون أنها نوع من مباني العبادة، ويذكر رأي روسين على أنها «ردهة المعبد» (S1:50). وفسرها ريكمانز بمعنى «باحة المعبد» (Ryckmans, G. 1945: 10). واقترح جام أثناء تعليقه على نقش Ja 525 تفسير الكلمة «م و ط ن» على أنها «المسكن» أو «المكان» أو «الملجأ» الذي يحل به الحاج وقت إقامته في الحج (Jamme 1955: 121).

ويناقش روبان هذه الكلمة والآراء المطروحة حولها حيث يستبعد أن يكون معناها «المعبد»، فهو يميل أن لها علاقة بالأماكن غير المغلقة (Robin 1992: 101).

فمن الممكن التوصل إلى احتمالية تأكيد تفسير «م و ط ن ن» أن لها علاقة بالأماكن غير المغلقة مثل: الفناء الخارجي وليس جزءا من بناء المعبد أو المعبد نفسه، وذلك بناء على كلمة «م ن» الواردة في أحد نقوش محرم بلقيس: «و س أ ر ب [ن] هـ و ت ي و م ن ت أ و و ب ن م ن ١ م ح ر م ن ذ أ و م» (Ja 735/11-12).

ذهب ريكمانز إلى أنها تعني «مكان داخل المعبد وجزء منه»، فهو بذلك يعتبرها اسما (Rycjmans, J. 1966: 499-500). ويتفق بيستون مع رايكمانز على اعتبار «م ن» أسما، إلا أنه يرى أنها تعني «الفناء الخارجي للمعبد» The Temple Temenos (Beeston 1972: 352-353; 1978: 207). وهذان استنتاجان منطقيان، حيث وردت كلمة «م ح ر م ن» بعدها مباشرة. إلا أن ما ذهب إليه بيستون هو الأقرب للصواب. إذ أن صلوات الاستسقاء تقام في أماكن غير مغلقة، وفضلا عن ذلك أن المعبد من الداخل لا يتسع لهذا الحشد الكبير القادم للإستسقاء.

والكلمة مدار النقاش «م و ط ن ن» لها بعض القرائن بكلمة «م ن» حي ثورد ما يشير إلى المعبد بشكل غير مباشر «ب ي ت» وبشكل مباشر كلمة «م ح ر م ن". والسياق يسعفنا بعض الشيء في اعتبار «م و ط ن ن» أنها «فناء المعبد» أو «ساحة خارج المعبد". حيث أنها ارتكبت الخطيئة ببيت الإله ومحرمه، وخرجت حتى الفناء الخارجي وهي غير طاهرة.

في حين لو كانت هذه الكلمة تعني «معبد» بشكل غير قابل للشك لتوقعنا تكرار إحدى الكلمتين «ب ي ت» أو «م ح ر م»، وخاصة أن «م و ط ن ن» لا يوجد لها شواهد في غير السبئية، ولعلها الشاهد الوحيد في هذا النقش. والأمر الثاني

أن حرف الجر «ع د ي» يفيد الظرفية المكانية. بمعنى «إلى، نحو» (بيستون ١٩٩٥: 34:9). أما الأمر الثالث أنها اقترفت الذنب في مكان يحمل قدسية عالية، وخرجت منه إلى مكان آخر «فناء المعبد» ربما لأنه لا يحمل نفس قداسة المعبد.

- **س ٧ خ ط أ ت**: ذهب من درس هذا النقش في ترجمة هذه الكلمة على أنها صيغة فعلية (أنظر: Ghul 1993: 99; SI: 50)، وربما ذهب المعجم السبئي إلى هذا المعنى أيضا، إلا أنه لا يشير إلى هذا النقش في شواهده (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٦٣). ويفهم من كلام روبان أنه غير قانع بالمعنى الذي أورده المعجم (Robin 1992: 102)). إلا أن ذلك -أي اعتبارها صيغة فعلية- تسبب لنا إرباكا في فهم وتفسير الكلمة التالية لها. ولهذا، ليس هناك ما يمنع من اعتبارها صيغة مصدرية منتهية بالتاء على وزن «ف ع ل ت» (أنظر بيستون ١٩٩٥ أ: 10:2)، بمعنى «خطيئة".

- **س ٧-٨ ب ل ل م**: درست هذه الكلمة من قبل بيستون، واعتبرها بمعنى «قليل» (SI:50)، وكذلك من قبل الغول واعتبرها بمعنى «رذيلة، ذنب، سلوك شرير» (Ghul 1993: 99)، وهو بهذا يعتبرها صيغة أسمية. وهذه المعاني لها سند في العربية (أنظر اللسان: ب ل ل). ويستأنف الغول أنه ليس من السهل الربط بين هذا المعنى -أي الوارد في العربية – ومعناها «وفرة، سخاء، منفعة» كما هو وارد في نقش CIH 255/4. ومعنى «كريم، وافر، غزير» في (Ghul 1993: 99) CIH 547/10-1. ويقارنها من حيث الدلالة بكلمة «مباح»، وتطورها الدلالي «إباحة» والتي أخذت معنى «انتهاك حرمة، انحلال، عمل غير أخلاقي، فجور» في الاستخدام العربي (Ghul 1993: 99). وكلمة «بل» تعني «مباح» وهي يمانية حميرية (اللسان: ب ل ل). وهذا يبدي وجاهة ما أورده الغول في هذا السياق.

ويمكن اعتبار «خ ط أ ت ب ل ل م» في حالة عطف من غير وجود عـــاطف بينهما، بالرغم من ندرة الشواهد على ذلك في السبئية، والإختلاف على شواهدها (أنظر بيستون ١٩٩٥: 31:6). وعليه يكون المعنى «بسبب خطيئة (و) رذيلة".

:Haram 34 = CIH 533

١ أ م ت أ ب هـ ت ن خ ي ت و ت ن ذ

٢ ر ن ل ذ س م و ي ب ع ل ب ي ن ب هـ

٣ ن ق ر ب هـ م ر أ ي و م ث ل ث

٤ ح ج ت ن و هـ أ ح ي ض و م ش ي و ل

٥ م ي غ ت س ل و ع و د ت م ر أ و هـ

الترجمة:

١ أمة أبيها اعترفت وكفّرت

٢ لِ (الإله) ذي سماوي سيد بيّن، لأنه

٣ قربها رجل في اليوم الثالث

٤ للحجة وهي حائض، ومشى ولم

٥ يغتسل، وحمت الرجل؟

التعليق:

- **س ٥ ع و د ت**: عزف دارسو هذا النقش عن إعطاء تفسير لهذه الكلمة. وكـان المعنى الذي ورد عند بيلا غير **مقنع** (Biella 1982: 357) «"repulse". ويبـدو من المفيد أن نقارن «ع و د» التي تعني «حمى» الواردة في التدمريـة وتقـابل «عوذ» العربية (Strak 1971: 71, 104). وتذكر فاولر أن من معاني هذا الجذر في العبرية «يأخذ أو يبحث عن ملجـأ» (Fower 1988: 354؛ أنظـر BDB 728). ومما يؤيد احتمالية هذا الرأي ورود معنى من معاني الجذر «ع و د» في السبئية وهو «حائط استنادي/ حائط امتدادي لسد» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٢٢).

ولا يخفى أن وظيفة الجدار هو حماية السد. إلا أن النقص في آخـر النقـش لا يسعفنا تأكيد ذلك، ومع كل هذا يبقى هذا الرأي محتملاً.

يذكر ريكمانز أن مقترف الخطيئـة يتعـهد بعـدم اقـتراف الإثـم مجـدداً (Ryckmans, G. 1945: 3)، ربما اعتمدَ على معنى التوبة وعلى الاعـتراف الـذي يعلنه، وربما اعتمد كذلك على توخي مقترف الخطيئة ثواب الإله. بالرغم مـن تلـك الأسباب المتوقع أن ريمكانز قد أخذها في عين الاعتبار وقبولها بمفهومها العام، إلا أن النقوش لا تصرّح بندم مقترف الخطيئة. ولا تذكر النقوش التي بين أيدينا عدد مـرات اقتراف الخطيئة، وفيم إذا كان هناك اعترافات غير علنية. وعلاوة على ذلك فكلمـة «ع وْ د تِ» CIH 533/5 لعلها – مع عدم الأخذ بهذا المعنى بالتعليق – تفيد معنـى التكرار والرجوع، أي فعاودت الرجل.

:CIH 539

١ أ ي ك ف ر ن ح ب هـ م و و ي ق ب ل ن ق ر ب ن هـ م [و

٢ ع و ب ع ل م ن ب ع د ن و ق ر ب ن و ش ي م ع ل[ي

٣ ن و ب ش ر ن و ب ن ش ر ك ل م ر أ م ب ب أ س م

٤ و م ر ض ي م ل س م ر ح م ن ن د ك ل ع ن

٥ ر ح م ن ن ر ض و أ م ر أ هـ م و أ م ل ك ن

٦ و ع و س م و ض ل ل م و م ح ل م و ت م

الشرح:

١ يغفر الذنب ويقبل قربانهم

٢ ع وبالآخرة والدنيا وحارس العلي

٣ وأناس ومن ش ر ك لسيد مع بأس

٤ ورضى لاسم الرحمن د ك ل ع ن

٥ الرحمن رضى أسيادهم الملوك

٦ وطاعون ووباء وحل و ت م

التعليق:

ليس من السهل معرفة تفاصيل هذا النقش، وذلك عائد للنقص الوارد في بدايات السطور ونهاياتها، وكذلك الغموض في تفسير بعض المفردات فيه.

يبدو هذا النقش من النقوش التكفيرية، إلا أنه لم يرد ضمن دراسة كل من G.Ryckmans 1945 ودراسة J. Ryckmans 1972. والأمر الذي يشير إلى ذلك هو احتواء هذا النقش على الكلمتين ي ك ف ر ن «يكفر» و ح و ب «الذنب".

* **س ١ ي ك ف ر ن:** صيغة مصدر تنتهي بالنون، وتعني بالسبئية «كفر، غفر سيئة أو ذنبا» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٧٧)، ولعلها لم ترد في غير السبئية من مجموعة النقوش **العربية** الجنوبية، فقد غابت عن المعجم القتباني/ ومعجم نقوش مذابن. أما في العربية فالتكفير هو «ستر الذنب وتغطيته". وفسر قوله تعالى «لكفرنا عنهم سيآتهم» أي سترناها حتى تصير كأن لم تكن، وفسرت كذلك «نذهبها ونزيلها»، وجاء كذلك من معاني كفر في العبارة «كفر عن يمينه» تكفيرا أي «أعطى الكفارة» (التاج، ٦: ك ف ر). وفي العبرية جاءت بمعنى «ستر وأزال الخطايا»، ويقارنها بـ «كفارة» الواردة في العربية (BDB 497).
* **ح ب هـ و م:** كلمة **مركبة** من «ح ب» وضمير الجمع الغائب «هـ م و»، والعبارة مضاف ومضاف إليه. أما ح ب فهي من الجذر «ح و ب» وتعني في السبئية «ذنب، حوب» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٧٣)، ولم يرد لهذه الكلمة شواهد في باقي النقوش العربية الجنوبية. والحوب هو «الإثم»، وأورد التاج ما جاء في التهذيب «رب تقبل توبتي واغسل حوبتي» (التاج، ١: ح و ب). والآية الكريمة التالية تحمل كلمة حوب هذا المعنى «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا» (النساء: ٢). وفي العبرية «حوب» «مذنب»، ويقارنها بكلمة «خاب» في العربية، ويشير كذلك إلى كلمة حوب بمعنى «إثم» في العربية، ويقول أنها كلمة مستعارة في العربية (BDB 295). وفي آرامية الدولة بمعنى

«هفوة، زلة» (DISO 83)، وفي السريانية آدام تعني «خطيئة آدم» .(Smith 1903: 129)

فالنقش الذي بين يدينا لا يعطي معلومات توضح طبيعة الإثم «ح و ب» المقترف. إلا أنه كما ورد في التاج من معاني الكلمة أنها تدل على عنصر النساء – مع العلم أن كلمة «حوب» بمعنى إثم دخيلة على العربية كما ذكر سابقا في BDB والمعجم السبئي يوافق هذا – في حين أن الآية الكريمة تشير إلى أكل الأموال بالباطل. إلا أن السمة الظاهرة على النقوش التكفيرية تظهر عدم الطهارة بالمعنى العام لها، إلا إذا جاءت قرينة واضحة لا تشير إلى ذلك. والنقشين السبئيين Ja 702, 720، اللذان فيهما تقدمة، فالمخالفة فيهما ليست لها علاقة بالطهارة. فالأرجح، وبخاصة الكلام هنا عن مجتمع عربي، أن يكون هذا الإثم له علاقة ما بحالة جنسية. إلا أنه لا يمكن تأكيد ذلك، حيث أن الآية والنقشين السبئيين لا يظهران هذه الحالة، وما يضعف أي احتمال مؤكد لتفسير طبيعة الإثم هو النقص في بداية ونهاية السطور.

ولعل العبارة السبئية «ي ك ف ر ن ح ب هـ م و و ي ق ب ل ن ق ر ب ن هـ م و» تقابل التعبير عند المسلمين «يا غافر الذنب وقابل التوبة".

وردت كلمة ح و ب بالنقوش الصفوية وترجمها ونِت وهاردنج بمعنى «حزن» (Winnett & Harding 1978:248)، إلا أنه يمكن مقارنتها بالسبئية بمعنى «إثم» (أنظر Knauf 1991/1992: 96-97).

:Haram 8 = CIH 546

١ ت ن خ ي ت ت ن خ ي و ث م ن ي ت ن و أ ب ع ل

٢ س ي ر و م ف ر هـ ج ر ن هـ ر م م ل م ر أ هـ

٣ م و ح ل ف ن ب (أ) ر ث ت م هـ ن ي ب ن ن

٤ (ظ) ل ع م و ت ن ك ر م ب س ر هـ ر م م ف ي ظ {.}ت ل

٥ ف ن ن ذ م ن هـ و ل (ت) ر ز أ أ هـ ل هـ ت ن و

٦ ذ (ج ذ) ف م ن هـ م ل ي ح ذ ر ن و ل ي ن ذ ر ن

٧ ي ظ ت ل ف ن م ث ل هـ و ك ل م ح ل ف ن

٨ ي س ت (ض) أ ن ح ج ن ك ح و ر ب ق د م ي ذ ت

٩ ت ن خ ي ت ن و ح ل ف ن ل ث و ب ن ش ع ب هـ و

١٠ و هـ ج ر هـ و ث و ب ع ن ع م ن ل هـ م و و ل س ر

١١ هـ م و و م ح ج ر ت هـ م و و م ر ع ي هـ م و

الترجمة:

١ أقروا إعترافاً (بذنب) ثمانية وأصحاب

٢ أرض زراعية وريف مدينة هرم لسيدهم

٣ (الإله) حلفان (بالمعبد) أرئتم، لأنه يزيل

٤ غرامة وغُرما بأرض زراعية (ملحقة بمدينة) هرم، ف ي ظ . ت ل

٥ ف ن ن جزء منها لنفقة جماعة دينية /الأهل/ الآلهة

٦ وأصحاب الشتيمة؟ منهم ليحذروا وليكفروا ولـ

٧ ي ظ ت ل ف ن مثله؛ كلام (الإله) حلفان

٨ يستخلص بمقتضى مرسوم قبل

٩ هذا الإعتراف، و(الإله) حلفان ليجزينّ قبيلتهم

١٠ ومدينتهم ثواباً ينعمن إياهم ولـ

١١ أرضهم الزراعية، ولأرضهم المخجورة ومراعيهم.

التعليق:

* **س ٣ ي ب ن ن**: صيغة فعل مضارع مذكر، مفرد ينتهي بالنون. (أنظر بيستون ١٩٩٥: 5:7) من الجذر «ب ي ن»، وتعني بالسبئية «أزال، رفع عقوبة» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٣٤: أنظر Robin 1992: 73)، ربما أنها لم ترد بهذا المعنى إلا في السبئية من مجموعة اللغات السامية؟

- **س٤ ظ ل ع م**: صيغة أسمية وهي مفردة غير معرفة؛ منتهية بالتمييم، وتعني بالسبئية «غرامة» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٧٢)، وفي القتبانية «يدفع غرامة» (Ricks 1989: 79)، وهي بهذا المعنى في المعينية والحضرمية (Arbach 1993: 110). وفي العربية الظلع هي «الميل عن الحق، والذنب» ورجل ظالع أي «مذنب»، وذكر التاج شاهد من الشعر على ذلك (التاج، ٥: ظ ل ع).

وما ذلك من جرم أتيتهم به ولا حسد مني بتظلع

ويتساءل المرء هل من علاقة بين المعنى الوارد في هذا النقش، والمعنى الوراد في العربية؟

- **ت ن ك ر م**: من الجذر «ن ك ر»، وهي صيغة أسمية مفردية نكرة منتهية بالتمييم، **وتعني** في السبئية «غرامة (نقدية)»، غرم– تعويض عن جناية أو إساءة (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٩٦). ولم يرد لها شواهد في باقي النقوش العربية الجنوبية بهذا المعنى (أنظر Ricks 1989; Arabch 1993).

وجاء في العربية «نكر الأمر ككرم» (التاج، ٣: ن ك ر)، وقرئت كلمة «كوم» بـ «غرم» والتي بمعنى أمطر، قال أبو ذؤيب: (التاج، ٩ : ك ر م، أنظر غ ر م).

وهي خرجه وأستحيل الربا ب منه وكرم ماء صريحا

ومن معاني كلمة غرم هو «الدين» و«ما ينوب الإنسان في ماله من غرم لغير جناية منه»، والغرامة هي «ما يلزم أداؤه» (التاج، ٩: غ ر م).

ومما يلاحظ أن وجه الشبه ما جاء في السبئية والعربية هو أن يدفع شيئا أو أن يعطي شيئا. ولعله يستشف من عبارة «لغير جناية منه» السابقة، أن الذي يدفع الغرامة في هذا النقش شخص آخر ليس من اقترف الجناية.

* **س ٤-٥ ف ي ظ. ت ل ف ن ن:** فعل مضارع جمع، فهي لدى المعجم السبئي غامضة المعنى (**المعجم** السبئي ١٩٨٢: ١٧٢)، في حين جاء تفسيرها عند بيلا بمعنى «يحجم، يتمنع عن» (Biella 1982: 226). أما روبان ففسرها بمعنى «يدفع"؟ (Robin 1992: 72)، ولا يوجد لها شواهد في مجموعة النقوش العربية الجنوبية (أنظر Ricks 1989; Arbach 1993). وجاء في العربية عدة معاني لعلها توافق هذه الكلمة في المعنى وهي: «المباح» و«الحاجة» (التاج، ٦: ظ ل ف). فيكون المعنى «فيبيحون جزءا منه لنفقة الأهل /جماعة دينية/ الآلهة» أو «فيحتاجون جزءا منه لنفقة الأهل» /جماعة دينية/ الآلهة.

وهناك احتمال آخر يعتمد على صيغة «ي ظ ت ل ف ن ن»، إذ يمكن أن تكون صيغة المبني للمجهول (أنظر بيستون ١٩٩٥ 9 :6)، فيكون المعنى «فكان يخصص جزءا منها لنفقة الأهل /جماعة دينية، وهناك من يرى لنفقة الآلهة (Robin 1992: 73)، وهذا المعنى يعطينا مؤشرا ما أن جوهر المخالفة يكمن ليس في إزالة الغرامة، وإنما بسبب تخصيص جزء من هذه الغرامة لأجلهم (إما للأهل أو للجماعة الدينية أو للإلهة). والإحتمال الأخير يبدو أكثر وجاهة.

ويستدرك على صيغة الفعل المضارع أنها تفيد معنى الماضي، وبخاصة أن نقوش منطقة هرم ليست سبئية فصيحة (أنظر بيستون ١٩٩٥: ٣١: 2 :31).

* **س ٦ (ج ذ) ف:** قراءة هذه الكلمة غير مؤكدة، ولم يرد لها قراءة أخرى، فمعناها في المعجم السبئي غامض (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٤٩)، أما في معجم بيلا فمعناها «عنيد» (Biella 1982: 66). ولا يوجد لها شواهد في غير السبئية من مجموعة النقوش العربية الجنوبية (أنظر Ricks 1989; Arbach 1993). أما في العربية فهي لغة من جدف ومعناها «قطع» (التاج، ٦: ج د ف)، وفي العبرية بمعنى «يشتم. يلعن الإله» بصيغة pi، وفي العبرية الحديثة المتأخرة NH تعني «قطع، جرح»، ووردت كذلك بمعنى «ينتقد بطريقة ساخرة» في سفر

حزقيال Ezekiel (BDB 154). وفي السريانية بمعنى «يشـــتم، يلعـن الآلهة» (Smith 1903: 61).

فربما نستطيع أن نأخذ بالمعنى الوارد في العبرية والسريانية، فيكون المعنـــى «أصحاب الشتيمة، أصحاب اللعنة، أي اللعانون، الشتامون"؟

:Haram 10 = CIH 547

(Beeston 1939 a: 50-52; 1948: 191-193; Ryckmans, J. 1976: 263-264; Robin 1992; 74-76; Ghul 1993: 98-99; بافقيه وآخرون ١٩٨٥: ١٥٢-١٥٤).

١ <أ هـ> ل أ م ر م و ا هـ ل ع ث ت ر

٢ <ت ن> (خ) ي (و) و ن ت ذ ر ل ح ل ف ن

٣ هـ ن إل هـ و ف ي هـ و م ط ر د

٤ هـ و ب ذ م و ص ب م إذ ظ ع ن

٥ و ل ي ث ل ب ض ر ح ض ر م ت م

٦ و حج و ذ س م و ي ب ي ث ل و

٧ ن س أ و م ط ر د ن ع د ذ ع ث

٨ ت ر |ف/ و| إل هـ و ف ي هـ م و ف ف ج

٩ ر ش ر ج هـ م و ب د ث أ ن و خ ر

١٠ف ن م ن م و ي ق ل ل م (و) ب ل

١١ل م ف ل ح ذ ر ن م ن م ث ل

١٢هـ أ أ خ ر و ح ل ف ن ل ي ث و ب ن

١٣هـ م و ث و ب ي ن ع م ع ر ت ت ن

١٤خ ي ت ن ح ي ن ذ م خ ظ د م ق د

١٥م ت ن و ك و ن ت ذ ت ت ن خ ت ن ب

١٦أ م ر ح ل ف ن

الترجمة:

١ أ هـــ ل أمير وأهل عثتر

٢ اعترفوا وكفروا (عن خطيئتهم) ل (الإله) حلفان.

٣ لأنهم لم يؤدوا م ط ر د

٤ هـــ و بشهر ذي موصب عندما ظعنوا

٥ إلى (مدينة) يثل لأجل حرب حضرموت

٦ ولكن (هم) حجوا (ل) الإله ذي سماوي في يثل،

٧ ونسأوا م ط ر د ن حتى شهر ذي عثتر،

٨ و(يسبب ذلك) لم يمنحهم نجاة، ولكن فجر (الإله بالماء)

٩ مسيلهم بالربيع والخريف

١٠ من ماء قليل ووافر

١١ فليحذروا (القيام) من مثل ذلك

١٢ مرة أخرى، و(الإله) حلفان ليثوبنهم

١٣ ثوابا ينعم بدلا من الاعتراف

١٤ زمن ذي مخضدم القادم

١٥ وكانت هذه الاعتراف

١٦ بقضاء (الإله) حلفان

التعليق:

* **س ٣-٤ م ط ر د هـــ و**: صيغة أسمية مضافة إلى ضمـــير المفـــرد الغـــائب المذكر والعائد إلى الإله. ودرج دارسو هذا النقش إلى تفسيرها بـــــ «صيــد» (بافقيه وآخرون ١٩٨٥: ١٥٤؛ Beeston 1939a: 51, 1948: 192, Robin 1992: 75?)، وهذا ما أدرجه المعجم السبئي، بالإضافة إلى معنى آخر اقترحـــه الغول وهو «حج مطرد» في موعده المضروب ومكانه الثابت؟ (المعجم الســبئي ١٩٨٢: ١٥٤). وأضاف كتاب «مختارات» أنه نوع محدد من القنص الخـــاص

بالأوعال، وهو بمثابة نسك لأجل نزول المطر (بافقيه وأخـرون ١٩٨٥: ١٥٤).
ولم يرد لها شواهد في غير السبئية (أنظر Ricks 1989; Arbach 1993).

ويبدو أن «م ط ر د» ذا علاقة بطقس ديني وليس مجرد صيد، كان يمارس من أجل الإله فحسب. ولذا فإن عدم القيام به خطيئة تلزم مقترفها التكفير. والمقام هذا يسترعي النظر إلى ما أبداه الغول بإيجابية أكثر. ويمكن أن نفهم من هذا الرأي أن التعبير عن الحج نوعين، أحدهما يعبَّر عنه بكلمة «م ط ر د» إذا كان في وقت ومكان محددين، وأخر بكلمة «ح ج» إذا لم يلزم التحديد، وإنما يقصد بها زيارة أماكن ذات قدسية؟ وفي العربية الطرد هو «الصيد» (التاج، ٢: ط ر د)، وذكر في التاج في حديث قيام الليل هو «مقربة إلى الله ومطردة الداء عن الحسد» أي أنها حالة من شأنها إبعاد الداء (التاج، ٢: ط ر د)، وإذا أخذنا بالاعتبار رأي الغول، فإنه يوافق المعنى العام في العربية، إذ أن الحج حالة من شأنها إبعاد الرجس.

- س ٦ و ح ج و: الواو في ح ج و حرف عطف يفيد الاستدراك «لكن» (بيستون ١٩٩٥: ١: ٣١).

:Haram 13 = CIH 548

يعود إلى فترة ما من عصر ملوك سبأ.

سنأخذ بقراءة وترجمة الغول، إذ أورد من سطر ١-١ من النقش، إلا ما خلا بعض الاستثناءات، وبخصوص هذا النقش (أنظر Ghull 1993: 45-52; Robin 1992: 79-81; Beeston 1939 a: 52-55; 1988: 1-2؛ بافقيه وآخرون ١٩٨٥: ١٥٤-١٥٦).

١ م ن ج ر ح م ن م ي ح ر ط س ل ح م م ع د ح ل ف ن
٢ و ض أ م أ و ب هـ أ م ك أ خ ذ ب م ق س م م هـ ن
٣ ل ي ن ج س ن س ل ح هـ و و د م و م ب ش

٤ ي ع هـ و ل ي ظ ل ع ن ل أ ل ت ع ث ت ر

٥ و أ ر ش و و ن ع ش ر ح ي أ ل ي م و

٦ هـ م ل م ي د م و ل ي ظ ع ن خ م

٧ س ح ي أ ل ي م ذ ي ن د ي ت م ر أ م

٨ م ن م ح ر م ن ل ي ظ ل ع ن خ م س أ س

٩ ل ع ن و ع ل م ب د أ ت ل ي و ف ي ت ظ ل ع

١٠ ن و ذ ك ر ن ط ش ع ش ت م ح ر م ن و هـ

١١ و ف ي ب أ ر ث ت ث و ر م و ب ك ل م

١٢ ح ر م ن أ ك ي ل م و ع ق ب ش ن ن م و د

١٣ ب س م و ل ب ب م و ك ل ل ر ز أ ن ع ل ي ك

١٤ ل أ ن س ن و ي و ف ي ن ذ ن ح ج ن ع ش ر ت

١٥ أ خ ر ف ت م ن و ر خ ذ س ل أ م ذ...

١٦ ع ت ش ح م ذ أ ل س ع د ذ خ ل ع ث [ت

١٧ ع ر ت هـ و د م ت ن ذ ت م ن م ي ر

الترجمة:

١ الذي جرح من يحمل سلاحاً باحتفالات حلفان

٢ خارجاً أو داخلاً، عندما اُعتبر مذنباً بحكم من وحي (بقسامة إيمان؟)، إذا

٣ ينجس سلاحه ويوجد دم بكسائه،

٤ ليدفع غرامة لجماعة عثتر

٥ وللكهنة عشر حيالي من النقود؛ وإن

٦ لم يسل دم ليدفع غرامة خمس

٧ حيألي من النقود. الذي يطرد رجلاً

٨ من المعبد ليدفع غرامة خمس سلع من

٩ النقود، وفيما يتعلق بالإساءة الأول ليدفع غرامة

١٠والذي يكرر تعكير صفوة الحياة في المعبد، فليقدم
١١في أ ر ث ت م ثورا، وبكل المعبد
١٢فلينفق طعاما، ويدفع ثمن رائب وعسل
١٣ولباب نخل، وكل النفقة على كل
١٤رجل؛ ويؤدون هذا الحج عشرة
١٥أعوام من سنة ذي سلام ذ...
١٦ع ت ش ح م ذو إيل سعد ذو خل عتت
١٧ ....؟

التعليق:

- **س ١ ي ح ر ط: يفسرها** الغول بـ «الذي لا يحمل السلاح» إذ يقارنها بكلمة حرض وتعني «من لا يتخذ سلاحا ولا يقاتل» (Ghul 1993: 46) أما بيستون ففسرها بـ «يحمل»، وكذلك المعجم السبئي (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٧١)، ثم تبعه روبان (Robin 1992: 80). يبدو أن المعنى الراجح هو «يحمل".
- **س ٩:** يذكر الغول إذا **كان** المذنب فعل ذنبه للمرة الأولى، فعليه أن يدفع غرامة كاملة (Ghul 1993: 46).
- **س ١٠-١١:** الواو في «و هـ و ف ي» واقعة في جواب الشرط (أنظر بيستون ١٩٩٥: 9 :28 ;52 :Ghul 1993).

:Haram 56 – CIH 568

ا م ر ج ل ت ب ت ت ح ي ل ي ٢ ت ن خ ي ت و ت ن ذ ر ت ل
ب ع ٣ ل ب ي ت إل هـ س ع ي د م ٤ ب ذ ت س ت ع ذ ر ت هـ و
ك ٥ ي س ك ر ف ع ذ ب م ن هـ ف ٦ خ ط أ ت و ت ح ل أ ن ف هـ ٧
ض ر ع ت و ع ن و ف ل ي ث و ٨ ب ن هـ ن ع م ت

الترجمة:

١ مرج لات بنت تحيلي ٢ تعترف وتكفر لسيد
٣ بيت إله سعيد ٤ لأنه إستغفرته (أي الإله) كي
٥ يرضى (الإله)، فاقتضى ذلك عقوبة منه (أي الإله)
٦ فكفرت وأنابت من الخطيئة ٧ فذلت وأغتمت، فيجازيها
٨ (الإله) نعمة

التعليق:

* **س ٤ ت ع ذ ر ت هـ و**: من الجذر «ع ذ ر» على وزن ستفعل وتعني بالسبئية «استغفر، سأل الصفح» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٣)، وفي العربية العذر هي «الحجة التي يعتذر بها» و«تحري الإنسان ما يمحو به ذنوبه» وجاء كذلك من معاني الجذر «كثرة الذنوب والعيوب»، فقوله ﷺ «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم» أي «تكثر ذنوبهم» (التاج، ٣: ع ذ ر). وفي الجعزية ʿudr/ʾudr بمعنى «يعتذر: (Leslau 198756) وفي الأكادية azari أو asaru) بمعنى «يسمح، يغفر» (CAD. 1,2: 527) وفي العبرية "عدر" بمعنى اعتذر .(HAL: 766)

* **س ٥ ي س ك ر**: فعل مضارع من الجذر س ك ر، ومعناه في السبئية «يطيب نفسا (الإله)، يرضى» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٢٥)، ومعناه في المعينية «هدأ»، ولا يوجد لها شواهد في القتبانية والحضرمية (Ricks 1989; Arbach 1993; 82). وذكر الغول المعنى الوارد في CIH «هدأ» الذي قارنها بـ سكن، ويقول أن هذا أمر معقول (Ghul 1993: 61). وفي العربية سكرت الريح أي «سكنت» بعد الهبوب، وليلة ساكرة أي «ساكنة» لا ريح فيها، وأورد التاج شعرا لأوس بن حجر:

تزاد ليالي في طولها فليس بطلق ولا ساكرة

وأورد كذلك الماء الساكر أي «الساكن» الذي لا يجري. ويقال للشيء الحار إذا خبأ حره وسكن فوره قد سكر (التاج، ٣: س ك ر).

- **س ٥ ع ذ ب**: وتعني في السبئية عقوبة «من أحد» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٢)، وفي القتبانية جاءت صيغة سفعل منها بمعنى يعاقبل (Ricks 1989: 115).

أما في العربية فتعني كلمة العذب «المنع، الكف، والترك»، وأعذبه عن الطعام أي «منعه وكفه". وكذلك العذاب هو «النكال والعقوبة» (التاج، ١؛ ع ذ ب).

- **س ٦ ف خ ط أ ت**: الفاء واقعة في جواب الشرط. خ ط أ ت: فعل ماض مفرد مؤنث، ومعناه في السبئية «كفر – غرم عن خطيئة» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٦٣)، ولم ترد بهذا المعنى في باقي النقوش العربية الجنوبية، ولم ترد في الحضرمية، ومعناها في تلك النقوش «أخطأ، خطيئة ;Ricks 1989: 71-72) (Arbach 1993: 44. وفي الجعزية (za-hati'at) بمعنى «قربان خطيئة» (Leslau 1987: 268). وجاء في العبرية من معاني الجذر "حطا" «قربان خطيئة» (BDB 307) وفي النبطية ح ط أ/ ح ط ي/ بمعنى «غرامة عقوبة» (DISO 86; Abu Qiass 1993: 103). ووردت في نقش لحياني L118 غامض المعنى بمعنى «خطيئة» (أنظر قدرة ١٩٩٣: ٤٣).

:CIH 612

١ وي ذ ي|ح ن ب م ح ر م هـ و و ...
٢ . هـ و ب ك ل خ ط ي أ هـ خ ط أ و ب هـ و ع د | ي ...م
٣ ح ر | م هـ و ب ذ ن ... و إ ل| س أ ل و ب | ا ن و

الترجمة:

١ ويذبحن بمعبده و...
٢ هـ و عند كل خطأة أخطأها بحقه (أي بحق الإله) في

٣ معبده، بهذا؟ ... ولا يسألن بنو

:CIH 678

١ و ف د ب ن ع ب د |... ب ن ي ٢ هـ) و ن ت خ ي...
٢ ... ش) (ر ح ا ت

الترجمة:

١ وافد بن عبد [.. بنو ٢ ن ت خ ي ٣... ش] و ح ا ن

التعليق:

ليس في هذا النقش ما يسعفنا بشأن فكرة البحث وتعد كلمة ن ت خ ي الـواردة في السطر الثاني كصيغة فعلية غامضة المعنى، إذ لم يفسرها المعجم السبئي (المعجـم السبئي ١٩٨٢: ٩٥)، وفسرتها بيلا بمعنى «يعترف»(Biella 1982: 301).

:Fa 14 = RES 2980 [Min]

١ ع م ي ث ع ن بْ ط ب ن ٢ أ ب ك ر ب م ل ك م ع ن ٣ و م ع ن و ي ث ل أ ر ش ٤ و ن ت ذ ر ك ع ث ت ر ٥ ي هـ ر ق ب هـــ ن م س ٣ ر أ ٦ س ط ر أ س د ب ن أ ب ٧ ي ت هـ س م ب هـــ ج ر ن ي ٨ ث ل أ س ط ر م ع ن و ٩ م ر ث د ت س م و ب هـ ن ١٠ ف أ س م ح ر وق ر ذ ١١ هـ ب ي ث ل ذ ر ث د أ ١٢ ل أ ل ت م ع ن و ي ث ل ١٣ ب ن ش ك ذ ح و ر ذ هـ ب ١٤ ب ن و ب هـ ن ل ا ع ت ن ي ١٥ أ ق هـــــ ل أ ق [ب] ل ل م ع ن ١٦ ك ب ع ل ي ث ل ك ع ث ١٧ ت ر ش ر ق ن و ك إ ل ١٨ [ل أ ل ت م ع ن و ي ث ل]

الترجمة:

اعتمد في هذه الترجمة في بعض فقراتها على (Beeston 1953: 14-115).

١ عم نبط بن ٢ أب كرب ملك مْعين ٣ و(شعب) معين ويثل، مزق (الملـــك) وجهه ٤ وكفّر لــ (الإله) عثتر ٥ يهرلق لأنه نهب /أزاح النقش ٦ الذي من معـــابدهم ٧ بمدينة يثل ٨ (وهي) نقوش معين ٩ وتكربسهم، ولأنه ١٠ انتهك قانون ســـيادة ١١ أرض يثل التي بجانب الوادي التي كُرِّست ١٢ لآلهة معين ويثل ١٣ عندما أقام علـــى الأرض التي بجانب الوادي ١٤ ولأنه لم تُعر انتباهُ ١٥ جماعات للهبة التـــي قدمتـــها الدولة المعينية ١٦ لسيد يثل لمنطقة عثتر ١٧ شرقت ولآ[لهة ١٨ معين ويثل].

التعليق:

- س ٣ أ ر ش: صيغة فعلية على وزن «ف ع ل»، وتعني في المعينية «يمـزق» ولم ترد إلاّ في المعينية (Beeston 1953: 113; Arbach 1993: 7). يذكر التاج أن الأرش ترادف كلمة نَذر وهي «ما يجب دفعه عند حصول الجرح (التاج، ٣: ٥٦١؛ الهمذاني ١٩٨٦: ٢٦٤، حاشية ٣؛ ٢٩٢، حاشية ٥). وفي البونيـــة ʾršh تعني «ثمن لحم الإنسان /الحيوان» وهذه تعني «بديـــل الضحيـــة – التقدمـــة» (DISO 26). وفي العبرية "ارش" وهي « العلاقة بين الإله ومعبده أو النـــاس»، ويضيف أن لها علاقة بـــ «أ ر ش» في العربية وهو «مبلغ ما يدفع ثمناً لـــــ» (BDB 77). ووردت بمعنى كاهن في نقش سبئي Haram 50 = RES 3303/2 (قارن أعلاه)، ربما أن Arbach عدّه نقشاً معينياً، إذ أورده ضمن النقوش التـــي استشهد بها لهذه الكلمة، وعقّب بعدهـــا Aucune attestation dans d'autres dialectes.

وجاء من هذه اللفظة اسم علم، وولد عنبر بن وائل: رفيدة وأرشـــة (الـــهمداني ١٩٨٦: ٢٩٢؛ أبن دريد ١٩٩١: ٢٩٥) وورد اسم أرش فـــي أحـــد النقـــوش الثمودية في وادي متاخ (King 1989: 38, No. 1).

ومن المحتمل أن هذه الكلمة مستعارة من الفينيقية، حيث شواهد أخرى لمثل هـذه الإستعارة (انظر بافقيه وآخرون ١٩٨٥: ٢٩٨، Beeston 1939b: 60; RES 3427).

- س ٥ م س ٣ ر: فعل ماض ويعني في المعينية «نـــهب» (Arbach 1993: 63)، وفي السبئية «أزال – أزاح نقشاً أو نصباً» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٨٨)، ولم يرد له شواهد في القتبانية والحضرمية (أنظر Arbach 1993: 63). وفـي العربية بمعنى «سل وأخرج» (التاج ٣: م س ر) يظهر من خلال شرح كلمـة «لصر» في العبرية وفي الآرامية، «يمنح، يقدم، سـلم» أن معناهـا لا يشـابه المعنى الوارد في السبئية (BDB 588).

- س ١٥ أ ق (ب) ل ل م ع ن: هذه قراءة ريكمانز (Ryckmans, G. 1952: 12)، أما بيستون فيقرؤهـا أ ق [ب] ل م ع ن (Beeston 1953: 114, Note 20)، في حين أن جام يقرؤها قـراءة مختلفـة أ ق هـــ ل س ق ب م ع ن ويفسرها «الجماعات التي بجوار معيـن» (Jamme 1972: 72). أمـا وجـه إعتراضه فيكمن في معنى كلمة أ ق (ب) ل يفسرها بـ «ضرائـب»، وحسـب رأيه، فهذا المعنى لا ينسجم مع معنى العبارة التي أتى بها كـل مـن ريكمـانز وبيستون. ويرى جام أن من إحدى دواعي إعتراف الملك هـو عـدم إهتمـام الجماعات التي بجوار معين بالاله عثتر أنه سيد معين، ولجمـع آلهـة معيـن. وكذلك كان على الملك أن يتأكد من الغرباء أنهم يعيرون إنتباها لآلهـة معيـن، ويتوجهون بدورهم لعبادته (Jamme 1972: 72).

:RES 3706 [Min]

١ .... أ ل ت ... ك ب ر ب ...

٢ ... غ م هـ ن خ ط أ و ب هـ ن س ن ...

٣ ... م ب م ح ر م ن و ت ض أ ك (ب) ر ن و ع هـ ر هـ ن

٤ ... و و غ ل ن ب أ ذ ن هـ أ ل أ ل ت م ع ن ب ث و [ب

٥ ... ث و ب س م ث و ب ن ع م ب ي و م هـ أ ب ك ر ب ...

الترجمة:

١ ... أ ل ت كبير ب...

٢ ... غ لأنه عمل خطيئة ولأنه س ن...

٣ ... م بالمعبد ونذر الكبير والشريف

٤ ... والشفاعة بقدرة آلهة معين بثواب..

٥ ... ثوابهم جزاء نعمة بيومه أبكرت...

:Haram 35 = RES 3956

١ خ و ي ل ت أ م ت س ل ي م م ت ن

٢ خ ي ت و ت ن ذ ر ن ل ذ س م و ي ب ع

٣ ل ب ي ن ب هـ ن ل ب س ت ع ط ف

٤ ط م أ م و ج ز ز ت م هـ ط م

٥ أ ت ف خ ب أ ت م ن أ م ر أ

٦ هـ ذ أ ن ي ت و ذ س م و ي ف

٧ ل ي س ٣ و ب ن هـ ن ع م ت م

٨ ف هـ ض ر ع ت و ع ن و و خ

٩ ط أ ت و ت ح ل أ ن

الترجمة:

١ خويلة أمة (قبيلة) سليم أعترفت

٢ وكفرت (عن ذنبها) لذي سماوي بعل

٣ بين لأنها لبست معطفا

٤ عيه نجاسة، ونجست كساء صوف

٥ فأخفت (نفسها) من ألهها

٦ ذي أ ن ي ت وذي سماوي؛

٧ فليثيبنها نعمة،
٨ فذلت واغتنمت، وكفرت
٩ وأنابت من الخطيئة

التعليق:

- **ط م أ م**: إسم مفرد مذكر؟ غير معرف من الجذر ط م أ، وورد كذلك في هذا السطر على وزن هـ ف ع ل، **ويعني** في السبئية «نجاسة، شيء نجس» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٥٣)، ولم يرد له شواهد في غير السبئية من مجموعة النقوش العربية الجنوبية (أنظر Ricks 1989; Arbach 1993)، وهو في العبرية «طما» تعني «ينجس، يلوث» وهي كذلك في الآرامية (BDB 379)، وفي السريانية أيضاً (Smith 1903: 176).
- **س ٧ ي س ٣ و ب ن**: فعل **مضارع** من الجذر «س ٣ و ب»، ومعناه في السبئية «يجازي» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٣٩)، وهذه الكلمة تقابل ي ث و ب ن حيث أن «س٣» يقابل «ث»، وهذا معروف في النقوش الحضرمية.

:Haram 36 = RES 3957

(يعود إلى نهاية عصر ملوك سبأ).

١ س م ن ت ب ن ت ب ن أ ٢ ل ح ن ك ي ت ن ت ن خ ٣ ي ت
و ت ن ذ ر ت ل إ ل ٤ هـ هـ ذ س م و ي ب ع ل م ب ي ن ب هـ ن
س ل ح ت ٦ ذ أ ذ ن هـ ف ج ز م س و ٧ أ ذ س م و ي ع ل ي ر ش ٨
د هـ ف هـ ض ر ع ت و ع ن ٩ و ت و خ ط أ ت س م ن ت

الترجمة:

١ سمينة بنت بن أيل ٢ الحنكية إعترفت ٣ وكفّرت لإلهها ٤ ذي سماوي بعل
٥ بيّن لأنها نجّست (بالمس) ٦ شخصاً في حمايته (أي الإله)، فأدى ذلك إلى غضب

٧ ذي سماوي، (فأدى ذلك) على تقويمه؟ (أي عقاباً يُقوِّم صاحب الخطيئة) ٨ فذلـــت وأغتمت. ٩ وكفرت سمينة.

التعليق:

* **س ٥ س ل ح ت:** فعل ماض مفرد مؤنث غائب، ومعناها في السبئية «لـــوّث، نجّس أحداً بالمس» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٢٦؛ قارن Ghul 1993: 21)، ولم يرد لها شواهد في النقوش العربية الجنوبية الأخـــرى (أنظـــر Ricks 1989; Arbach 1993).

:RES 4782

١ و ل ي هـــ ب ث ن ل إل هـــ ن ٢ ف خ ذ م و م ق د م ن ب د ل ت ن ٣ و ر ش ي ن ل ي ث ب ن ب ع م ش ع ب ن

الترجمة:

١ وليقدم (قرباناً) للإله، ٢ فخذاً وذراع (حيوان) كفّارة ٣ وتقدمه لكي يقيم مـع القبيلة

التعليق:

س ٣ ل ي ث ب ن ب ع م ش ع ب ن (أنظر Beeston 1952 a: 273).

:Ja 525

١ و ل ق ب ل ذ ج و ز ت م ح ر ٢ م هـــ و غ ي ر ط هـــ ر م و هـــ ض ٣ ر ع ت ل هـــ و ح ي و ن ل ي و ع ن ٤ و و هـــ أ ل ي ص ح ب ن ق د هـــ و

الترجمة:

١ لأنها مرت (عبرت) معبده ٢ غير طاهرة، فذلـــــت ٣ لـــه ح ي و ن ل ى وأغتمت، ٤ و(لكن) ليرضى هو (الإله) من بعده «نأيه".

(أنظر ترجمة أخرى Jamme 1955: 121).

التعليق:

- **و هـــ و:** الواو إما عاطفة أو للإستدارك، هو: ضمير الفصل.
- **ل ي ص ح:** اللام لإنشاء الطلب أو التمني (بيســـتون ١٩٩٥، 7:8). ي ص ح: فعل مضارع، مفرد، غائب، مذكر، ومعناه في السبئية «يرضي، يطيب نفســـــه» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٤٢).
- **ف ق د هـــ:** إسم، مفرد، مذكر، مجرور، مضاف، والهاء مضاف إليه، ومعنـــاه في السبئية «غاب، نأى إله» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ٤٥).

:Ja 557

و و ض أ أ ب ك ر ب ب إ ذ ن إ ل م ق هـــ و م ل ك م ر ي ب

الترجمة:

وأبرأ أب كرب (نفسه) أمام (الإله) المقه وملك مريب (مارب).

التعليق:

- **و ض أ ... ب إ ذ ن:** يستخدم هذا التعبير في السبئية بمعنى «أبرأ... نفسه مـــن إلتزام»، ومعنى و ض أ «خرج» في غير هـــذا الاســـتخدام (المعجـــم الســـبئي ١٩٨٢: ١٥٦). وجاء في العربية كلمة وضوء وتعني «التطهر» وأصل الكلمـــة من الوضاءة وهي الحسن (التاج، ١: و ض أ). وفي الحرسوسية ’wz لها مدلول مشابه للعربية (Johnston 1997: 139). أما في الجغرية wad’a بمعنى «خرج»

(Leslau 1987: 605). وفي العبرية «يصا» بمعنى «خرج» كما أورد المعجم العبري عددا وافرا من إستخدامات هذا الفعل بمعان تتضمن هذا المعنى، وبالإضافة إلى ذلك ذكر معنى «يزيل/ أزال» الوارد في سفر التكوين الإصحاح ٤٥ الآية الأولى (BDB 422-425).

فيما يبدو أن علاقة المعنى الوارد في النقش وما جاء في العربية، ومعناها في السبئية نفسها «خرج» والعبرية كامن في أن البراءة حالة من الخروج من خطأ ما إلى النقاء والطهارة، أو الحل من الإلتزام. وقد أورد بيستون حالة مشابهة لهذا (أنظر Beeston 1980: 17-18).

:Ja 570

١ [م ر ك ب ن ع ب د م ل ك ن هـ ق ن ي
٢ [إ ل م [ق هـ ب ع ل أ و م ص ل م ن ذ ش ف ت
٣ [هـ و ل ق ب ل] ذ إ ل ت ج ن ب ي و م ث م ن ي
٤ [م ...] ب ع م أ س د م خ ت ن هـ و

الترجمة:

١ ركبان عبد الملك قدم
٢ لإلمقه يعل أوام التمثال الذي وعده
٣ لأنه لم يجن الحصاد باليوم الثامن
٤ ... مع رجال أسرته

:Ja 702

٦ ب ك ن ي ع د و ن ذ م ق م ٧ ت ن ب ب ت ١ ل م ق هـ ٨ (ب) أ و ا م هـ خ ط أ ت و س ٣ ٩ ب إ ل س ٣ ن ي و س ٣ ي ق ب و ١٠ س ط م ح ر م ج ن ز ت ن و ١١ ن ق م ع ب د هـ و ث و ب ١٢ إ ل ب

م ر ب أ (ض) ر س هــ و و ث ن ١٣ هــ و ت أ هــ ر ن أ ض ر س هــــ
١٤ و و ث ن ي هــ و

الترجمة:

(أنظر صدقه ١٩٩٤: ٩٢ Müller 1980: 69-70).

٦ لأنه يسير صاحب سلطة ٧ بمعبد المقه ٨ بأوام، أخطأ وأقام ٩ من غير أذن س ٣ ي ق بوسط ١٠ معبد (أي) موضع جنازة، فنقم ١١ (الإله) من عبده نوب إيــل ١٢ بفساد أضراسه وثناياه ١٣ (و) تقرحت أضراسه ١٤ وثناياه.

التعليق:

- س ٩ س ن ي و: فعل ماض، مفرد، مذكر مــن الجــذر س٣ ن ي غامضــة المعنى في المعجم السبئي (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٣٩)، إلا أن Arbach أورد صيغة ‘Is^{3}nw/ ‘Is^{3}n مفردا وجمعا في السبئية بمعنى «من غير إجـــازة / إذن/ ترخيص»، وأوردها تحت الجذر s^{3}nn في المعينية ومعناه «حد، نهايـــة، تخــم واتجاه» (Arbach 1993: 91).

Ja 720:

١ ا ج ر م و ش ر ح ٢ م ذ ي ذ ب ي ن هــ ق ن ي و ٣ م ر أ هــ م ي ا ل م ق هــ و ٤ ب ع ل أ و ا م ص ل م ن ذ ٥ ص ر ف م ت ذ ر م ل ق ب ل ي ذ هــ ٦ خ ط أ و ب م ر أ هــ م و ا ل م ق ٧ هــ و ب ع ل أ و ا م ك إل ص ب ٨ ن و و ث ب ب م ح ر م ن و ي س ٩ ت ص ي ن ب ن ذ ف ر أ ن و ب ن ب ص ١٠ ل ن و س أ ر خ ط ي أ ن خ م ر هــ و م ١١ و ت س ن ن ك ر ع ب د هــ و أ ج ر م ١٢ س ث ت أ و ر خ م م ر ض م ف ش أ ١٣ م ذ إل م ن ش ع ر ك م هــ ن هــ أ ١٤ ح ل ظ هــ و و ب ن و ذ ذ ب ي ن ل ح ذ ر ن ن ١٥ ب ن هــ خ ط أ ن ب ا ل م ق هــــ و ل م ش و م ١٦ ع ر ب ت م ب ن ذ ذ ب ي ن و ز أ ك ش هــ ١٧ ن ل ع ب د

هــو أ ج ر م ب ع د ن ١٨ إك ب ن ن ف س هــو ب أ ل ١٩ م ق هــب ع ل أ و ا م.

الترجمة:

١ أجرم وشرحم ٢ اللذان من قبيلة بين قدما ٣ لسيدهما المقه ٤ بعل أوام تمثالا ٥ من الفضة ت ذ ر م لأنهما ٦٦ أخطأا بحق سيدهما المق ٧٠ بعل أوام، إذ لم يمتنعا ٨ (من) الجلوس بالمعبد، ويفيح منهما ٩ رائحة كريهة من نبآت كريه الرائحة ومــن بصل ١٠ وبقية الخطايا؛ منحهم ١١ وسن عقابا (ل) عبده أجرم ١٢ ســت سـنوات مرضا معديا، ١٣ ليس هناك من عرف ما هو ١٤ داؤه، ولكن بني بين ليحــذروا ١٥ من الخطأ بحق المقه، وليسوقوا ١٦ قربان خطيئة من بني بين، وقرب قربان خطيئــة شاه ١٧ لأجل عبده أجرم بعد أن ١٨ نجا من شدة بنفسه؛ بالمقه ١٩ بعل أوام.

التعليق:

- **س ٧-٨ ص ب ن و**: فعل ماض، مذكر، جمع، غائب، إلا أنه في بداية النقــش يوجد ذكر لإثنين فقط. ومعناه في السبئية «امتنع، أمسك عن فعل شيء» (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٤٠). وفي العربية يصبنها صبنا أي «كفها ومنعها» (التـــاج، ٩: ص ب ن). وجاء عند ابن فارس صبن الشراب أي «إذا صرفه عمن هــو أولى به» (مجمل اللغة، ص ب ن؛ أنظر Jamme 1962: 303). ووردت كلمــة ص ب ن في أحد النقوش الصفويــة «ل أ ز م ل ب ن أ و س إ ل و ح و ب ص ب ن» (WH 1521). وترجمت إلـــى «الابتعــاد عــن» (Winnett and Harding 1978: 248).

- **س ٨-٩ ي س ت ص ي ن**: فعل مضارع على وزن يستفعلن، مثنى، مذكــر، الغائبان، من الجذر ص ي و، وتعني في السبئية «يفيح منه صنـــان» (المعجــم السبئي ١٩٨٢: ١٦٩).

- **س ١٤ ل ح ذ ر ن ن:** اللام، أداة الطلب، ح ذ ر ن ن: فعل مضارع مثنى، مذكر، الغائبان بالنهاية – ن ن وهي حالة المثنى في المضارع، وحذفت ياء المضارعة لدخول لام الطلب عليها (أنظر بيستون ١٩٩٥: 5:8).

- **س ١٦ ز أ ك:** فعل ماض، غائب، مذكر، وتعني في السبئية قربان خطيئة (المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٦٩) ولعله من المفيد أن نذكر الفعل «س أ ك» الذي ورد في عدد من نقوش يلا التي نشرها الإرياني في كتابه «تاريخ اليمن، نقوش مسندية» والذي حاول بدوره إعطاء تفسير لهذه الكلمة بمقارنتها بالفعل «ساق» معتمداً على الظاهرة الصوتية، ويقول من خلال تصوره لعملية الصيد والممارسات التي تجري في هذا الحدث «فهذه العملية بمجملها، والتي تؤدي في النهاية إلى (الصيد) يمكن أن تسمى (السوق)، وأن يعبر عنها بجملة «فلان ابن فلان ساق وصاد كذا وكذا".

فالإرياني يقر من خلال المعنى والدلالة تفسيرها بـ «طوق» وكذلك بالفعل «ساق". إلا أنه يرى صعوبة مقابلة «سأك» بـ «طوق» أو «ساق» من حيث التطور اللفظي وعملية التحولات الصوتية (الإرياني ١٩٩١: ٤٣٦ – ٤٣٨).

فالمجال مفتوح كما قال الإرياني، ولعله من المناسب إيجاد المقابل لهذه الكلمة، فورد في العبرية الفعلان «سيك» و«سوك» بمعنى «يسيج، يطوق، يبني سياجاً»، وورد كذلك الفعل «شوك» بالمعنى ذاته (BDB 962) فالاختلاف الوحيد هو في عين الفعل، ومثل هذا سهل العليل، لأن عين الفعل في الكلمتين ضعيف «حروف علة» وحروف العلة سهلة التبادل فيما بينهما ولعل كلمة س و ك السبئية تقابل أو والفائدة من ذكر س أ ك ومقابلتها من ز أ ك هو إمكانية استنتاج أن الشاة التي ساقوها هي من الطرائد؟ وبخاصة أن التشابه الصوتي بين «س» و"ز» كبير.

الصلوي:

١ ي س م ع إل ب ن إل ش ر ح ٢ هـ ب ش ن ي ت ن خ ي و
ت ٣ ن ذ ر ل ذ س م و ي ب ي ذ ر ع ب ٤ هـ ن ج و م ب ط ح ت ن
و هـ و ٥ ع ب ر و هـ ن د ك ك ع د ب أ ٦ ر ن هـ ن و هـ أ م ح
ت ل م ٧ و هـ ن ص ع د و ل م ي ن و ر ع ٨ ل هـ ن ف هـ ض ر ع
و ع ن و و ي ح ل أ ن

الترجمة:

(أنظر الترجمة الواردة عند الصلوي ١٩٩٣: ٥).

التعليق:

* **س ٤ ج و م**: يذكر الصلوي أن هذا الفعل يرد لأول مرة، ويقارن هذا الفعل بكلمة جام والتي يقول عنها اللسان أنها مثل حام يحوم لطلب شيء خيراً أو شراً. ولهذا فإنه يرجح معنى «تخطى، تجاوز» تفسيراً لهذا الفعل (الصلوي ١٩٩٣: ٥).

ومثل المعنى الذي نقله الصلوي عن اللسان، فقد جاء بالتاج كذلك، أن جام مثل حام.. حوما إذا طلب شيئاً خيراً أو شراً (التاج، ٨: ج ا م)، فهي بمعنى «دار، طاف»، وأورد التاج حديثاً في الاستسقاء «اللهم ارحم بهائمنا الحائمة» وهي التي تحوم حول الماء أي تطوف (التاج، ٨: ح و م). فالمعنى في العربية لا يعبر تماماً عن عبور إلى داخل الشيء.

ورد في الآرامية والسريانية مادة «ج و م» بمعنى «دخل» (Cohen 1970: 108; Smith 1903: 63-64). وهذا أقرب للصواب، وربما هذه الكلمة من الكلمات الدخيلة في السبئية.

يلاحظ أن الصلوي أورد معنى هذه الكلمة على وجه التقريب، بيد أن اشـــتقاقه ومقارنته لها بالعربية غير دقيق (الصلوي ١٩٩٣: ٥).

:N 74

النقش من قراءة بيستون (Beeston 1952b: 142):

١ ب ن ع ق و ت ت ع ق و هــ و ف ع ث ت ب ن هــ
٢ ع ن و س ع د ن ب ن س ع د م ب ي س ط م ح ر م [ن]
٣ ذ م ع د ي م و ب م هــ ي ت ع ق و ت ن ن ص ف و ك هــ
٤ ي ف ع ت ذ ت ب ع د ن م و ز ع م هــ ب ي س ط م ح ر
٥ م ن ث ل ث أ ز ع م م ب ل ت ي ك و ن ب م ح
٦ ر م ن ك ل ب ع ل ت م و ح ل م ت م و ح ج ن ي ق هــ ت
٧ ذ ت ب ع د ن م ب م ع د م ل س ٣ ن د ذ ن م س ٣ ن د
٨ ن ح ج ن خ ر و ت هــ ي ت ع ق و ت ن ب ز ع م هــ ب
٩ ل ت ي ك و ن ب هــ و ك ل ب ع ل ت م و ل ح ت
١٠م ي ن و س ت و ف ن ب ن هــ ع ف ش ن و ع ق و ت ن ب
١١م ح ر م هــ و م ن ذ ي ع ت ق و ن و خ ر ط ب ي
١٢س ط م ح ر م ن و ل ي ق ت ر ن ب م ح ر م ن
١٣[و] ل ي هــ [ب] ط ن و ل ي ع ذ ب ن ع ش ر ي ب ل
[ط م]...

الترجمة:

ملاحظة:

أكمل بيستون النص الذي في البداية بما يلي:

[فلانة بنت فلان قدمت لــ ذ ت ب ع د ن م هذا اللوح (زبر عليـــه نقــش). عندما مثل هذه الفاجعة قد وقعت]،

١ حين اقترف فاحشة هوف عثت بن هــ

٢ ع ن وسعدن بن سعدم بوسط المعبد

٣ ذ م ع د ي م، وبتلك الفاحشة التي اقترفاها (ومع اقترافهما تلك الفاحشـــة) أقاما الشعائر عندما

٤ أعلنت ذ ت ب ع د ن م وقولها بوسط المعبد

٥ ثلاث مرات بدون وجود بالمعبد

٦ أي كاهنة ومفسرة الرؤيا «كاهنة»، وفي أثناء ذلك أمرت

٧ ذ ت ب ع د ن بمعبدها لإقامة هذا اللوح

٨ بمقتضى أنه أقترفت تلك الفاحشة بقولهما

٩ من غير وجود أي كاهنة. وذلك لتحمي

١٠ وتنجي من فعل ما هو شائنا ومنكرا

١١ بمعبدها. ومن يقترف منكرا «فاحشة» وفعلا محظورا

١٢ بالمعبد، فليعاقب بالمعبد

١٣ وليضرب وليغرم عشرين بلطم من النقود

بخصوص الترجمة والتعليق على هذا:

(أنظر نامي ١٩٤٣: ٩٥-١٠٠؛ Beeston 1952b: 142-147; Ryckmans, J. 1956: 91-94).

CIAS. I. 115-18 = YM 547:

١ ح ج ن و ق هـ ا ل م ق هـ ب م س [أ]

٢ [ل] هـ ك م ن م أ ن س ذ ي ح ظ ر [ن]

٣ و ل ي ذ ب ح ن ذ ب ح م ف أ و [ل]

٤ ي أ خ ر ن ر ش و ن ح ظ ر هـ و [و]

٥ إ ن س ي ح ظ ر ن و ل ي ذ ب ح ن

٦ و ل ي هـ م ظ أ ص د ق م

الترجمة:

١ بمقتضى أمر (الإله) المقه الموحى
٢ له، كل شخص يفعل ما يستوجب الحرمان؟
٣ عليه أن يذبح ذِبحاً، أو
٤ فليقوم الكاهن بإزالة المحظور؟ و
٥ كل إنسان يفعل ما يستوجب الحرمان؟ فليذبح
٦ وليفعل ما هو حسن

التعليق:

يظهر من النقش أن من يرتكب مخالفة تستوجب الحرمان عليه أن يذبح ذِبحـاً، وإن لم يفعل ذلك؟ فالكاهن يتولى هذه المهمة. أما بيستون فله وجهة نظر أخـرى: أن من يفعل المخالفة عليه أولاً تقديم الذِبح (Beeston 1977b: 16). فهو بذلك يعارض ما أبداه جاربيني حيث أن مقترف المخالفة عليه تقديم الذِبح بعد ارتكابها (Garbin 1973: 37-42؛ أنظِر Jamme 1976).

:CIAS. 187 = YM 441

٦ و ذ ت ص ل م ت ن ق ب ل ي
٧ ذ ش ف ت ن هـ و ب ذ ب هـ أ ن م
٨ ح ر م هـ و و أ ل ب س هـ و إ
٩ ل ظ ي

الترجمة:

(أنظر Beeston 1977a: 87-88).
٦ وهذا التمثال المؤنث بسبب
٧ ما وعدته لأنها دخلت
٨ معبده (الإله المقه) وملابسها

٩ غير طاهرة

التعليق:

يلاحظ أنه في بداية النقش يوجد ذكر للإمرأتين اللتين قدمتا التقدمة، إلا أنه بالسطر السابع يوجد ذكر لواحدة فقط التي وعدت بهذا التقديم بسبب دخولها المعبد وملابسها غير طاهرة.

ثانياً –مرتكب الخطيئة:

الجنس والرتبة والعدد:

ضمن النقوش السبئية التكفيرية جنس مرتكب الخطيئة، معلنة اسمه صراحة في بعض النقوش، ومكتفية بجنسه في نقوش أخرى، فالخطيئة لم تقتصر على جنس دون آخر أو رتبة دون أخرى، فقد ارتكبها الذكر كما ارتكبتها الأنثى:

١–الذكر:

كثرت في النقوش التكفيرية أمثلة مرتكب الخطيئة الذكر، وأورد شواهد على ذلك مايلي:

- «ح ر م ب ن ث و ب ن» (CIH 523/1).
- «ي س م ع إ ل ب ن إ ل ش ر ح هـ ب ش ن ي ن» (الصلوي ١٩٩٣/ ١–٢)..
- « أ ب ك ر ب ب ن ن ب ط ك ر ب ذ ز ل ت ن ع ب د» ...]" Ja; (557).
- «م ر ك ب ن ع ب د» (Ja 570/1).
- « ث و ب إ ل ذ أ ع ز ز» (Ja 702/2).
- «أ ج ر م و ش ر ح م ذ ي ذ ب ي ن هـ ق ن ي و» (Ja 720/1-2)..
- «هـ و ع ث ت ب ن هـ ع ن و س ع د ن ب ن س ع د م» (N74/1-2).

٢-الإناث:

وقد ورد ذلك في عدد غير قليل من النقوش السبئية؛ وأمثلة ذلك ما يلي:

- «أ خ ي ت ب ن ت ث و ب ن حــ ن ك ي ت ن» (CIH 532/1).
- «أ م ت أ ب هــ ت ن خ ي ت» (CIH 533/1).
- «م ر ج ل ت ب ت ت ح ي ل ي» (CIH 568/1).
- «خ و ل ي ت أ م ت س ل ي م م» (RES3956/1).
- «س م ن ت ب ن ت ب ن أ ل ح ن ك ي ت ن» (RES 3957/1-2).
- «أ ح م د ت و ح ك م ت» (YM 441/1 = CIAS. I. 87).

وقد كان مرتكبو الخطيئة من حيث العدد متفاوتين، فكان مرتكبها واحد علـــى الأغلب الأعم، كما تظهر جملة النقوش السابقة ذلك، وربما كان مرتكبها اثنيـــن (Ja 720; N 74)، وقد يكونوا أكثر من ذلك، «ت ن خ ي ت ت ن خ و ث م ن ي ت ن و أ ب ع ل س ي ر و م ف ر هــ ج ر ن» (CIH 546/ 1-2)، والنقش «أ هــ ل ا أ م ر م و أ هــــ ل ع ث ت ر ت ن ا خ ي و و ن ت ذ ر (CIH 547/1-2)، ففيهما إشارة إلى أهل أو جماعة.

وتورد النقوش السبئية ذكر امرأتين قدمتا تقدمة للإله المقـــه إذ نجـــاهن مـــن المرض، بيد أن النقش يشير إلى أن مرتكب الخطيئة امرأة واحدة فقـــط (YM 441; RES 3957/1-02).

وتشير النقوش إلى رتبة مرتكب الخطيئة أيضاً، فقد كان مرتكبها شخصاً عادياً (CIH 523/1)، أو عبداً (Ja 557; 570) أو أمة (RES 3956)، أو صاحب سلطة دون تحديدها (Ja 702)، وقد شارك الملك أفراد مجتمعه في نقش معيني في طقوس التكفير عند اقترافه الخطيئـــة «ع م ي ث ع ن ب ط ب ن أ ب ك ر ب م ل ك م ع ن و م ع ن و ي ث ل أ ر ش و ت ن ذ ر» (Fa 14/1-2 = RES 2980). وقد ترد

الخطيئة في النقش كخطاب عام دون أن يقصد بها شخص بعينه «و ل ي هــ ب ث ن ل إ هــ ن» (RES 4782/1).

الأفعال المستخدمة في الاعتراف:

تعلن النقوش التكفيرية عن الخطيئة بصوت عال، لأن في ذلك تطهير لمقترفها، وهو بمثابة إعلان عن النية الصادقة للتوبة، وقد عبر مرتكبو الخطايا عن خطاياهم عن طريق عدد من الأفعال، وقد أدرجت هذه الأفعال مفصلة في مواضعها من مجموعة النقوش السابقة وهي:

- ت ن خ ي: CIH 523/1; 532/2; 533/1; 546/1; RES 3956/1-2؛ الصلوي ١٩٩٣/ ٢.
- ت ن ذ ر ن: CIH 523/1-2; 532/2; 533/1-3; 547/5; 568/2; RES 3957/2; Fa 14/4؛ الصلوي /٢-٣ وردت في نقش RES بصيغة «م ن ذ ر ن". ووردت بصيغة ن ت ذ ر في نقش معيني (Fa 14/4).
- ي ك ف ر ن: CIH 539/1.
- ا ر ش: RES 2980 = Fa 14/4.

ولم يقتصر إعلان التكفير في نقوش سبأ على إله دون غيره، فقد أعلنت لكل من:

- ذ س م و ي: RES 3957/7, 3956/2-3. CIH 523/2, 532/2, 533/2، الصلوي ٣.
- ر ح م ن: CIH 539.
- ح ل ف ن: CIH 546/3?, 547/2.
- ب ع ل ب ي ت ا ل هــ س ع ي د م: CIH 568/2-3.
- ل ا ل هــ ن: RES 4782/1.
- ا ل م ق هــ والملك Ja 557, 570, 702, 720/6-7, YM 441, CIAS 1.87.

- ذ ت ب ع د ؟ م: N 74.
- ع ث ت ر: Fa 14.

أسباب الخطايا وأنواعها:

تعددت الأسباب الموجبة للتكفير الناجمة عن الوقوع بألوان متعددة من الخطايا، ويتلمس المتتبع لها في النقوش التكفيرية موضوعات عامة اندرجت تحتها هذه الخطايا، فكانت إما خطيئة مقصودة وإما خطيئة عامة غير مقصودة استوجبت التكفير عن الذنب.

إن انتشار رائحة كثيرة من المتعبد الجالس في المعبد من غير رغبة الإله، بسبب تناول نبات كريه الرائحة، إضافة إلى البصل من الأمور الموجبة للكفارة، وقد قام مرتكب هذه الخطيئة بتقديم تمثال على شكل نصب (Ja 720/2-10) ويشير النقش إلى عملية التكفير ونوعها، وهي تقديم شاة لأجل عبده أجرم في الأسطر من ١٤-١٨ (أنظر صدقة ٩٢:١٩٩٤).

وتصرح النقوش تارة وتلمح تارة أخرى إلى أن من موجبات التكفير بعض القضايا المالية، ففي أحد النقوش أزالت جماعة غرامة نقدية كانت مفروضة على أرض زراعية ملحقة بمدينة هرم «هـ ن ي ب ن ن ظ ل ع ن و ت ن ك ر م ب س ر هـ ر م م ف ي ظ ت ل ف ن ن ذ م ن هـ و ل ت ر ز أ ا هـ ل هـ ت ن» (CIH 546/3-5).

أما نقش CIH 612 فلا يذكر خطيئة بعينها، وإنما هناك تلميح عام إلى الخطيئة، غير أن النقش يفصح عن كيفية التكفير التي تقوم على عملية الذبح بالمحرم، ويتحدث النقش في بدايته عن أمور التفويض بخصوص إيراد المعبد «الضريبة»، وإبراء الذمة من ذلك، ولعل ذلك تكفير يفعله مرتكب الخطيئة، وورد ذلك بصيغة الفعل المضارع في /ي ذ ب ح ن/.

ومن الأسباب الموجبة للتكفير أيضا دخول حرم الإله «ذي سـماوي» «ب ن هـ ج و م ب ط ح ت ن و هـ و أ ع ب ر» (الصلوي / ٤–٥)، وقد ذكر نقش أن امرأة دخلت حرم الإله وهي غير طاهرة (Ja 535/1-2).

ووجب التكفير أيضا لأن شخصا وضع (شيئا ما) في البئر وهـو محتلـم: «و هـ ن د ك ك ع د ب أ ر ن هـ ن و هـ و أ م ح ت ل م» (الصلـوي/ ٥–٦)، وأخرى سلبت ماء من البئر على غير طهارة: «س ٣ ل ب ت ب ت هـ ا ب ع ل ي ب هـ ن م ب ح ر ع د ن و ا ل ظ ي ت» (CIH 504/4-6)، ولأنه صعـد إلى موضع تقديم القرابين، ولم يقرب قربانا أو لم يكس تمثالا: «و هـ ن ص ع د و ل م ي ن و ر ع ل هـ ن» (الصلوي / ٧–٨: المعجم السبئي ١٩٨٢: ١٠١).

وتشكل مسألة عدم طهارة البدن والملبس إشكالية واضحة توجب التكفير، فقـد دخلت امرأة إلى محرم الإله المقه وملابسها غير طـاهرة (YM 441/7-8)، ووجـب التكفير لأن امرأة لبست معطفا نجسا وجعلت كساء الصوف غير طاهر كذلـك (RES 3956/3-5)، ولأن رجلا قد نجس ملابسه بالمني (CIH 523/7-8)، وقد أخطأت المرأة ببيت الإله ذي سماوي ومحرمه وخرجت إلى ساحة المعبد وهي غير طـاهرة البـدن فشعرت بأنها قد أسرفت في خطيئتها، مما أوجب عليها الكفارة (CIH 532/3-9).

ومن موجبات التكفير ارتكاب الفاحشة داخل المحرم المسـمى /ذ م ع د ي م/ وكانت الفاحشة وقت أداء شعائر العبادة، عندما دعيـت /ذ ت ب ع د ن/ ونـودي عليها بداخل المعبد من غير وجود كاهنة (N74/1-7)، ويعلق بيستون مضيفـا علـى بداية هذا النقش أن فلانة بنت فلان قدمت ل ذ ت ب ع د ن هذا اللوح بسبب وقـوع الفاحشة (Beeston 1952: 146)،وقد يكون ما جاء به بيستون صحيحا على اعتبار أن الرجلين الواردين في النقش قد مارسا الخطيئة مع تلك المرأة، وقـد قـامت المـرأة بالتكفير عن ذلك بتقديم هذا اللوح التذكاري للآلهة /ذ ت ب ع د ن/، ونلحـظ مـن النقش أن نوع الخطيئة لمح إليه تلميحا، وربما هذا هو الأساس في النقوش السـبئية، إذ أن نوع الخطيئة «الأخلاقية» يبقى سرا إذا ارتكبتها انثى.

ويلاحظ ريكمانز أن الاعترافات التي سجلت على ألواح من البرونز جاءت دائماً متعلقة باختراقات فردية لقواعد الطهارة الطقوسية، في حين أن النصوص الاعترافية المنقوشة على الحجر عموماً ذات علاقة بتدنيس الأمكنة المقدسة، وأعمال شائنة بحق قداسة المعبد أو الإرادة الإلهية، وهذه الأعمال تنسب إلى جماعة ولذلك يكون التكفير عنها جماعياً (Ryckmans, J. 1972: 3).

وتستوجب عملية اقتراف الذنب الجنسية الكفارة أيضاً، فالجماع داخل المعبد خطيئة وإن مورس ذلك مع الزوجة؟ «ق ر ب م ر أ ت م ب ح ر م و» (CIH 523/2-3)، ومواقعة المرأة الحائض: «و م ل ث ح ي ض» (CIH 523/3)، والدخول على المرأة النفساء غير الطاهرة: «و هـ ن ب هـ أ ع ل ي ن ف س م و هـ ن ب هـ أ غ ر هـ ط ر» (CIH 523/4-5)....؟ أو مباضعة الحائض مع عدم الاغتسال: «و هـ ن م س ا ن ث ح ي ض و ل م ي غ ت س ل» (CIH 523/6-7). ولم تكن الحيض من النساء تدنو من أصنامهم، ولا تمسح بها، إنما كانت تقف ناحية منها، ففي ذلك يقول بلعاء بن قيس بن عبد الله بن يعمر وهو الشداخ الليثي وكان أبرصاً (بن الكلبي ١٩٦٥: ٣٢):

وقرن قد تركت الطير منه كمعتنز العوارك من مناف

وتعد المواقعة في أيام الحج محرمة وتوجب التكفير، ويشير نقش سبئي إلى رجل جامع امرأة في اليوم الثالث من أيام الحج وهي حائض ثم مضى في سبيله ولم يغتسل: «ب هـ ن ق ر ب هـ م ر أ ي و م ث ل ث ح ج ت ن و هـ أ ح ي ض و م ش ي و ل م ي غ ت س ل» (CIH 533/2-5). ومن الملاحظ على هذا النقش أنه يذكر نوع الخطيئة، وهي جنسية، بالرغم من ذكر اسم المرأة. ولعل هذا بسبب شدة وقع الخطيئة عليها إذ حدثت في ثالث أيام الحج. إن الجرأة في اعتراف المرأة بخطيئة مثل هذه أمام الآلهة يدفع إلى الاعتقاد بأن في هذا الاعتراف كفارة للذنب وراحة للضمير، ولعل فيه تسامحاً وصفحاً من المجتمع المحيط أيضاً لمرتكب الخطيئة، ولو لم يشر النقش إلى ذلك. ويؤدي المس (ربما بإيحاء جنسي) لشخص في

حماية الإله إلى غضبه مما يوجب الكفارة أيضاً: «ب هـ ن س ل ح ت ذ ا ذ ن هـ س و ا ذ س م و ي» (RES 3957/5-7).

ومما تعود إليه أسباب الاعتراف بسبب كون الشخص والجماعة لم تؤد الصيد المقدس للإله حلفان في شهر: «ذ م و ص ب م» وذلك عندما صنعوا إلى يثل بحروب حضرموت، وقاموا بدلاً من ذلك بالحج لإله آخر هو «ذو سماوي» بيثل، ونسأوا علاوة على ذلك صيدهم المقدس حتى شهر ذي عثتر: «ا ل هـ و ف ي هـ و م ط ر د هـ و ب ذ م و ص ب م ا ذ ض ع ن و ل ي ث ل ب ض ر ح ض ر م ت و ح ج و ذ س م و ي ب ي ت ل و ن س أ و م ط ر د ن ع د ذ ع ث ت ر» (CIH 547/3-8 أنظر Beeston 1948: 191-193).

إن التعدي على ممتلكات المعبد من قبل أي شخص ولو كان الملك يوجب الكفارة، فقد حرك الملك أحد النقوش من معابد الإله عثتر التي في مدينة يثل: «ب هـ ن م س ر أ س ط ر أ س د ب ن ا ب ي ت هـ س م ب هـ ج ر ن ي ث ل» (Fa14/5-8)، ولأنه تعدى على التمثال المعلن عنه للأراضي الزراعية التي بجاني الوادي في يثل، والتي قدمت لآلهة معين ويثل، وحرمت الإقامة بهذه الأراضي: «و ب هـ ن ف أ س م ح ر و ق ر ذ هـ ب ي ث ل ذ ر ث د ا ل ا ل ت م ع ن و ي ث ل ب ن ش ك ذ ح و ر ذ هـ ب» (Fa 14/9-13). ولأن جماعة معينية تجاهلت التقدمة المقدمة من قبل الدولة؟ «ممثلة بالملك» لآلهة معين ويثل «و ب هـ ن ل أ ع ت ن ي أ ق هـ ل أ ق [ب]ل ل م ع ن ك ب غ ل ي ث ل ك ع ث ت ر ش ر ق ن و ك أ ل [ل أ ل ت م ع ن و ي ث ل» .RES 2980 = Hal .484, Jamme 1972: 72) (Beeston 1953: 113-115, = Fa 14/14-18)

وهناك أمور عامة توجب التكفير مثل عدم جني الحصاد في اليوم الثامن مع رجال أسرته، وندم مرتكب هذه الخطيئة وقدم مرتكبها تقدمة للإله /ا ل م ق هـ/ تمثالاً (Ja 570/1-4؛ أنظر Beeston 1980 21-22).

وقد يكون الإحساس العام عند الفرد بالتقصير أمام الآلهة والحاجة إلى رضاها دافعا مستديما للشعور بالذنب ووجوب التكفير، ففي أحد النقوش المعينية يقترف شخص برتبة كبيرة خطيئة غير محددة الماهية داخل المعبد _(RES 3706/2-3)، وها هي امرأة تسأل الإله الصفح عن خطيئة غير معلنة لكي يرضى «ب ذ ت س ت ع ذ ر ت هـ و ك ي س ك ر ف ع ذ ب م ن هـ» (CIH 568/4-5). ومن أمثلة ذلك أيضا أن رجلا أراد أن يرجع للإقامة مع قبيلته: «ل ي ث ب ن ب ع م ش ع ب ن» (RES 4782/3= GL. 621؛ أنظر Beeston 1952: 273). فهذا النقش لا يشير صراحة إلى خطيئة معينة، ويتساءل المرء: لماذا يقدم تقدمة كي يقيم مع أفراد قبيلته؟ ولعله اقترف ذنبا ضد القبيلة (كالقتل، أو الإساءة لإله القبيلة..) فأوجب عليه اعتزال القبيلة، وليتمكن من الرجوع إليها والإقامة مع أفرادها كان عليه أن يقدم قربانا يكفر به عن خطيئته التي من الممكن أنه اقترفها (أنظر Serjeant 1978: 31; Beeston 1948: 194؛ صدقة ١٩٩٤: ٩٣)، ويقول الفزاري، وهو أحد الذين منعتهم قريش من الدخول إلى مكة لحدث كان أحدثه، يقول مشيرا إلى سوق البدن والعتائر لذبحها عند الأنصاب (ابن الكلبي ١٩٦٥: ٤٢):

أسوق بدني محقبا أنصابي   هل لي من قومي من أرباب

يظهر من ذلك أن التكفير ليس محصورا على العامة بل شمل الملوك أيضا، وهذا يشير إلى مدى تعلق المجتمع بالآلهة وحرصهم على إرضائهم، وإذا ما خالفوا بأعمالهم وما يظهر على غير الإيمان فنراهم يسارعون إلى إرضائها بالتكفير والندم على ما اقترفوه.

وهناك من هو صاحب سلطة يسير ببيت /ا ل م ق هـ/ بمعبد أوام، وأقام بالمعبد من غير إذن؟ وهو بهذا العمل يرتكب خطأ (Ja 702/6-8)، ليس من السهل إدراك مرامي كل مفردات النقش في السطرين الثامن والتاسع، وهي: «و س٣ ب و س ٣ ي ق و س ٣ ن ي و»، الأمر الذي يجعل من الصعب إعطاء تصور عن كونها

مفردات تعبر عن الخطيئة أم أنها جزء من العقاب المفروض (أنظر Muller 1980: 69-70؛ صدقة ١٩٩٤: ٩٢).

لا يشير نقش Ja 557 إلى نوع الخطيئة المرتكبة، ولعل الشخص /ا ب ك ر ب/ الذي أبرأ نفسه أمام الإله /ا ل م ق هـ/ وأمام ملك مأرب، من قبيل أن التقدمة التي قدمها للإله، وما قام به من أعمال مثل بناء جدار معبد أوام وغيره، من تسديد الدين إرضاء للإله لكي يكون بريء الذمة أمام الإله والملك. ويذكر أنه قام بعملية الابراء بعد الاستغاثة مباشرة، وهذا يوحي إلى أهمية التذلل والاستغاثة للإله، كي يقبل ويلتمس له العذر. ويوجد في نهاية هذا النقش نقص، ولذا لا نعرف فيما إذا استجاب له الإله والملك أم لا؟ ويلاحظ إشراك الملك مع الإله في قبول هذه التبرئة. ويعود هذا إلى أهمية الملك واعتباره خليفة الإله والحاكم باسمه. وأعاد جام هذا النقش إلى أواخر عصر المكربين حوالي ٥٤٠ ق.م. وأوائل عصر الملوك (Jamme 1962: 389).

ويصعب التكهن عن نوع الخطيئة في نقش (CIH 539) بسبب النقص في هذا النقش إلا أنه يشير إلى مجمل أحوال الفرد المؤمن فهو دائم الاستغفار للإله الذي يعبده. أما في نقش (YM 547/2 = CIAS. I. 115-118 = Ga 66) فلا وجود لذكر صريح للعقوبة، لكن التكفير وجب على فعلة استوجبت الحرمان.

العقوبة:

إن استنطاق النقوش التكفيرية السبئية يدلي لنا بالصيغ التي كانت عليها العقوبة التي استوجبتها طبيعة الخطيئة، وقد تراوحت هذه العقوبة بين مادية ومعنوية، ثم كانت على نوعين، وربما اقتضى نوع الخطيئة هذا التنوع، وهما عقوبة دينية وعقوبة دنيوية، ونسوق من النقوش التي تصرح عن العقوبة الأمثلة التالية:

أولا– العقوبة المعنوية، والنفسية:

ففي أحد النقوش نجد انتياب الشخص الذي اقترف الخطيئة الشعور بالذل والغم، فها هو يذل ويغتم: «ف هـ ض ر ع و ع ن و» (CIH 523/8-9; 532/9;

568/6-7; RES 3956/8; 3957/8-9؛ الصلوي ١٩٩٣/٨) وبسبب ذلك يدفع كفارة ذنبه ويطلب أن يتوب الإله عليه: «و ي ح ل ن و ل ي ث و ب ن» ;CIH 523/9) 532/10)؛ فهو لا يطلب ذلك إلا بعد أن كفر عن ذنبه، وهذه عقوبة يمكن وسمها بأنها عقوبة معنوية، نفسية، دنيوية.

ومن أمثلة هذا النوع من العقوبة نقش (CIH 523/8-9)، وقد أضيف إلى الشعور بالغم والذل دفع كفارة مادية، وهذا حال النقوش (;CIH 532/9-10; 568/5-7 RES 3956/8-9; 3957/7-8 الصلوي /٨؛ Ja 525/2-3).

والشعور بالخجل من العقوبات التي تحدثت عنها نقوش سبأ، ويذكر أحد النقوش امرأة اختبأت من سيدها: «ف خ ب أ ت م ن أ م ر أ هـ ذ أ ت ي و ذ س م و ي» (RES 3956/5-6)، وربما أن خطيئتها سببت لها خجلاً حتى أنها توارت واختبأت.

وتنحو العقوبة منحى التنبيه والتحذير كما يشير نقش (CIH 547/11) إلى ذلك.

ثانياً- العقوبة المادية:

واقتضت مثل هذه العقوبة تقديم غرامة مادية، وهي عبارة عن مسند جزاء لسلب ماء البئر، كما يفصح نقش (CIH 504/1) عن ذلك، وهذه العقوبة دنيوية أيضاً ومثلها نقش (CIH 546/6-7).

وربما كانت العقوبة مادية لكنها ذات صبغة دينية، فها هو نقش -CIH 458-2) 7) يشير إلى عقوبة مادية تمثلت بالغرامة النقدية التي تدفع للكهنة ولجماعة عثتر، ويصرح النقش عن مقدار هذه الغرامة، والتي تتفق مع حجم الخطيئة، ومقدارها عشرة وحدات نقدية «حيالي» في حال مسيل الدم، وخمس وحدات نقدية «حيالي» إن لم يُسَنْ دم. ويستطرد النقش في سن العقوبة فعلى من يطرد رجلاً من المعبد، أن يدفع غرامة مالية مقدارها خمس وحدات نقدية «سلع» (CIH 548/7-9)، وفي موضع آخر كانت الغرامة عشرين وحدة نقدية «بلطم» (N 74L13)، وعلى من يعكر صفو المعبد للمرة

الأولى دفع غرامة غير مبينة، وإن تكررت الفعلة فعلى مقترفها تقديم ثور في معبد / ا ر ث ت م/، وعليه أن ينفق طعاماً ويدفع ثمن رائب وعسل ولباب نخل، وهي نفقة تستوجب على جماعة الرجال، وتقتضي العقوبة أداء شعيرة دينية وهي الحج عشرة أعوام من سنة ذي سلأم (CIH 548/9-15).

والذبيحة تشكل عقوبة تفرض على من يفعل ما يستوجب الحرمان وفعلْ ما هو محظور، ويلمح النقش إلى عملية ردع هذا الشخص بحثه على فعل ما هو حسن (YM 547 = CIAS. I. 15-118 = Ga 66)، ويذكر نقش أن القرابين كالشياه وغيرها تساق للآلهة تكفيراً (Ja 720/16).

ويجازي الإله بسبب الخطيئة إفساد الأضراس والثنايا: «و ن ق م ع ب د هـ ث و ب ا ل ب م ر ب ا (ض) ر س هـ و ث ن ي هـ و (Ja 702/10-13 أنظر Muller 1980: 69-70، صدقة ١٩٩٤: ٩٢).

ويسن الإله Imqh عقاباً وهو مرض معد مدته ستة أشهر أعجز شفاؤه كعقوبة مادية دنيوية: «و ت س ن ن ك ر س ث ت ا و ر خ م ر ض ف ش أ م» (Ja 720/11-13 أنظر صدقه ١٩٩٤: ٩٢).

ولعل نقش (CIH 539/6) يشير إلى عقوبة نشر الوباء والطاعون والمحل والجفاف، وهي عقوبات – كما يتضح– عامة لا تخص شخصاً بعينه.

وتستوجب عقوبة الضرب في المعبد في بعض المواقف (ربما هذا ما يقابل التعزير عند المسلمين) (N 74/12-13).

ويحذر أحد نقوش سبأ من أن يعم الفيضان والسيل عقوبة لهم، حتى أنهم لا يستطيعون منه نجاة (CIH 547/8-9).

الثواب:

لقد أوردت النقوش التكفيرية السبئية الثواب مثلما ذكرت العقاب، وقد جاء الثواب مطلقاً في بعض النقوش ومثال ذلك: «ب ث و[ب» (RES 3706 [Min])، «و ل ي ث و ب ن» (CIH 523/9) ويصرح النقش بالمثوبة جزاء الاعتراف.

في النص التالي: «و ح ل ف ن ل ي ث و ب ن هـ م و ث و ب ي ن ع م ع ر ت ت ن خ ي ت ن» (CIH 547/12-14)، وورد في بعض النقوش بعض التعابير التي تشير إلى الجزاء والثواب وذلك في التعبير النصي التالي: «ولا له حلفان: ليجزين قبيلتهم ومدينتهم ثواباً ينعس إياهم ولأرضهم الزراعية ولأرضهم المحجوزة ومراعيهم» (CIH 546/9-11).

وتجزي الآلهة النعم للمكفرين عن خطاياهم: «ف ل ي ت و ب ن هـ و ن ع م ت» «فليجزيها الإله نعمة» (CIH 568/8)، وفي نقش (RES 3956/7).

ومن خلال نصوص المثوبة نجد أن فعل المثوبة جاء بعد معنوي ديني على عكس العفوية التي تراوحت بين المادية والمعنوية والدنيوية والدينية.

خاتمة:

في القسم الأول من البحث، الذي ينقسم إلى قسمين رئيسين، تم جمع ودراسة النقوش السبئية التي تتحدث عن الخطيئة والتكفير، وقد كان عددها خمسة وعشرون نقشاً، وهو بهذا الرقم ينفرد بنشر عشرة نقوش تكفيرية، لم تتطرق إليها الدراسات السابقة في هذا الموضوع. ويتحقق بهذه الصورة ما يؤمل من البحث وهو إضافة خمسة عشر نقشاً جديداً على ما درسه كونتزاك ريكمانز سنة ١٩٤٥، وعشرة نقوش على ما جمعه ودرسه جاك ريكمانز سنة ١٩٧٢.

يتضح من خلال تحليل النقوش واستنطاقها عدد من العناصر التي تضمنتها النقوش التكفيرية، وهذه العناصر هي:

- مرتكب الخطيئة؛ جنسه، ورتبته، وعدده.

- الفعل أو الأفعال التي تستخدم في التكفير أو عند الاعتراف.
- الآلهة المعلن لها التكفير أو الاعتراف.
- سبب الخطيئة ونوعها.
- ثم الثواب والعقاب.

لقد ذكرت النقوش بمجملها مرتكب الخطيئة، ونبا عن ذلك نقشان همـا: (CIH 547, 548)، ولم تشكل مسألة الجنس من حيث الذكورة والأنوثة مشكلة، فقد صرحـت النقوش بذلك، في حين ذكرت الرتبة في عدد محدود من النقوش، فقد وردت لفظة أمة في ثلاثة نقوش (CIH 504, 533, RES 3956)، ويشير ريكمـانز إلـى أن النقـوش التكفيرية التي لا تذكر لفظة أمة، ويكون أصحابها إناث ينتمين إلى قبائل مذكورة فـي النقوش هن من الحرائر غالبا (Ryckmans, G. 1945:5)، ووردت رتبة عبـد ملـك مرة واحدة (Ja 570)، ورتبة ملك في أحد النقوش المعينية (RES 2980)، أما الرتبـة الأخيرة التي أوردتها النقوش فهي رتبة كبير، وذلك في النقش المعينـي RES 3706. وبذلك يصبح مجموع الرتب الواردة في مجموعة نقوش البحث سبعة.

أما من حيث العدد فقد كان مرتكب الخطيئة مفردا غالبا، وظهر ذلك في ثمانية عشر نقشا، ستة منها مؤنثة (RES 3956, 3957, Ja 525, CIH 532, 533, 568)، كما ورد العدد اثنان (Ja 720)، أما صيغة الجمع فوردت في ثلاثة نقوش (CIH 539, 546, 547)، وقد ورد العدد كخطاب عام يوحي بالتوجه للجماعة فـي نقشـين (YM 547, CIH 548).

لقد احتوت مجموعة النقوش عددا من الأفعال التي يمكن وسمها بأنـها أفعـال اعتراف (أنظر أعلاه)، وقد خلت بعض النقوش من ذكر أي فعل من أفعال الاعتراف، وهي: N 74, RES 3706 (M), YM 574, Ja 525, 570, 720, CIH 504, 548, 612. بينما كان أكثر الأفعال ذكر الفعل /ت ن خ ي/ ا إذ ورد تسع مرات، والفعـل /ت ن ذ ن/ فورد تسع مرات أيضا، بينما جاء ذكر الفعليـن /ي ك ف ر ن/ و /ا ر ش/ مرة واحدة لكل منها.

ومن خلال استقراء النقوش التكفيرية نجد أن الفعليـن /ت ن خ ي/ و /ت ن ذ ر ن/، اللذين وردا مجتمعين في ثمانية نقوش، يختصان بالنقوش ذات الخطيئة الجنسية دون سواها.

وتذكر مجموعة نقوش الاعتراف السابقة اسم الإلـه المعلـن لـه التكفـير أو الاعتراف سوى نقشين هما: CIH 539, 568، وقد احتوى هذان الفعلان خطابا عامـا دون تحديد إله بعينه. واتضح من خلال قراءة النقوش تنوع الخطايا وأسبابها لتشـمل مناح متعددة ومتباينة من الحياة، وإن طغت عليها الاعترافات ذات المدلول الجنسـي، وقد كان الثواب معنويا دوما، ولكن العقاب كان ماديا ومعنويا، أو دنيويا ودينيا أيضا.

لم تكن النقوش السبئية ذات المضمون التكفيري والاعـترافي كلـها لتشـمل العناصر السابقة في النقش الواحد، إلا في عدد قليل منها، وهذه النقوش هـي: CIH 523, 532, 546, 568, RES 3956, 3957 والصلوي.

المراجع

- **القرآن الكريم**، الأرياني، مطهر، ١٩٩٠ «نقوش مسندية وتعليقات»، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني.
- بيستون، الفرد، ١٩٩٥ «**قواعد النقوش العربية الجنوبية**»، إربد – الأردن، ترجمة رفعت هزيم،
- بيستون، الفرد وموللر، والتر والغول، محمود وريكمانز، جاك، ١٩٨٢ «**شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**»، ج ٢، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة.
- ابن دريد، محمد بن علي (ت ٣٢١)، ١٩٥٨ «**الاشتقاق**»، بيروت دار الجليل، (١٩٩١).
- الزبيدي، محمد المرتضى (ت ١٢٠٥ هـ) – ب ت «**تاج العروس**»، دار الفكر، ١٠ أجزاء.
- صدقة، إبراهيم، ١٩٩٤ «**آلهة سبأ كما ترد في نقوش محرم بلقيس**»، مأرب، جامعة اليرموك – إربد (رسالة ماجستير غير منشورة).
- الصلوي، إبراهيم، ١٩٩٣، نقش جديد من نقوش الاعتراف، «التاريخ والآثار، ١» ص ٤-٦.
- عبد الله، يوسف، ١٩٩٠ «**أوراق في تاريخ اليمن**»، بيروت، دار الفكر المعاصر.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد (ت ٣٩٥ هـ)، ١٩٨٢، «**مجمل اللغة**»، ٤ أجزاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، ط ٢، (١٩٨٦).
- قدرة حسين، ١٩٩٣، «**دراسة معجمية لألفاظ النقوش اللحيانية في إطار اللغات السامية الجنوبية**»، جامعة اليرموك – إربد، (رسالة ماجستير غير منشورة).
- ابن الكلبي، هشام بن محمد السائب (٢٠٤ هـ)، ١٩٦٥، «**الأصنام**»، القاهرة المكتبة العربية، تحقيق أحمد زكي.

- الهمداني، محمد بن أحمد (ت ٣٥٠)، ١٩٨٦، «**الإكليل**»، بيروت، شـــركة دار التنوير للطباعة والنشر، تحقيق محمد بن علي الأكوع.
- نامي، خليل يحيى، ١٩٤٣، «**نشر نقوش ســامية قديمـــة مـــن بـــلاد العـــرب وشرحه**»، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.
- Arbach- 1993: **Lexique madhabien, comparé aux lexiques sabéen, qatabanite et hadramawtique**, Aix – en- Provence, (unpublished thises).
- Beeston, A.L.F. – 1939 a: **Sabaean Inscriptions**, Oxford. (SI).
- 1939b: Two South – **Arabian Inscriptions, Some Suggestions**, JRAS, Pp. 59-78.
- 1948: **The Ritual Hunt**, Museon, 61. Pp. 183-196.
- 1952a: **Four Sabaean Texts, in Istanbul** Archeological Museum, Museon, 65, Pp. 271-283.
- 1952b: **Notes on Old South Arabian Lexicography** IV, Museon, 66, pp. 109-122.
- 1972: **Review of Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis** (Marib) BSOAS, 35, Part 2, Pp. 349-353.
- 1997a: **Penitentail Offering**, YM 441, CIAS. I. 87-89.
- 1977b: **Decree from the God** LMQH, YM 547, CIAS. I. 15-18.
- 1978: **Notes on South Arabian Lexicography**, XI, Museon, 91, 1-2, Pp. 195-205.
- 1980: **Studies in Sabaic Lexicography II**, Raydan, 3, Pp. 17-26.
- 1988: **Notulae Sayhadicae**, PSAS, 18, Pp. 1-2.
- Beilla, J. , 1982: **Dictionary of South Arabic, Sabaean Dialect**, Chico, Scholars Press.
- Brown, F., Drivers, S., Briggs, G., 1975: **A Hebrew and English lexicon of Old Testament**, Oxford, Clarendon Press, (BBD), (1979).
- Cohen, D., 1970: **Dictionnaire des Racines Sémtiques**, Nethrland, panes Mouton, la Hay, vd2.
- **Corpus Inscriptionum Semiticarum**, Pars quarta, Inscriptions Himyariticas et Sabaeas Contines. (CIH).
- **Corpus des inscriptions et antiquités** Sud-Arabes, Tome, 1, Section, 1, 1977. (CIAS. I).

- Donner, H.; Rollig, W., 1962-1976: **Kanaanaische und Aramaich Inschriften**, 3vol. S, Wiesbaden Otto Harrassowitz, (KAI).
- Fakhry, A., 1952: **An Archaeological Joumey to Yemen**, Part 1, Cairo, Government Press.
- Fowler, J., 1988: **Theophoric Personal Names in Ancient Hebrew**, England, Sheffeld Press.
- Garbini, J., 1973: **Nuove iscrizioni sabee**, AION, 33, Pp. 31-46.
- Ghul, M., 1993: **Early Southern Arabian Languages and Classical Arabic Sources**, Irbid- Jordan, Yarmouk University, edited by Omar Al-Ghul.
- Gottstein, M., 1970: **A Syriac – English Glossary**, Otto, Harrassowitz, Wiesbaden, germnay.
- Jacson, K., 1983: **The Ammonite Language of the Iron Age**, Scholar Press Chico, California.
- Jamme, A., 1955: **Inscriptions sud- arabes de la collection Ettro Rossi**, RSO, 30, Pp. 103-130.
- 1962: **Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis** (Marib), Baltimor, the John Hobkins Press.
- 1972: **Miscellanees d'ancient arabe III**, Washigton, D.C.
- 1976: Carnegie Museum, 1974 – 1975 **Yemen Expedition**, Pennsylvania Carnegie Museum, tht John Habkins Press.
- Jean, Ch., Hoftizer, J., 1965: **Dictionnaire des Inscriptions Sémitiques de L'ouest**, Leiden, J. Brill, (DISO).
- Johnstone, T., 1977: **Harsusi Lexicon and English** – Harsusi, Word-List, London, Oxford University Press.
- King, G., 1989: **Some Inscriptions form Wadi Matakh**, Arabian Studies in Honour of Mahmoud Ghul, Yarmouk University. Publications. Institute of Archaeology and Anthropology Series, vol. 2, Pp. 37-55.
- Knauf, A., 1991/1992: **More Notes on Gabal Qurma, Minaeans and Safaitias**, ZDPV, 107; Pp. 92-101.
- Koehler, L., 1990: **Hebraisches und Aramaisches**, 4 vols. Leiden, New, E. J. Brill. (HAL).
- Leslau, W., 1987: **Comparative Dictionary of Ge'ez**, Wiesbaden.
- Muller, W., 1980: **Altsudarabische Miszellen (1)**, Raydan, 3, Pp. 63-73.

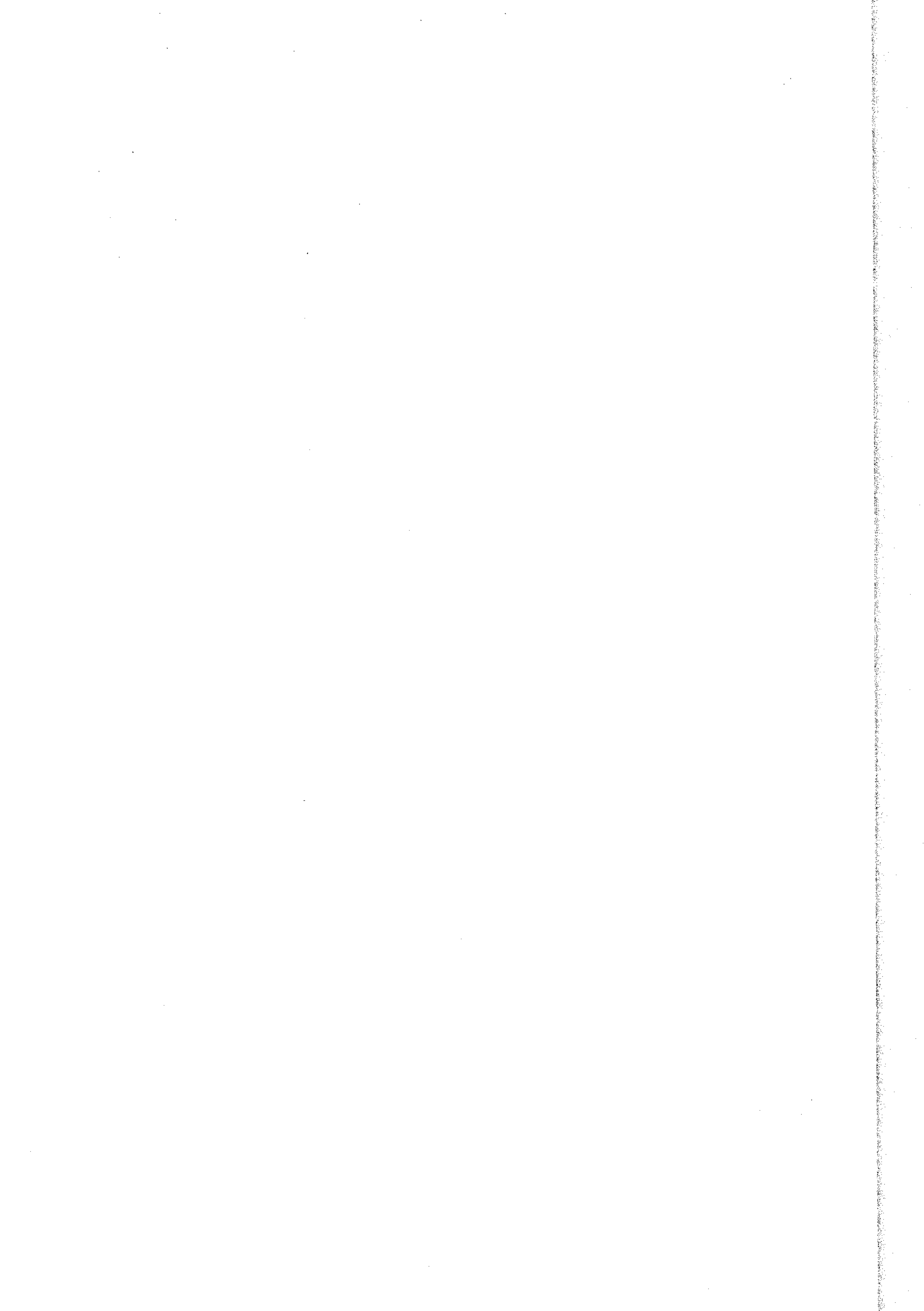
- Oppenheim, A. Leo., 1965: **The Assyrian Dictionary of the Oriental Institute of University of Chicago**, the oriental Institute and Gluckstadt, Augustin- Verlagbuchhandlung, (CAD).
- Abu – Qiass, M., 1993: **Vocabulary Interchange Between Nabataean and Pre- Islamic Inscriptions**, Irbid, Yarmouk University, (unpublised thesis).
- **Répertoire d'Epigraphie Sémitque publié par la Commission du corpus Inscriptionum Semiticarum**, (RES).
- Ricks, S., 1989: **Lexicon of Inscriptional Qatabanian, Roma**, Editrce Pontifico Istituto Biblico.
- Robin, Ch., 1992: **Inventaire des inscriptions sudarabiques**, Diffusion de Boccard, Paris, tome 1.
- Ryckamans, G., 1945: **La confession publique des péchés en Arabie méridionale préislamique**, Museon, 58, Pp. 1-4.
- 1952: **An Archaeological Journey to Yemen**, "A. Fakhry", Part II, Epigraphical Texts, Cairo, Government Press.
- Ryckmans, J., 1956: **Himyaritical**, Museon, 69, Pp. 91-98.
- 1966: **Himyaritio**, 2, Museon, 78, Pp. 475-500.
- 1972: **Les confessions publiques sabéennes: le code sud-arabe de pureté rituelle**, dans Annali dell Istituto Orientale di Napoli, 32, N.s. XXII, Pp. 1-5.
- 1976: **La chasse rituelle, dans I'Arabie du sud ancienne**. Dans al – Bahit [al – Bahit], Fetschrift Joseph Henninger zum 70. Geburtag am 12. Mal 1976 (Studia Instituti Anthropos, 28). St. Augustin bei Bonn (Verlag des Anthropos- Instituts), Pp. 259-308.
- Serjeant, R., 1976: **South Arabian Hunt**, London, Luzacand Company Ltd. Fs.
- Smith, P., 1903: **A Compendious Syriac dictionary**, Oxford, Clarendon Press, (1985).
- Stark, J., 1971: **Personal Names in Palmyrene Inscriptions**, Britain, Oxford, Clarendon Press.
- Winnett, F., Harding, G., 1978: **Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns**, Canada, University of Toronto. Press.

الخابية المطبوعة والزخرفة الفخارية الموحدية والناصرية في غرناطة في الفترة ما بين القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر الميلاديين

الدكتور خالد غنيم

قسم الآثار - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق



الخابية المطبوعة والزخرفة الفخارية الموحدية والناصرية في غرناطة في الفترة ما بين القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر الميلاديين

مقدمة:

لقد شهد تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية في العام ٩٢-١٣٨هـ/ ٧١٠-٧٥٦م، وحتى خروج العرب المسلمين من غرناطة في العام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م، شهد تتابع مراحل سياسية مختلفة، تركت لنا كل مرحلة من هذه المراحل آثارها الواضحة في ميدان الثقافة والفن، هذه الآثار التي لن تظهر إلاّ حينما يعترف سكانها وحكامها الأندلسيون بشخصيتهم الأندلسية الإسلامية المستقلة.

وهكذا فقد بدأت مع دخول عبد الرحمن بن معاوية قرطبة في العام ١٣٨هـ / ٧٥٦ م مرحلة جديدة هي مرحلة الإمارة فالخلاقة الأموية، التي تجلت أهم مظاهرها الثقافية والفنية الإسلامية الأولى في بناء المسجد الكبير ما بين١٦٨-١٧٠هـ / ٧٨٤-٧٨٦ م في العاصمة الأندلسية قرطبة. وفي العام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م قام عبد الرحمن الثالث بإعادة تجديد الخلافة، التي اعتبرت واحدة من الفترات الأكثر ازدهاراً في تاريخ الأندلس، خاصة في عهد هذا الخليفة وابنه الحكم الثاني، الذي قام بتوسيع المسجد الكبير من جديد مبرراً غني زخارفه الرائعة.

لم يتمتع الخلفاء اللاحقون بنفس شخصية أسلافهم، حيث أهملوا شؤون الحكم تاركين الطريق مفتوحاً أمام حجاب القصر من بني عامر للوصول إلى السلطة والتحكم بشؤون البلاد، وبرز من هؤلاء العامريين محمد بن أبي عامر المنصور وأبناؤه الذين خلفوه من بعده.

لقد أدى سقوط الخلافة الأموية في العام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م إلى تفتيت وحدة بلاد الأندلس وظهور العديد من الممالك المستقلة (ملوك الطوائف)، المتناحرة فيما بينها بشكل مستمر، وقد أسهمت لا مركزية السلطة في هذه الفترة في تطور الفنون في الأقاليم القديمة التي تحولت الآن إلى عواصم مهمة كطليطلة وإشبيلية وغرناطة وسرقسطة... وغيرها.

لم يدم هذا الأمر طويلاً، ففي أيار من العام ٤٨٧ هـ / ١٠٨٥ م، حدثت المفاجأة وذلك بدخول ألفونسو السادس طليطلة وضمها إليه، وهي المرة الأولى التي يتجرأ فيها ملك نصراني على دخول وضم إقليم إسلامي كامل من بلاد الأندلس إلى مملكته، وأمام هذا التقدم المسيحي الخطير قام الملوك الأندلسيون بطلب يد المساعدة من السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين، الذي أحرز انتصاراً كبيراً على هؤلاء المسيحيين في معركة الزلاقة في رجب من العام ٤٧٩هـ / ٢٣ تشرين الأول ١٠٦٨، وبعد أربع سنوات، أي في العام ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م عاد إلى شبه الجزيرة ليقيل كافة الأمراء الأندلسيين حيث اعتبرهم خونة لقضية الإسلام، وبدأ بعد ذلك عصراً جديداً سيطر فيه على شؤون البلاد في الأندلس، حكم المرابطين القادمين من إفريقية، وتلا فيما بعد حكم الموحدين الذين امتازت أعمالهم المعمارية بالضخامة.

ومع ذلك فقد تابعت حركة الاسترداد المسيحية تقدمها داخل الأراضي الأندلسية حتى تمكنت أخيرا من تحجيم الوجود العربي الإسلامي على المملكة الناصرية في غرناطة ٦٣٠ –٨٩٨ هـ / ١٢٣٢– ١٤٩٢ م، تلك الفترة التي اشتهرت بمعلمها الرائع المعروف بقصر الحمراء الذي جمع كافة التقاليد الأندلسية السابقة وأخرجها بثوب وقالب جديدين.

لقد فرض الوجود الموحدي في الأراضي الأندلسية، ازدهار تقنية زخرفية فخارية جديدة، هي تقنية الزخرفة بواسطة الطبع، وعلى الرغم من وجود دلائل سابقة لهذه التقنية في أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية، فإنها لم تحرز نجاحها الملحوظ إلا مع ظهور دولة الموحدين في القرن الثاني عشر الميلادي مرافقة لآنية ذات طبيعة خاصة

هي الخابية التي اتصفت بسمات جعلتها تختلف عن أية قطعة أخرى ضمن مجموعة الأواني الفخارية المعدة للاستخدام المنزلي اليومي، والتي ستتحول لاحقاً إلى قطعة فخارية ذات قيمة فنية عالية، وستكتسب مع كل فترة تطويراً كبيراً وملحوظاً ليس في شكلها فحسب، بل في زخرفتها أيضاً محتلة بذلك مكاناً رفيعاً سيبلغ ذروته مع ظهور مملكة بني نصر في غرناطة، وليختفي وجودها نهائياً بعد ذلك من شبه الجزيرة الإيبيرية مع نهاية دولة بني نصر وصناعها العرب المسلمين.

لهذا، وكما سنرى لاحقاً، فإن الخابية المطبوعة هي عبارة عن ثمرة من ثمرات الفن العربي الإسلامي، حيث كانت تشكل حاجة ضرورية لذلك المجتمع الذي سكن بلاد الأندلس، ومن ثم سنلاحظ من خلال هذه الآنية الآثار الواضحة لتلك التغييرات والتعديلات التي طرأت على حضارة عريقة شملت بلاد الأندلس منذ القرن الثامن الميلادي، هذه الحضارة التي بقيت راسخة بجذورها العميقة في هذه الأرض، تثبت عراقتها وأصالتها من خلال أوابدها ومعالمها المعمارية والفنية العربية الإسلامية التي خلفتها جميعاً، سواءً الكبيرة منها أم الصغيرة، المنتشرة في طول البلاد الأندلسية وعرضها بالرغم من تقدم حركة الاسترداد المسيحية في أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية.

ولكي نجعل دراستنا أسهل للإدراك والفهم، فقد عمدنا إلى وضع تعريف للفخار المطبوع، والخابية المطبوعة بمظاهرها المختلفة، ووضحنا كيف أن هذه الخابية ما هي إلاّ نتاجاً للتطور الحضاري للمجتمع الأندلسي، وأشرنا إلى أهميتها كقطعة فخارية ذات قيمة كبيرة، وإلى طبيعتها العربية الإسلامية الخالصة، وقمنا بتحليل أسباب زوالها من شبه الجزيرة الإيبيرية، ليس كخابية مطبوعة فحسب، بل فيما يخص التقنية الزخرفية المطبقة فوق سطوحها، وأخيراً تحدثنا عن الموضوعات الزخرفية المختلفة من حيث تحليلها والتطور الذي طرأ عليها عبر العصور.

تعريف الفخار المطبوع والخابية المطبوعة:

الفخار المطبوع هو الذي يحوي زخارف مطبوعة، تم الحصول عليها باستخدام طابع أو قالب لعمل زخارف معينة على العجينة الفخارية، وتندرج هذه الزخارف ضمن مجموعة الزخارف البارزة أو النافرة.

واستناداً إلى ذلك، يمكننا أن نعرف هذا الفخار بأنه ذلك الذي ينشأ عن طريق الضغط بواسطة طابع أو خاتم يحتوي على زخرفة ذات مضمون معين، يكون شكلها بارزاً أو مجوفاً، حيث يدق هذا الطابع على العجينة وهي لا تزال في حالة لزجة قبل حرقها، فنحصل بذلك على معكس لهذا الطابع على القطعة الفخارية ثم يصار إلى حرقها وشيها بالطرق المعروفة، فيثبت عندنا شكل الزخرفة المطبوعة (معكس الطابع المستخدم)[1].

أما مادة صنع هذا الطابع فهي الطين (مادة قابلة للتشكل والصياغة كالمعجون)، الذي يشوى ليكتسب مقاومة وصلابة، وقد أشار بعض الأثريين إلى إمكانية استخدام مواد أخرى لصناعة هذا الطابع كالجص[2] أو الخشب[3]، ومع ذلك فقد أكدت أعمال التنقيب الأثري المنفذة في بلدان المغرب أو في الأندلس، على الطين

---

[1] A. Bazzana: "**Céramiques médiévales**": Les méthodes de la description analitiques appliquées aux productions de l Espagne Orientale. II. Les poteries decorées. Chronologie des productions médiévales MCV, XVI,p.62

[2] S. Aguado Villalaba: La cerámica hispanomusulmana de Toledo. Madrid, p. 29

[3] M. Gonzalez Marti: **Cerámice del levante español**. Siglos medievales. TI.La loza. Barcelona-Madrid , p. 40. C. Montes Machuca: **Algunas cerámicas estampilladas de la Jerez de Frontera** (Cádiz). Estudios de Historia y de Arqueología VII- VIII. Cádiz, p. 179.

نتفق مع هذه الباحثة برفضها الخشب كمادة أولية لإنجاز القالب بسبب مسامية الخشب، "التي تمنع من طباعة واضحة، عندما يمتص رطوبة القطعة الفخارية وهي في الحالة العجينية".

كمادة رئيسية لصناعة الطوابع أو الأختام[٤]، هذا وقد استبعد بعض الآثاريين الآخرين الخشب كمادة للصنع، بسبب مساميته حيث يمتص الرطوبة من العجينة الفخارية مما يؤدي إلى عدم انطباع واضح وجلي.

لقد أغنى الوجود العربي الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية مجموعة الأواني الفخارية المعدة للاستخدام المنزلي اليومي، محدثاً بذلك كاتالوجاً واسعاً من الأواني والأدوات الفخارية الصالحة لاستخدامات متعددة ومختلفة[٥]. وهكذا ففي المكان الأول والأهم، تأتي مجموعة الأواني ذات العلاقة بالأغذية المستخدمة، فهي إما أوان لطهي الأغذية وتقديمها للمائدة، وإما أوان لحفظ هذه الأغذية في الحجر الخاصة المعدة لتخزين المؤن، كالطناجر والقصعات والأطباق والجرار والقناني والكؤوس والخوابي والمرطبانات... وغيرها، وتأتي في المكان الثاني مجموعة الأواني الأخرى المكرسة لاستخدامات متباينة كالأواني المخصصة للاستحمام أو تلك المعدة لأعمال الغسيل... ومنها الجفن والقناديل والسرج والمجامر والأفران الصغيرة وقواعد الخوابي وأسوار الآبار ومشارب الطيور وألعاب الأطفال... وغيرها، وهي مجموعة كبيرة من الأواني الفخارية التي تعتبر انعكاساً للمجتمع الأندلسي في تلك الفترة.

وبالرغم من كثرتها وتعددها فإنها تخلو من الطباعة الزخرفية، هذه الطباعة التي لا يمكن فهمها ما لم نأخذ بعين الاعتبار مميزاتها التقنية، فكما أشرنا سابقاً، تعتمد

---

[4] G. Roselló-Bordoy: **Ensayo de sistematización de la cerámica árabe de Malloraca.**, p. 88. Fig. 25, Decoración zoomórfica en las Islas **Orientales de Al-Andalus**. Palma de Malloraca, p. 25, fig. 12. J. Navarro Palazón: **La cerámica islámica en Murcia**. Catálogo, p 334, fig. 705. L.M. Llubiá: **Cerámica medieval española**. Barcelona, p. 77, fig. 100. A. Delpy: "**Note sur quelques vestiges de céramique recueillis à Salé**" Hespéris, 36. Pl. I y II.

[5] A. Bazzana: "**Céramiques médiévales**": Les méthodes de la descripition analytique apliquées aux productions del l' Espagne Orientale" MCV, XV, p. 135, 1979. P. Cressier M.M. Riera Fran, G. Roselló-Bordoy: **La cerámica tardo almohade y los orígenes de la cerámica nasrí**. Palma de Mallorca, 1992.

هذه التقنية على طبع الفخار بواسطة طابع يحتوي على موضوع نافر فوق جدار الآنية قبل عملية الشي، حيث لا تزال العجينة في حالة رطبة، لذا تقتصر عملية الطباعة هذه على الأواني الفخارية الكبيرة كالخوابي التي تتمتع بجدران قوية ومقاومة، في حين لا يمكن إنجازها على الأواني الصغيرة الهشة سريعة العطب، كالكؤوس والصحون... وغيرها، لهذا كانت هذه الأواني على كثرتها، بسبب صغر حجمها وهشاشتها وسرعة عطبها، خالية من الطباعة الزخرفية، كما أن هناك أواني أخرى تكون خالية من الطباعة الزخرفية ليس بسبب هشاشتها بل لطبيعة استخدامها كما هو الحال مع الطناجر، وغيرها حيث أنه ليس معقولاً استخدام تقنية معقدة لزخرفة أوانٍ ذات استعمال عام ومعرضة باستمرار للنار أو للكسر في أكثر الأحيان.

وهكذا نرى أنه عندما نتحدث عن الفخار المطبوع،فإن الكاتالوج المورفولوجي – الشكلي لهذا النوع يمكن إيجازه على بعض الأشكال القليلة كالخوابي وقواعدها وأغطيتها والأطباق والجرار وأسوار الآبار،أما الخابية فهي الآنية الأهم ضمن هذه المجموعة.

إن الخابية هي عبارة عن إناء فخاري كبير، أطلق عليه اسم الفابية التي شاع استعمالها في منطقة الشرق الإسباني، والمشتقة بدورها من الاسم العربي الحُب[٦]. إن التعريف المألوف لهذه الآنية كان قد كرر مرات عديدة، فهي عبارة عن وعاء كبير من الفخار المشوي العائدة أصوله إلى الآنية الفخارية المسماة DOLIUM. أما وظيفتها الرئيسية حسب الآثاري أ. باثانا A. Bazzana فهي الحفظ[٧]. أما الباحثتان الآثاريتان م. مونيوث M. Muñoz و ي. فلوريس[٨] I. Flores فتؤكد أن "وظيفته تكون

---

[6] A. Bazzana: "**Céramiques médiévales**: Les méthodes de la description analytique apliquées aux productions de L' Espagne Orientale", MCV,XV, pp. 135-185.

[7] Op. Cit. P. 135.

[8] M. Muñoz Martín e I. Flores Escobose: "**Estudio de la cerámica hispanomusulmana**" AAA.II. Sevilla, p. 404.

في حفظ السوائل أو خزن الحبوب أو استخدامه كخزان للماء أو للزيت واستخدامه كإناء للنقل، كما هو واقع الحال بالنسبة لبعض الأواني الفخارية الأخرى". أما من الناحية الشكلية، فتعتبرانه "كوعاء من الفخار المشوي، المزجج أحياناً، أما قطره الكبير فيبلغ أقصاه في الجزء الأوسط ويمكن تثبيته في الأرض أو وضعه فوق قاعدة أو إدخاله ضمن إطار خشبي على الأغلب"[٩].

وعلى الرغم من هذا، فإن الخابية المطبوعة التي نحن بصدد دراستها، تمتاز عن الخابية المألوفة بزخارفها الوفيرة، وهذا ما يستبعد وجودها تلقائياً في المخازن أو حجر المؤن بعيدة عن الأنظار، إذ أن العناية المشددة بزخارفها بهذه الصورة الرائعة ما هو إلاّ دليل على صلاحيتها لأن توضع في إحدى حجر المنزل كقطعة تزينية ومن ثم استبعاد وظيفتها كوعاء لحفظ الحبوب، حيث أن هذه الوظيفة ستتولاها خواب أخرى أكثر بساطة وأقل زخرفة. أما وظيفتها كخزان للزيت، فإنه من المستبعد قبولها أيضاً، لعدم تمتعها بطبقة مزججة في سطحها الداخلي، كما هو الحال في بعض الأواني المعدة لهذا الغرض من مثل "المرطبانات". أما وظيفة النقل فإننا نستبعدها أيضاً، حيث أنه ليس من المنطقي استخدام أوانٍ سريعة العطب ومعرضة للكسر كهذه، بغية تسخيرها للنقل.

وهكذا نرى أن الخوابي التي نقوم بدراستها تتميز بوظيفتين: وظيفة حفظ الماء والمحدد وجودها في أفنية المساكن الأندلسية، ووظيفة جمالية تزينيه تعود للزخارف الكثيفة التي تمتعت بها هذه الخابية ومن ثم، ومع التطور التقني الذي رافقتها، استطاعت التسرب إلى صالونات وغرف الاستقبال في منازل الأثرياء وذلك كقطعة فنية وزخرفية ذات قيمة، سيكون لها شأن كبير ليس على المستوى الأثري والفني فحسب بل التاريخي أيضاً، فهي بمثابة المرآة التي تنعكس في زخارف جدرانها الآثار

9 Op. Cit. P. 404.

الواضحة للفترات التاريخية المختلفة التي مرت بها الأندلس، فنرى أن المفاهيم الفنية والثقافية والدينية قد خضعت لتغيرات استلزمها مرور الزمن وتعاقب الحكام.

ومن وجهة النظر الأثرية، فإننا لا نستطيع أن نؤكد بيقين أين وجدت الأصول الأولى للطباعة الزخرفية[١٠]، ولا يمكن تحديد المكان الذي ظهرت فيه الخوابي المطبوعة للمرة الأولى، ومع ذلك، ففيما يتعلق بالمغرب الإسلامي فقد أكدت التقنيات الأثرية على أن نقطة البدء لإنتاج مثل هذا النوع من الفخار هي منطقة قلعة بني حماد، في القرن الحادي عشر الميلادي، في الجزائر الحالية[١١]. واعتباراً من هذا المكان، انتشرت تقنية الطباعة الزخرفية وصناعة الخوابي المطبوعة في كافة أنحاء المغرب الإسلامي، تاركة لنا أدلة مثيرة على ذلك، تظهر واضحة في شبه الجزيرة الإيبيرية، من الجنوب البرتغالي حتى منطقة مرسية في الشمال من بلاد الأندلس، إضافة إلى ظهوره في مناطق متعددة من المغرب الإسلامي كفاس، ومراكش، وتازة وسلا والرباط... وغيرها (انظر الخريطة المرافقة)[١٢].

[١٠] من الصعب تحديد أصل الطباعة الفخارية ومعرفة فيما إذا ولدت في مكان محدد ومن هناك انتشرت إلى أماكن أخرى أو ظهرت في مناطق مختلفة في زمن واحد.لدينا نماذج من سورية وبلاد الرافدين.انظر علي أبو عساف: فنون الممالك القديمة في سورية، دمشق، 1993، ص٢٢،٢٦،٥٠ وأيضاً في الفترة الرومانية،انظر:

J. Zozaya: "Aperçu général sur la céramique" CMMO, p.267

[11] L. Golvin: "Les céramiques émaillées de période hammadide Qala'a a des Ban Hammad (Algérie)" CMMO, pp. 203-219l; Recherches archéologiques à la Qal'a a des Beni Hammadand Paris.

[١٢] خريطة مأخوذة عن:

Khaled Ghunim: La cerámica estampillada en Granada. 1995, p. 9 (Tesis doctoral sin publicar).

الخابية المطبوعة: نتاج ثقافي وتاريخي:

يمكن القول أن الطباعة في منطقة الأندلس بدأت تصبح تقنية مهمة بفضل الدولة الموحدية. ومع ذلك، فقد انتشرت في هذه المنطقة منذ نهايات القرن الحادي عشر الميلادي، متزامنة بذلك مع سيطرة دولة المرابطين، وهكذا حتى القرن الخامس عشر الميلادي تحت حكم دولة بني نصر في غرناطة.

وبهذا الشكل، فإن الخابية المطبوعة كانت قد خضعت لتطور شكلي وزخرفي ترافق مع الفترات التي تعاقبت على المنطقة، ولهذا يمكن القول أن هذه الآنية هي نتاج ثقافي خضع لتعديلات متعددة طبقاً للميول الفنية والدينية المتغيرة واللاحقة.

لقد استطاع الفنان العربي المسلم، أن يخلق من الخابية في فترات وجودها الأولى قطعة شبيهة بفناء المسكن من خلال زخارفها، حيث زينت جدرانها بالعقود على شكل حدوة الحصان أو العقود المفصصة المستندة إلى الدعائم الرفيعة الشكل، ونرى أن هذه الزخارف كانت قد أحاطت بكافة جدران هذه الخابية، كما لو أنها كانت في الواقع عبارة عن فناء مسكن حقيقي محاط بكل هذا[١٣]. أما بداخلها فقد وجد الماء الذي بورك بكلمات وعبارات دينية نقشت فوق سطحها إلى جانب كلمات أخرى كانت الغاية منها تكريم صاحبها. إضافة إلى ذلك نرى أن الماء والآنية بجمالها معاً قد حميا من أية أذية محتملة من ضرر أو حسد الآخرين، برموز حرزية كالنجمة السداسية أو يد فاطمة.. وغيرها.

---

[١٣] لقد كان شائعاً في الفن الإسلامي استخدام موضوعات معمارية في زخرفة الفسقيات الرخامية أو أسوار الآبار، وقد كان مألوفاً فيما بعد، إحاطة الماء بالعقود،ربما لتمثيل الصحن الداخلي للبيت الإسلامي، هذا الصحن الذي شكل مركز البيت، حيث ستظهر دائماً فسقية أو بركة أو حوض، انظر:

Khaled Ghunim: Op. Cit. P. 235

ومع تعاقب الفترات وتقدم التقنية، نرى أن الأشكال قد تناسقت وأنجزت بعناية أكبر وأصبحت أكثر نعومة ورشاقة، مراعية بذلك الذوق العام، وبدأت تتعقد الزخارف تدريجياً، ولا سيما فيما يتعلق بالطابع الزخرفي الذي أصبح أصغر حجماً وذا مضمون زخرفي أكثر تعقيداً، حيث أصبحت الموضوعات النباتية اكثر غزارة وذات التواءات كثيرة وخاصة السوق والأغصان والأوراق، وظهرت الزخرفة النباتية المتشابكة الأغصان والشبكات أو ما يعرف "بالسبكة" (الشكل ١٠/٥)، أما الكتابة فقد اختلطت مع غيرها من النباتات، وتبنت تراكيب زخرفية معمارية وأصبحت أكثر تناظراً (الشكل ١٣). وظهرت كتابات عكسية وأصبحنا نلاحظ موضوعات جديدة فوق سطوح الخوابي، كالحيوانات والطيور من غزلان وطواويس بشكل خاص (الشكل ١٦).

فإذا كان الشكل الكروي مستحباً في السابق، فقد ظهر الآن الميل إلى تفضيل الشكل المستطيل والنحيل، لذلك لدينا أجسام بيضوية الشكل ذات عناية أكبر من السابق، التي والحالة هذه من الصعب المحافظة على توازنها، وهو ما يدعو لوجود القاعدة التي لا غنى عنها من أجل المحافظة على هذا التوازن.

لقد تغيرت الأفكار التي سادت حياة الفنان العربي المسلم، وسيطرت على المجتمع العربي الإسلامي الجديد مفاهيم أخرى، ولكن ليس هناك من جديد. فقد تميزت الحضارة الناصرية ببعدها عن الجمود، على الرغم من هجرانها والتنكر لها من قبل الكثيرين واتهامها بالتدهور والانحطاط. لقد عرفت هذه الحضارة كيف تتلقى أرث أجدادها، وأن تتفهم سننه وتستوعب أعرافه وأن تسعى لتحديده دون الوقوع في التقليد الصرف. فقد ندرت وربما انعدمت الموضوعات الجديدة التي أدخلت، فبدلاً من هذا الجديد، وجدت حركة تدعو لإحياء القديم، ولكن بقالب متطور وجديد، تمثلت قمة ازدهاره في بناء قصر الحمراء الشهير، رمز العهد الناصري، هذا الازدهار الذي لم يستطع أن يضاهيه أي فن آخر سوى الفن العربي الإسلامي الأندلسي في غرناطة.

لقد عكست خوابي غرناطة المطبوعة بشكل واضح طريقة الحياة هذه، فظهرت الأواني الفخارية التي أعتني بأشكالها وراحت لتحاكي المثل التقليدية العليا للجمال، وانتقلت أيضاً لتشغل مكاناً بارزاً في صالونات البيوت والقصور.

إن الزخرفة الظاهرة للعيان – السمة المميزة لهذا القطع – ليست إلاّ مرآة انعكست فيها جدران قصر الحمراء بزخارفه الغنية والمتنوعة.

لن نستطيع التأكيد الآن على أن القطعة الأكثر قيمة لمجموعة الأواني المعدة للاستخدام المنزلي اليومي لا زالت الخابية، حيث لا نريد أن نحط من القيمة الجمالية التي تقدمها الجرار التقليدية لقصر الحمراء. لكن من الواجب أن ننبه، أنه لا يمكننا أن نعتبر الخابية المطبوعة كاشتقاق من هذه الجرار بل سابقة عليها. نعتقد أنه عندما دأت الخوابي بالظهور في الصالونات، فإنه بالمقابل كانت حجومها تتقلص إلى جانب العناية بملامحها الشكلية بشكل مستمر. وقد أريد أن يعطى لها لمعان كبير، ومن هنا نلاحظ وجود بعض الأمثلة ذات الغطاء المزجج، لكن هاتين التقنيتين لم تسيرا في انسجام تام دائماً[١٤]. فالتزجيج ينبغي أن يكون ناعماً وشفافاً وأن ينفذ على وجه صحيح، بحيث لا يخفي براعة الزخرفة المطبوعة. من جهة أخرى، من المفيد التذكير بأنه عندما نقوم بتزجيج الخابية، فإننا ندرك أن وظيفتها الرئيسية، إلى جانب الوظيفة الزخرفية، ستكون وظيفة حفظ الماء، وإذا أريد للماء أن يستمر محافظاً على برودته وصفائه، فلا بد من استخدام الفخار المشوي، المادة المثالية لتحقيق مثل هذه الغاية،

---

[١٤] تقنية التزجيج عبارة عن تغطية الفخار بعد تجفيفه، وقبل عملية الشي، بواسطة زجاج يمكن الحصول عليه من خلال ذوبان السيلكا، أي أوكسيد السليكا (SiO_2) الذي كان يضاف إليه الرصاص في العصور الوسطى، من اجل الحصول على إذابة أفضل، وطلاء أكثر مقاومة وجودة، حيث يتشكل لدينا طلاء زجاجي حاملاً للرصاص، هذا الزجاج هو عبارة عن غطاء شفاف لامع يمكن أن يتخذ ألواناً متعددة، طبقاً للأكسيد الذي يمكن أن يضاف، انظر:

Khaled Ghunim. **Op. Cit.** P. 77.

دون إضافة أي نوع من أنواع التزجيج أو الطلاء، الذي يجعل من سطح الآنية كتيماً مانعاً للتبخر.

وكحل لهذه المعضلة، فقد ظهرت الجرار الغرناطية، الشبيه شكلها بشكل الخوابي، ولو أن العناية بملامحها الشكلية تكون أكبر. لقد تقلص حجمها وضاقت رقبتها وأصبح جسمها متطاولاً وناعماً. أما الزخرفة فقد استخدمت الموضوعات المطبوعة المنفذة بواسطة الطلاء أو المينا أو البريق المعدني، وهكذا نرى أن هذه الجرار تعتبر خوابي صغيرة الحجم، مهمتها الرئيسية زخرفية بحتة، وليست لحفظ الماء.

الخابية المطبوعة آنية ذات قيمة:

مع كل هذا، فليس لدينا أدنى شك لأن نعتبر الخابية المطبوعة كآنية نفيسة ذات قيمه فنية، وليس هذا لاستخدامها العملي فحسب، بل لقيمتها الجمالية والزخرفية أيضاً. فهي آنية مرتفعة الثمن وعالية القيمة، ومن هنا فهي تشير لنا إلى الوضعية الاجتماعية والاقتصادية، لأولئك الذين يفترض أن يكون لديهم ليس القدرة على حيازة هذه الخوابي المطبوعة فحسب بل على حيازة المسكن الواسع والمترف أيضاً ذي الفناء الجميل والقاعات الرائعة، حيث توضع هذه الخوابي.

وسيشكل هذا الفناء كما أكد ذلك العديد من الآثاريين[١٥]، المركز الحيوي والمحور الرئيسي الذي تنتظم حوله كافة نشاطات الحياة اليومية والمعيشية في البيت العربي الإسلامي الأندلسي. وعادة ما يكون محاطاً برواق معمد، حيث يسمح بالتمتع بالهواء الطلق، دون أية مضايقة من أشعة الشمس. وبنفس الوقت مغطى بالجنائن الخضراء ومزود بالفسقيات الجميلة، ملتمساً من كل ذلك التقرب الأكبر لتمثيل فردوس مصغر.

---

[15] L. Navarro Palazón: **"Formas arquitectónicas en el moviliario cerámico anddalusí"** CA, 6. Granada, pp. 199-200.

وفي هذا الجو المفعم بالمثالية، لا بد من التأكد على أهمية الماء، الذي يشكل دون أدنى شك الشريان الحيوي للحياة، فهو الخير الذي اكتسب تقديراً عالياً ومتميزاً ليس من جانب العرب المسلمين ذوي الأصول العائدة للجزيرة العربية فحسب، بل من جانب العرب المسلمين سكان الصحارى الإفريقية أيضاً[١٦].

ولهذا، فإنه في فناء المسكن الثري لا بد من وجود البركة، ولو صغيرة أو وجود البئر أو النافورة، وكلها عناصر تشعرنا بجريان الماء وتدفقه في كافة أنحاء المكان. ومع ذلك، ينبغي هنا أن لا تنقص آنية الماء الصالح للشرب، والجاهز للاستهلاك والمبرد بواسطة الفخار. أما هذه الآنية فهي الخابية الفخارية المطبوعة، التي ستتحول إلى واحدة من الأواني الأكثر قيمة ضمن مجموعة الأواني الفخارية المعدة للاستخدام المنزلي اليومي، ليس بسبب حجمها الكبير فحسب بل لزخرفتها الوفيرة أيضاً.

وإن أصحاب هذه الدور وهذه الخوابي، كانوا من العرب المسلمين، ومن ثم فإن الخابية المطبوعة هي نتاج وحاجة ضرورية للمجتمع العربي الإسلامي الأندلسي، مثلما أن التقنية الزخرفية للطباعة هي كذلك تقنية عربية إسلامية خالصة، نشأت وتطورت على أيدي العرب المسلمين سكان الأندلس، لذلك، فمن الطبيعي إذن، أنه عندما يتراجع هؤلاء عن شبه الجزيرة الإيبيرية، فإن الفخار المطبوع بالمقابل سيشهد تراجعاً أيضاً وسيتقلص إنتاجه وستضمحل صناعته تدريجياً حتى يؤدي به إلى الاختفاء النهائي[١٧]. هذا الاختفاء الذي يعود إلى سببين رئيسيين:

---

[16] Ch. Kugel: **"El agua La Alhambra"** CA, 28. Granada, p. 45.

[١٧] بالرغم من نجاح حركة الاسترداد الاسبانية، فستتوالى عملية إنتاج الخوابي الفخارية المطبوعة في أماكن متفرقة من قبل الفنانين العرب المسلمين، ومع هذا فإن النموذج الفخاري المنتج لن يزدهر ولن يطور من قبل العاملين في صناعة الفخار في ظل السيطرة على الأندلس، انظر:

M. L. Herrera Escudero: **"Las tinajas mudéjares del Museo de Toledo: intento de sistematización"** MMAP, IV, pp. 146-155. J.A. Sierra Fernández y M.G. Lasso de la Vaga: **"Tinajas Mudéjares del Museo**

يعود السبب الأول إلى صعوبة صناعة هذا الفخار، حيث تميز بتقنية معقدة اشترطت الكثير من العمل، إضافة إلى الصبر والمهارة المطلوب توفرهما في صانع الفخار. ولهذا، فإنه ليس من المستغرب أن يستعاض عن هذه الزخرفة بزخرفة أخرى أكثر بساطة وسهولة كالزخرفة المحززة، ونرى ذلك في الخوابي الموريسكية المتواجدة في متحف مدينة إشبيلية[١٨].

أما السبب الثاني فيعود إلى الاستعاضة عن الخابية العربية الإسلامية بالآنية المسيحية المعروفة، بـ (CANTARO)، وهي عبارة عن آنية فخارية عملية واقتصادية، حيث تقوم بتأدية وظيفتين في آنٍ معاً، نقل الماء وحفظه.

لقد استخدم العرب المسلمون في الأندلس الخوابي لوضعها كما ذكرنا في مكان معين لحفظ الماء، وقد امتازت بقيمتها الجمالية وحرص على وضعها في الأفنية والقاعات الأندلسية الجميلة، ومع تراجع الوجود العربي الإسلامي في الأندلس، فإن هذه الحاجة تقلصت وفقدت أهميتها وخاصة في المجتمعات الإسبانية التي فضلت استخدام الأواني الفخارية البسيطة بزخارفها ولفائدتها العملي، ووجدت المجتمعات الإسبانية ضالتها في الـ (CANTARO)، وهكذا نلاحظ أنه ومع تغير بنية المجتمع الأندلسي، فإن الخابية المطبوعة فقدت أهميتها واستعيض عنا بأوانٍ أخرى.

الزخرفة والموضوعات الزخرفية:

إن الموضوعات الزخرفية للخابية هي نفسها تقريباً التي وجدت عبر القرون. وتتمثل نقطة الاختلاف في التنظيم الزخرفي وأفضلية بعض الموضوعات على أخرى،

Arqueológico de Sevilla, Tipología y decoración". Homenaje a Conchita Fernández Chicarra. Madrid, pp. 457-470. S. Santos Gener: **"Estampillas de alfarerías moriscas corodobesas"**, MMAP. Sierra, pp. 220-232.

[18] J. A. Sierra. Op. Cit.

إضافة إلى درجة التطور المتباينة للموضوعات المختلفة طبقا للفترة التاريخية التي تعود إليها.

يمكن أن نميز ثلاثة نماذج من الزخرفة تتوافق كل منها مع فترة تاريخية معينة:

النموذج الأول:

يتجاوب مع الطراز الموحدي الأكثر بدائية. وقد تطور في الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي، لكن من الممكن أن يمتد منذ نهايات القرن الحادي عشر الميلادي، متزامنا بذلك مع الوجود المرابطي في شبه الجزيرة الإيبيرية، حتى بدايات القرن الثالث عشر الميلادي.

لقد تطورت هذه الزخرفة في خواب ذات جسم كروي وقاعدة مسطحة ورقبة قصيرة على الأغلب أسطوانية الشكل، لكنها قريبة الشبه بشكل البوق (الشكل ١).

تعتمد زخارفها على سلاسل من الطبعات ذات الأشكال الدائرية واللوزية والقلبية، وعلى شرائط من الطبعات المستطيلة البسيطة جدا، وعلى تراكيب زخرفية ذات سمات معمارية منفذة في الثلث الأوسط من جسم الآنية بمساعدة الطباعة الزخرفية والزخرفية التشكيلية[١٩].

أما الموضوعات الزخرفية فهي نباتية وهندسية وكتابة ومعمارية إضافة إلى الموضوع الزخرفي المعروف بيد فاطمة.

➢ **الزخرفة النباتية:**

---

[١٩] تتألف الزخرفة التشكيلية الفخارية أو المضافة، من شرائط من الطين الفخاري المضافة إلى الآنية لتقوم بوظيفة زخرفية بشكل عام، مع أنه يمكن أن تستخدم أحيانا من أجل تقوية الخابية في أجزائها الأكثر ضعفا، انظر:

Khaled Ghunim: **Op. Cit.**, p. 73.

حيث تكثر الأوراق النباتية ذات الأشكال اللوزية والقلبية والأوراق النباتية الشوكية التي لن تعود للظهور في الزخارف الأخرى، كذلك الأوراق الشبيهة بسعف النخيل، البدائية الشكل، التي ستخضع لتطور كبير في الفترات اللاحقة، هذا إضافة إلى التراكيب النباتية المختلفة المعتمدة على السيقان والأوراق والأغصان، والتي ستشكل زخارف نباتية جميلة.

- **الزخرفة الهندسية:**

موضوعاتها المميزة هي الدوائر المنفذة بواسطة القصبة والنجوم ولا سيما النجمة السداسية[٢٠]، إضافة إلى الزخرفة الحلزونية.

- **الزخرفة الكتابية:**

معظم الطبعات الكتابية تظهر في الخط الكوفي البسيط، دون أي تعقيدات أو أي تطور في العمق، كما سنرى لاحقاً، أما القراءات التي تتكرر عادة فهي: الملك له، والعافية، والغبطة، والوفاء، والبركة، والحمد... وغيرها. أما الخط النسخي فهو أقل ظهوراً من الخط الكوفي وتبرز أهمية لفظ كلمة اليمن فيها.

- **الزخرفة المعمارية:**

تتألف التراكيب الزخرفية المعمارية من العقود والأعمدة. أما العقود فيمكن أن تكون على شكل حدوة حصان أو عقود مفصصة، أما العقود كثيرة التكرار فهي العقود ثلاثية أو خماسية الفصوص، لكن تظهر أيضاً عقود سباعية وحتى تساعية

تتشكل النجمة السداسية من تقاطع مثلثين، وهي عبارة عن رمز ذو سمة وقائية وتعود بأصولها إلى العصور القديمة حيث استخدمت من قبل الكثير من الشعوب لغايات زخرفية بحتة ولا سيما في زخرفة الفخار وأدوات أخرى، ويجب القول، أن النجمة السداسية التي اتخذها يهود العصر الوسيط شعاراً لهم، ليست ذات أصل إسرائيلي/ يهودي قديم، بل نجدها قبلهم في مختلف زخارف الوطن العربي القديم. انظر:

Khaled Ghunim, **Op. Cit.**, pp. 231-233.

الفصوص، وهي من الموضوعات النادرة، ومن الأهمية بمكان التذكير هنا أيضا أن معظم هذه العقود تقدم زخرفة داخلية مكملة غالبا ما تكون هندسية من نجوم ودوائر ومثلثات، أو نباتية من سيقان وأزهار، ولو أنه من الممكن ظهورها فارغة دون أية زخرفة مكملة في بعض الأحيان (الشكل ١٤).

- **يد فاطمة:**

غالبا ما تظهر اليد دون الذراع مع القليل من الزخرفة، لكن فيما يبدو ستتحول إلى موضوع زخرفي ذو أهمية محرزا تطورا كبيرا[٢١] (الشكل ٧-٨).

النموذج الثاني:

يمثل الطراز الانتقالي ما بين الموحدي والناصري، حيث تطور خلال القرن الثالث عشر الميلادي. وهذا النموذج أكثر تطورا من السابق، حيث كان شكل الخابية قد تغير وأصبح أكثر رشاقة وتمتع بجسم بيضوي الشكل، ورقبة أكثر طولا وقاعدة أكثر ضيقا (الشكل ٢).

واعتمد التنظيم الزخرفي فيها على شرائط من الطبعات المستطيلة الشكل، فارضة بذلك فكرة الاستمرارية للموضوعات الزخرفية، أما السلاسل الزخرفية السابقة فقد اختفت الآن وكذلك الطبعات ذات الأشكال الدائرية واللوزية والقلبية، حيث يحتاج الآن إلى وحدة كافة الطبعات في الشريط الزخرفي الواحد لتشكيل رسم متكامل ومتواصل.

---

[٢١] لقد خضع الموضوع الزخرفي المعروف بيد فاطمة إلى تطور في شكله وفي دلالاته حيث ظهر كرمز وقائي متداخل مع المعتقدات الباطلة، لكنه حاز فيما بعد على صفة دينية، حيث شكل اسم الله ورمز للحماية الإلهية والأركان الخمسة للإسلام، انظر:

Khaled Ghunim: **Op. Cit**, pp. 221-225. B. Pavón Maldaonado: **“Arte, símbolo y emblemas”**, p. 437. J. Hreber: **“La Main de Fatma”**. Hespéris, VII. J. Navarro Palazón **La cerámica esgrafiada andulasí Murcia.** Madrid. P. 69.

أما من حيث الموضوعات الزخرفية فهي نفسها، كما كانت في الزخرفة السابقة، باستثناء الموضوع الزخرفي المعماري، لكن الموضوعات قد تغيرت الآن، وقد اختفى بعضها وتطور بعضها الآخر. لدينا الآن شبكات من المعينات متحدة المركز أو ذات نجمة داخلية، ونجوم ذات ثمانية أطراف متحدة فيما بينها وذات زخرفة داخلية متممة (الشكل ١١).

يظهر التطور واضحا في الموضوعات النباتية، حيث تسيطر الأوراق على شكل سعف النخيل مع عروق وأوراق صغيرة وتتكرر بشكل عام التشكيلات الزخرفية النباتية المتكونة من السيقان والأوراق والأغصان والورود (الشكل ٩).

أما الكتابات فترافق بتزينات نباتية في العمق وتبدأ بعض الحروف لتعرض على شكل أوراق أو سيقان. أما الكتابة الكوفية فتبرز كلمة الملك، وفي الكتابة النسخية كلمة اليمن (الشكل ١٢-١٣).

أما الموضوع الزخرفي المعروف بيد فاطمة فقد تطور أيضا حيث يظهر الذراع مع زخرفة كثيفة (الشكل ١٥)، أما فيما يتعلق بالموضوعات الزخرفية فقد اضمحل استخدامها كموضوع زخرفي مركزي كما كان عليه الحال في الفترة السابقة، واستخدم الآن كتتمة زخرفية لموضوعات أخرى.

النموذج الثالث:

انتشر بين نهايات القرن الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين. ينتمي إلى الطراز الناصري أو الغرناطي الصرف، وهو أكثر تطورا من الزخارف السابقة ويحتل مكان الصدارة بالنسبة للطباعة الزخرفية حيث استنفذ كل روعتها.

لقد استمر شكل الخابية بالتطور ليصبح إناء أكثر ارتفاعا ونحفا ورشاقة، ذات قاعدة في كل مرة أكثر ضيقا مما يجعل محافظتها على التوازن أمرا مستحيلا، حيث تصبح الحاجة إلى القاعدة أمرا ضروريا. أما الرقبة فطويلة وضيقة أكثر من السابق

وذات شكل شبيه بشكل البوق، وأما الجسم فبيضوي الشكل وغالبا ما يحـــوي علـــى عروات على شكل أجنحة صغيرة[٢٢] (الشكل ٣-٦).

أما الطبعات فهي أكثر ارتفاعا وأقل عرضا وهذا ما يمنح الآنية شـــكلا أكـــثر رشاقة وتغطي الطباعة الزخرفية كامل الخابية تقريبا، الرقبة والجسم والعرى، أما في القسم الأسفل من الجسم فيستغنى عن الطباعة ونرى بدلا عنها تركيبات من الخطـــوط المحززة[٢٣].

أما الموضوعات الزخرفية فهي نفسها الواردة في النموذج الثاني، والآن لدينـــا موضوع جديد آخر هو الموضـــوع الحيوانـــي (الشـــكل ١٦). وقـــد تمتعـــت كافـــة الموضوعات بوفرة كبيرة من التفصيلات والتشكيلات في الزخرفة، التي تصبح أكـــثر كثافة وبنفس الوقت أكثر أناقة ونعومة.

أما الموضوع الذي يمتاز بأهمية كبيرة فهو ما يعرف "بالسبكة". فـــي البدايـــة تظهر زخارف ذات خطوط متعرجة (الشكل ١١)، ونرى فيمـــا بعـــد شـــبكات مـــن المعينات ذات الزخارف المتممة الداخلية كالنجوم والـــورود (الشـــكل ١٧)، وأخـــيرا ألغيت الأشكال الهندسية من أجل الحصول على شكل أكثر مرونة على قـــاعدة مـــن عناصر نباتية كالسيقان والأوراق والأغصان التي بلغت ذروتها بزخرفـــة التوريـــق (الشكل ١٠).

---

[٢٢] سنؤكد أيضا على شكل متوسط ما بين الخابية والجرة، هو عبارة عن خابية صغيرة ذات رقبة طويلة جدا ومتطورة، شبيهة بشكل البوق وجسم لوزي وقاعدة ضيقة، وهي بشكلها الأنيق تشير إلى العلاقـــة الوثيقة ما بين الخوابي والجرار، انظر:

Khaled Ghunim: **Op. Cit. pp.** 51-52.

[٢٣] عندما تكون الخوابي الكبيرة ذات قاعدة ضيقة جدا فإنه يبدو من الصعب أن تحافظ علـــى توازنـــها، ويكون من الضروري استخدام قاعدة لها، ولهذا تلغى الزخرفية الطباعية من الجزء السفل للآنيـــة ويستعاض عنها بخطوط محززة وهي زخرفة أكثر بساطة، انظر:

Khaled Ghunim: **Op. Cit. pp.** 94-95.

لقد ظهرت، بشكل عام، كافة الموضوعات غنية بمحيطها وعمقها ذي التزيينات النباتية الجميلة، يمكن أن تظهر الموضوعات الحيوانية، وتبرز من بينها أهمية الطاووس والغزالة (الشكل ١٦) وكلاهما ذو تقليد شرقي واضح[٢٤]. أما الخط الكوفي والنسخي فيصبح في كل مرة أكثر ليونة وذا زخارف وردية حتى الوصول إلى الاختلاط مع النباتات (الشكل ١٣). أما يد فاطمة فنراها غنية بمعان جديدة، مرافقة بزخرفة كثيفة، وظاهرة في مناسبات عديدة مشتركة مع المفتاح، الذي له معنى خاص أيضا (الشكل ١٥)[٢٥].

وأخيرا تبرز أهمية التشكيلات الزخرفية المتناظرة، وتراكيب العقود التي تحتوي داخلها موضوعات زخرفية مختلفة والتلاعب في الأشكال النباتية والكتابية التي تخلق رسومات مرنة أنيقة جدا ومليئة بالحياة (الشكل ١٣-١٤).

الخاتمة:

وهكذا نرى أن الخابية المطبوعة التي ذكرنا، ما هي إلا نتاج عربي إسلامي ليس فيما يتعلق بشكلها فحسب بل بوظيفتها أيضا، وهي آنية ذات قيمة ثقافية وتاريخية، التي تغير شكلها عاكسا بذلك الميول الفنية المتتابعة. وقد عرضت لنا كاتالوجا واسعا ومهما من الموضوعات الزخرفية، هذه الزخرفة التي لم تكن مقتصرة

---

[24] Khaled Ghuinm: **Op. Cit. pp.** 243-252.

[٢٥] من المألوف مشاهدة المفتاح داخل ذراع اليد ليس فقط في الفخار بل أيضا في بوابات الأبنية والتحصينات كموضوع زخرفي، وفي هذه الحالات فقد اعتاد المفتاح أن يشير إلى المدينة، السلطة الزمنية التي تعتمد على الرعاية الإلهية التي يرمز إليها بالكف، ومع ذلك أحيانا يمكن أن يظهر المفتاح منفصلا ليشكل الموضوع الرئيسي ويكتسب في هذه الحال معنى أكثر عمقا له علاقة بالسورة الأولى من القرآن الكريم "الفاتحة" ليشكل بذلك رمزا دينيا ووقائيا. انظر:

25 Khaled Ghuinm: **Op. Cit., pp.** 233.

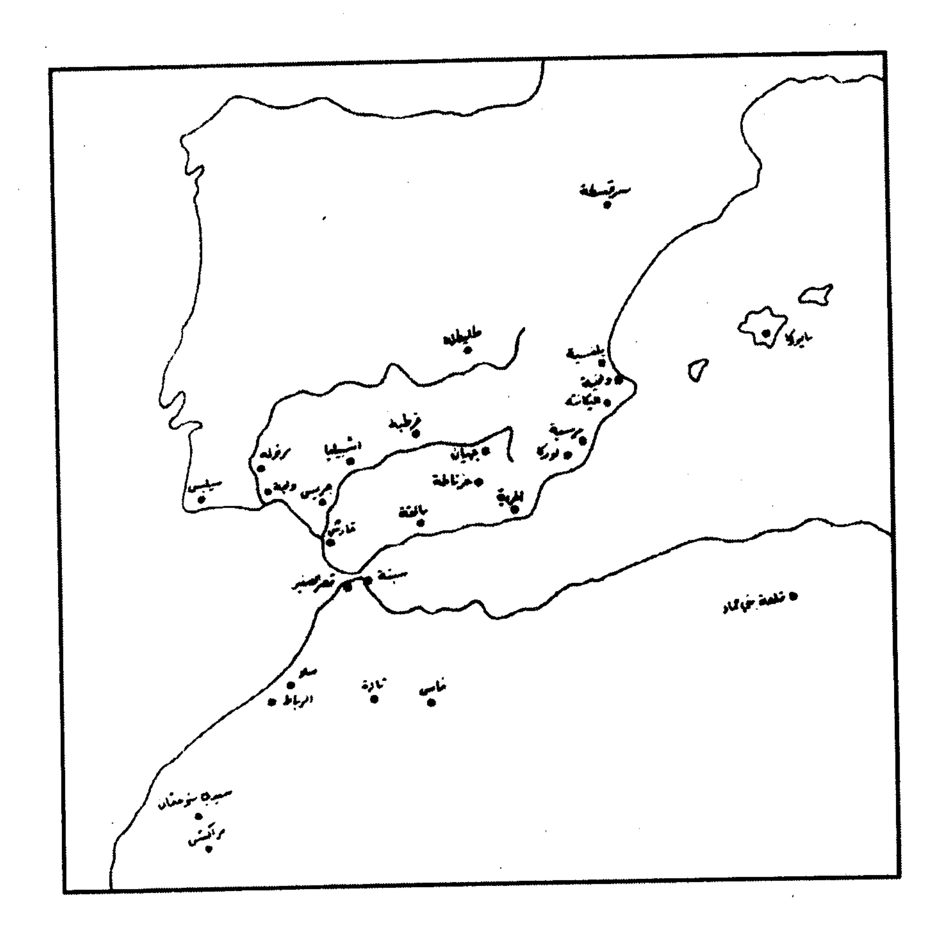
على الزخرفة المطبوعة وإنما في البداية تطورت في جدران القصور والمساجد[٢٦] لتنتشر فيما بعد في كافة المظاهر الفنية الأخرى كالفخار والخشب والمعادن والجص والعاج والرخام... وغيرها[٢٧].

وبهذا الشكل، فقد تحولت الخابية المطبوعة إلى وثيقة أثرية وتاريخية مهمة أشارت إلينا كيف تطورت الزخرفة في الأندلس منذ القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر الميلاديين وما هي الموضوعات الزخرفية المفضلة لكل فترة زمنية.

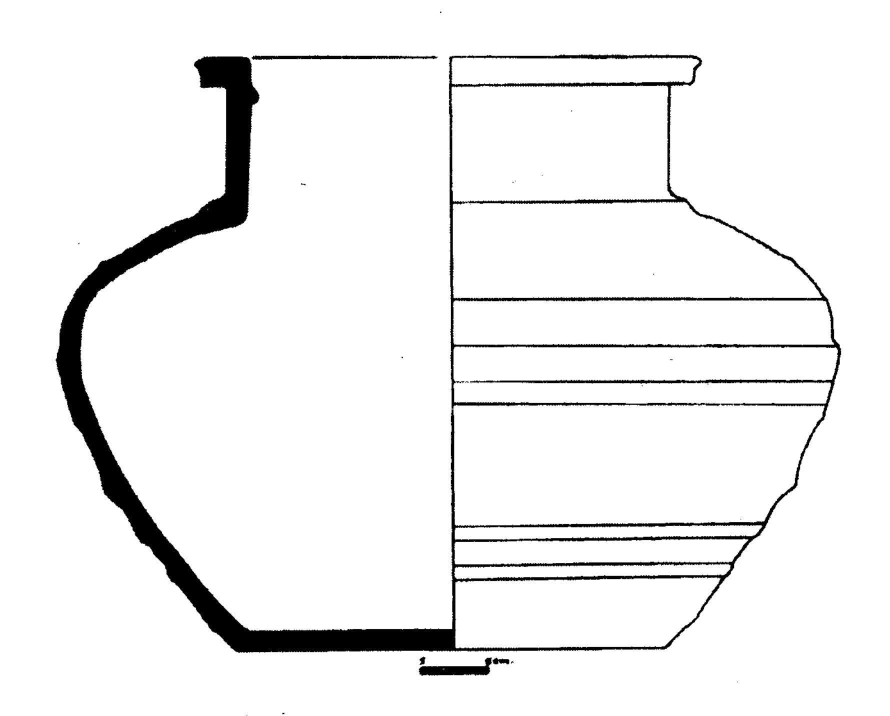
---

[26] M. Gómez Moreno: "**Textos de Gómez Moreno sobre La Alhambra musulmiana**" CA, 6, Granada. 1990. "**Granada en el siglo** XIII" CA, 12, Granada. 1966. G. Michel: **La arquitectura del Mundo islámico.** Madrid. 1988. J. M. Puerta Vichez: "**La Alhambra de Granada. Poder, Arte y Utopía**" CA, 23, Granada. 1987. M.Barrucando y A. Bednorz: **Arquitectura islámica en Andalucia.** Italia. 1992.

[27] **Céramiques islámiques,** Musée d'art et d'histoire. Geneve (Catalogueq... 1981. Vivir en Al-Andalus, exposición de cerámica (Calalogo). 1993 Arte islámico en Granada. Propuesta para un Museo. Granada, 1995 (Catalogo), pp. 183-502. Al-Andalus, Las artes islámicas en España dirigido por Jerrilyun D. Dodds. The Metropolitan Museum of Art. New York 1992.



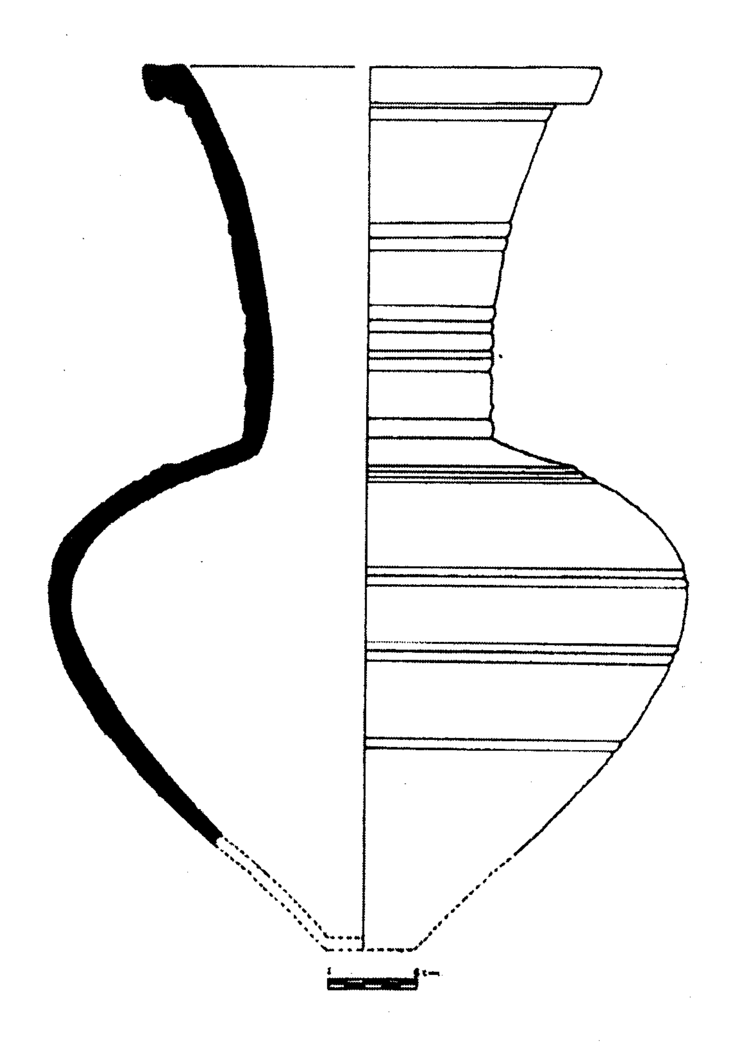
خارطة تبين انتشار الفخار المطبوع في بلاد الأندلس وشمال إفريقيا



الشكل رقم -١-

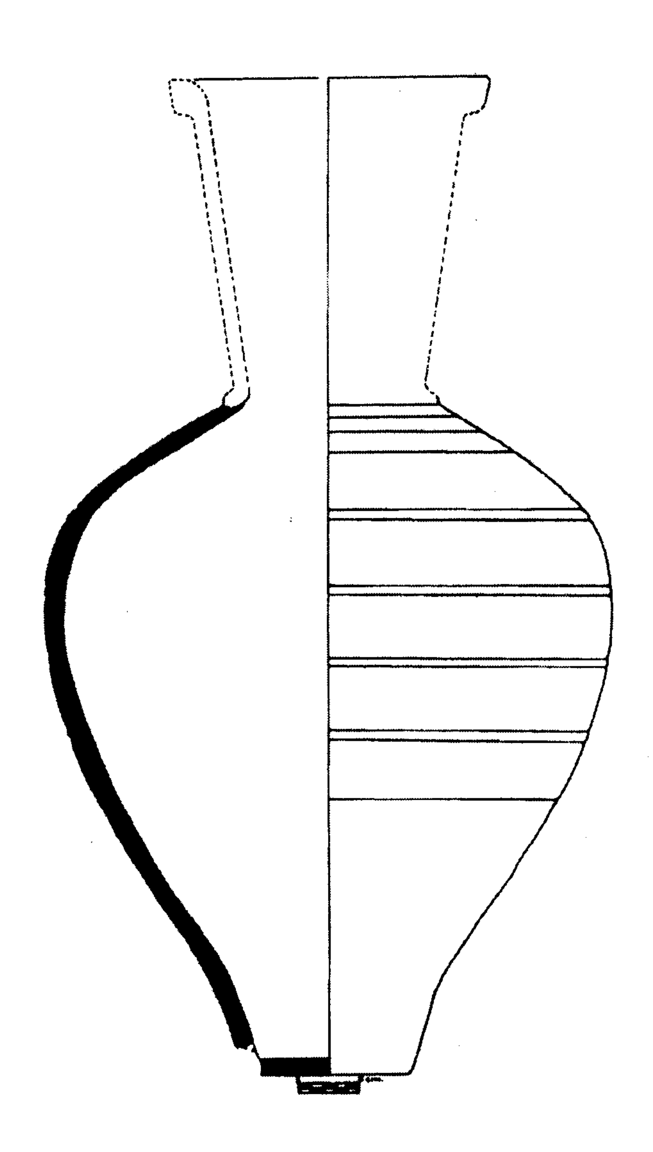
خابية فخارية من العصر الموحدي الأندلسي ذات زخرفة مطبوعة

(القرن ١٢-١٣ م)



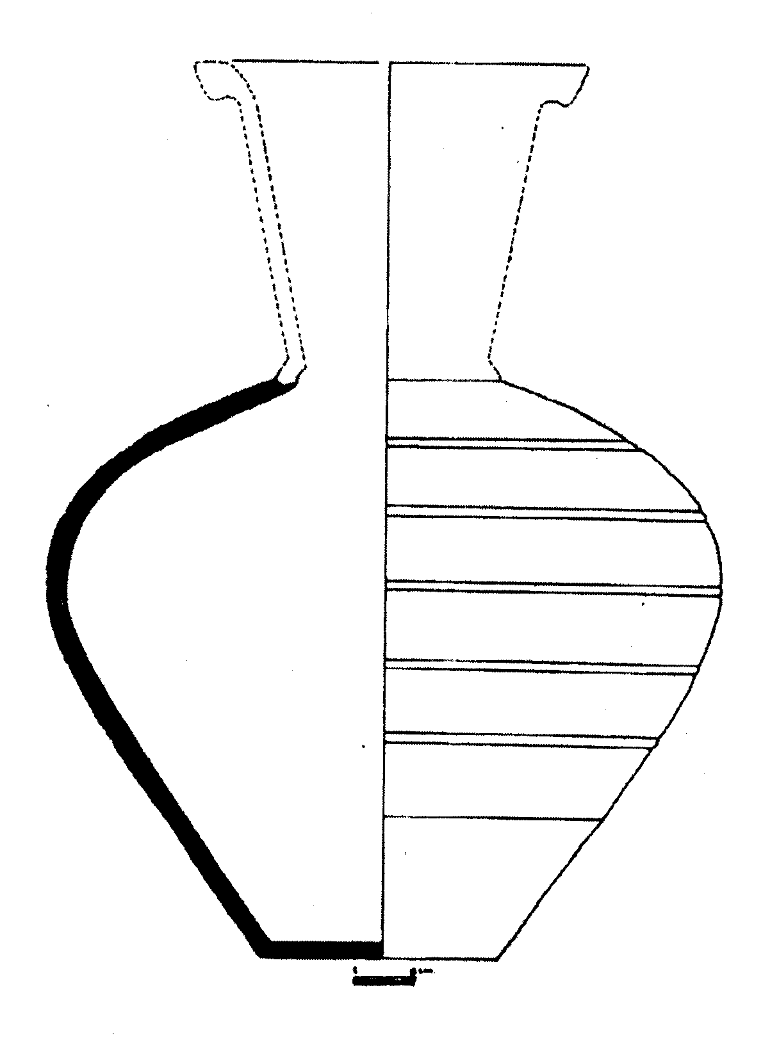
الشكل رقم -٢-

خابية فخارية ناصرية ذات زخرفة مطبوعة (القرن ١٣ م)



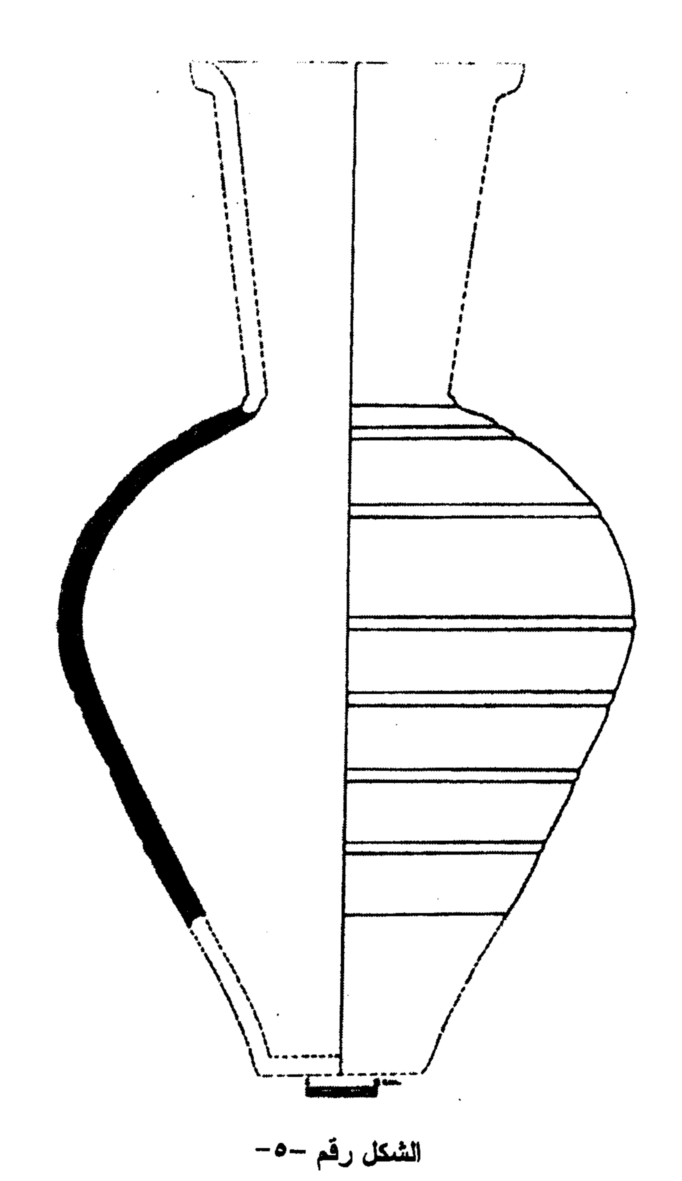
الشكل رقم –٣–

خابية فخارية ناصرية ذات زخرفة مطبوعة (القرن ١٣–١٥ م)



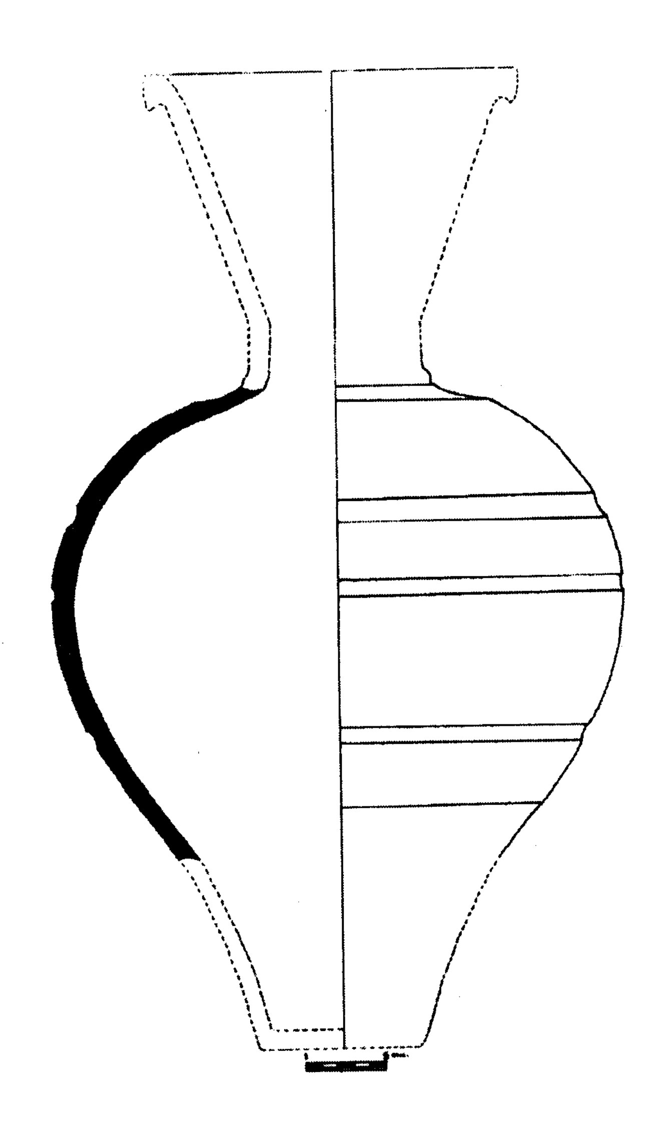
الشكل رقم -٤-

خابية فخارية ناصرية ذات زخرفة مطبوعة (القرن ١٣-١٥ م)



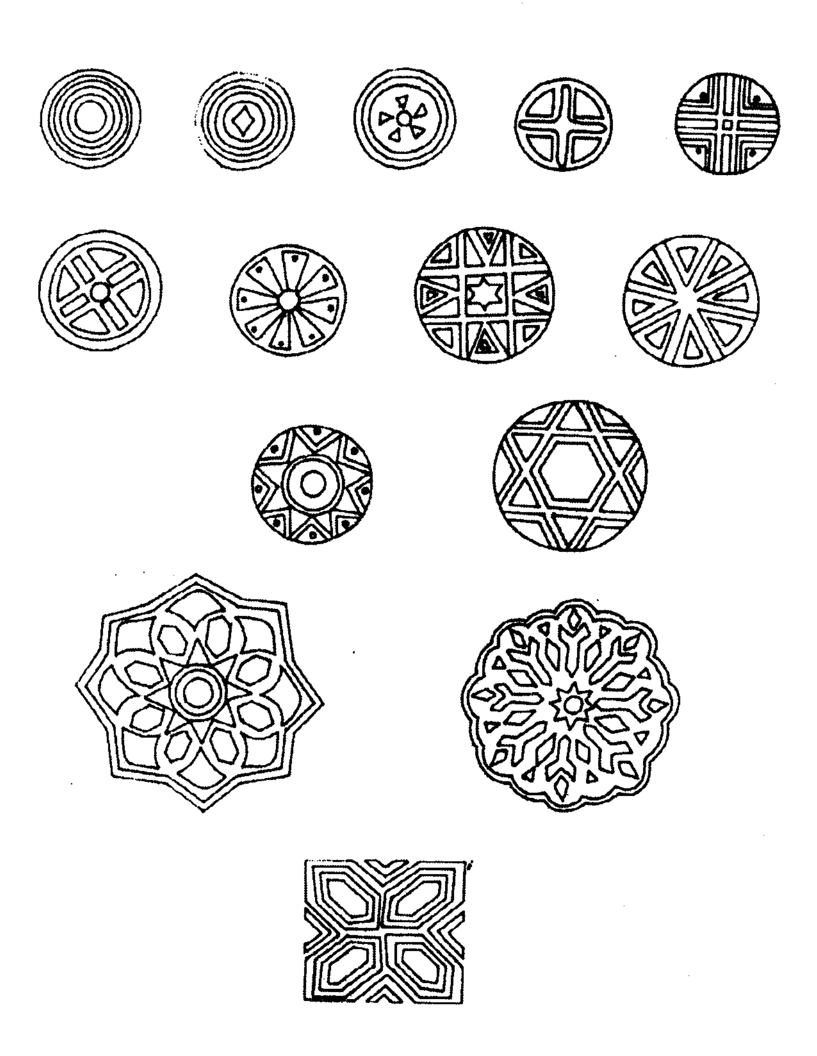
الشكل رقم –٥–

خابية فخارية ناصرية ذات زخرفة مطبوعة (القرن ١٣–١٥ م)



الشكل رقم –٦–

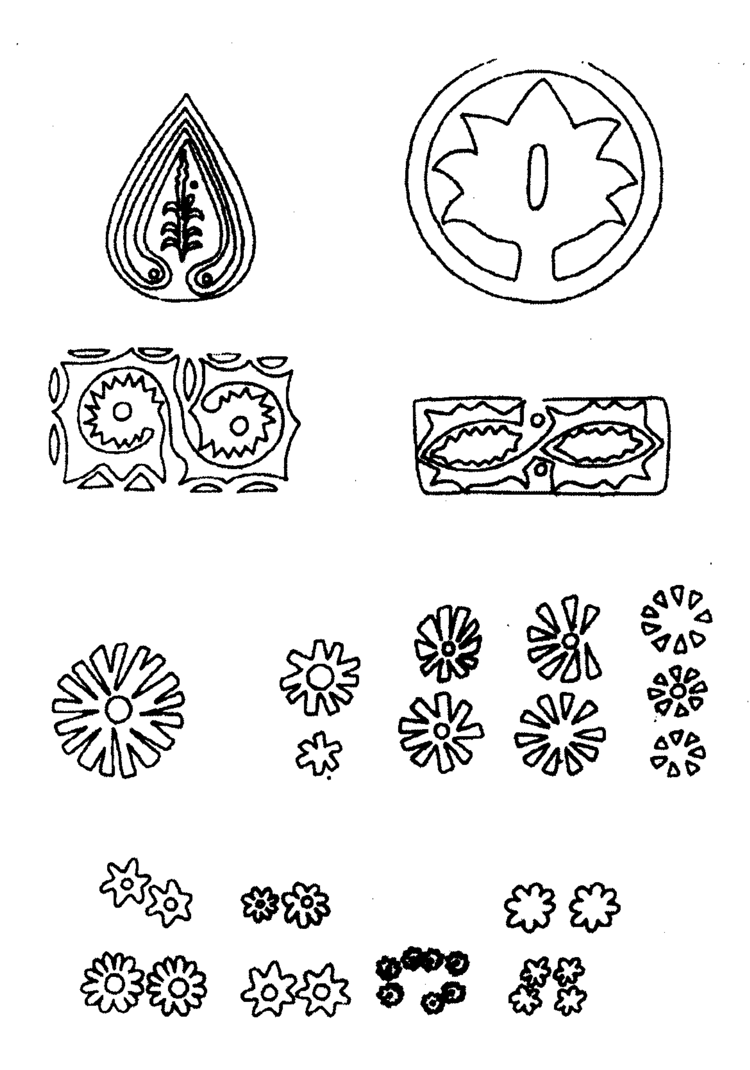
خابية فخارية ناصرية ذات زخرفة مطبوعة (القرن ١٣–١٥ م)



الشكل رقم –٧–

زخارف فخارية من العصر الموحدي في الأندلس

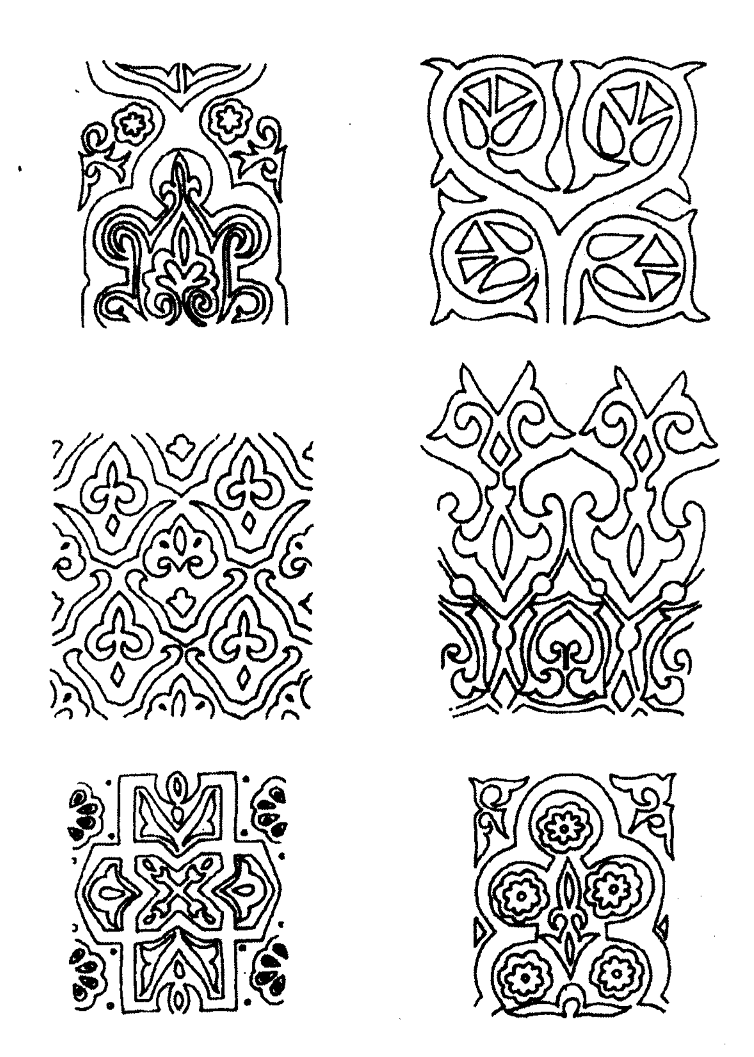
ذات موضوعات هندسية القرن الثاني عشر الميلادي



الشكل رقم -٨-

زخارف فخارية من العصر الموحدي الأندلسي

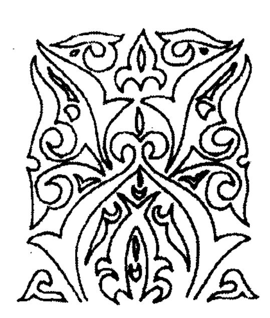
ذات موضوعات نباتية القرن الثاني عشر الميلادي

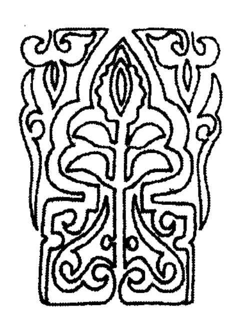


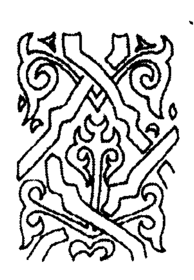
الشكل رقم -٩-

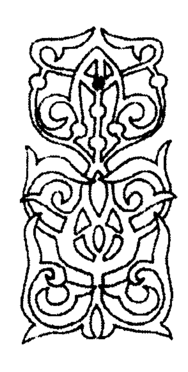
زخارف فخارية ذات موضوعات نباتية:

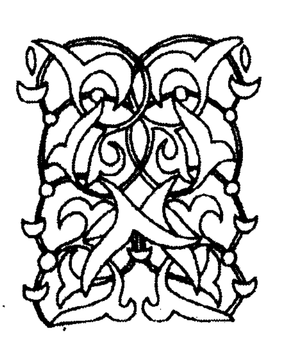
١ (القرن ١٢-١٣ م)، ٢ (القرن ١٣ م)، ٣-٦ (القرن ١٣-١٥ م)

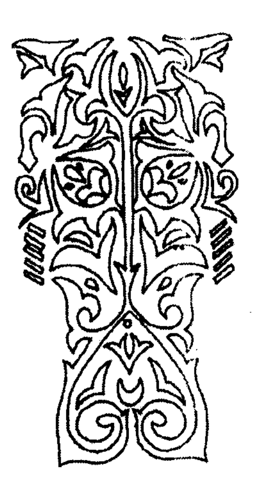








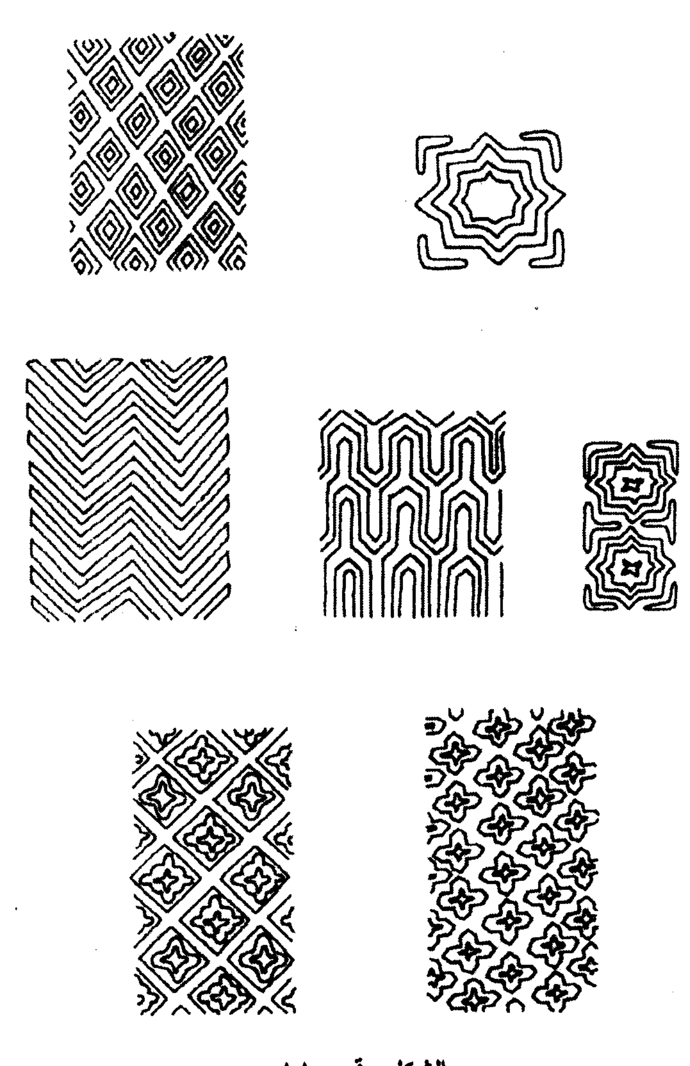




الشكل رقم –١٠–

زخارف فخارية ذات موضوعات نباتية:

١ (القرن ١٣ م)، ٢–٦ (القرن ١٣–١٥ م)



الشكل رقم –١١–

زخارف فخارية ذات موضوعات هندسية:

١ (القرن ١٢ م)، ٢ (القرن ١٢-١٣ م)

٣ (القرن ١٣ م)، ٤–٧ (القرن ١٣–١٥ م)



الشكل رقم -١٢-

زخارف فخارية ذات موضوعات كتابية كوفية:

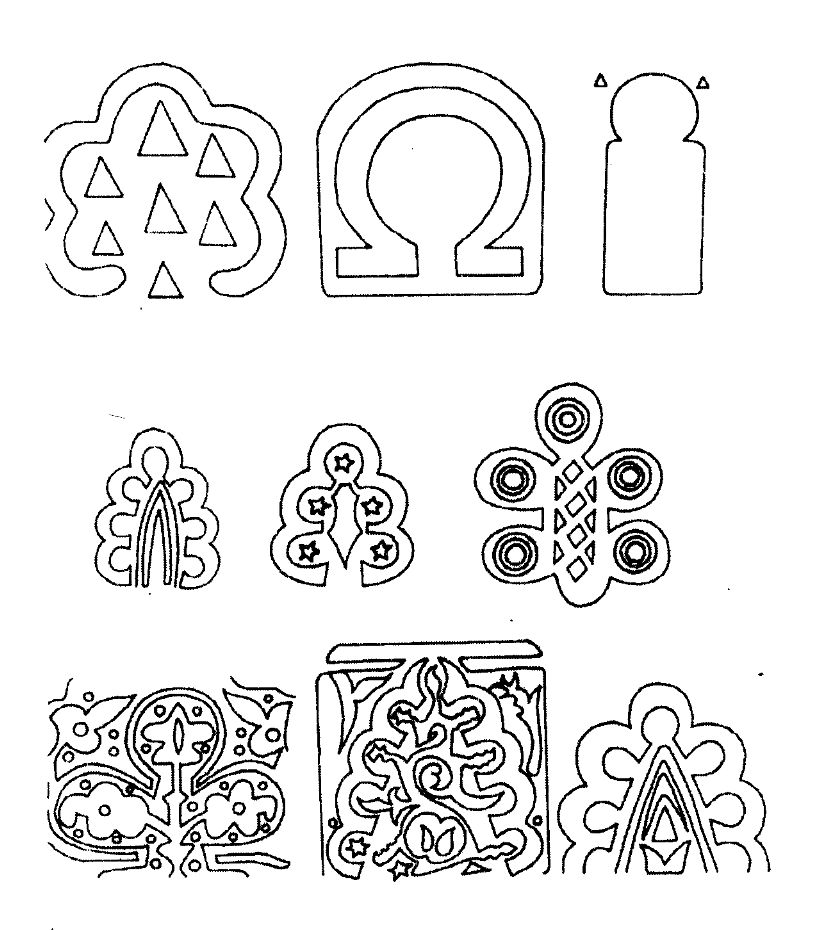
١-٢ (القرن ١٢ م)، ٣-٤ (القرن ١٢-١٣)، ٥-٦ (القرن ١٣-١٥ م)



الشكل رقم –١٣–

زخارف فخارية ذات موضوعات كتابية كونية ونسخية:

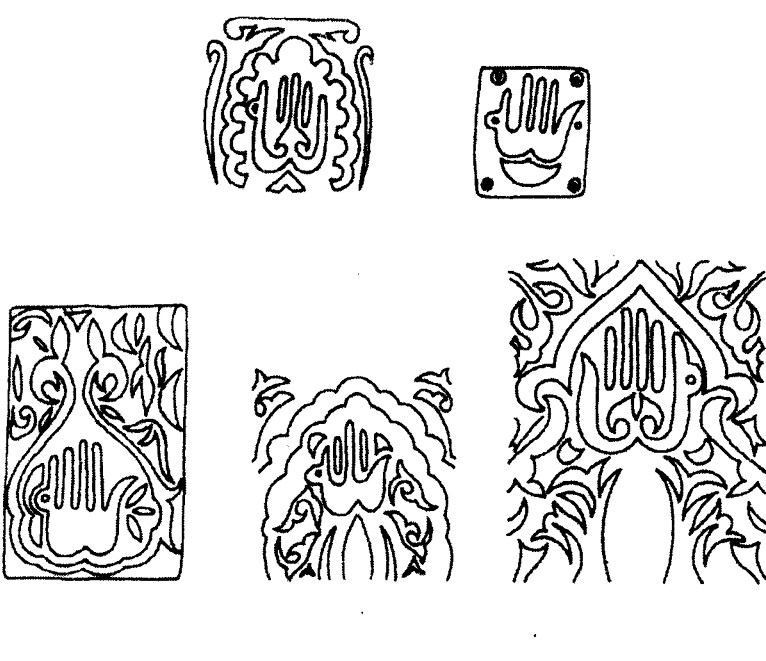
١–٦ و٨ (القرن ١٣–١٥ م)، ٧ (القرن ١٢–١٣ م) .

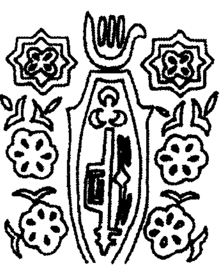


الشكل رقم -١٤-

زخارف فخارية ذات موضوعات معمارية:

١-٢ (القرن ١٢)، ٣-٩ (القرن ١٢-١٣ م)





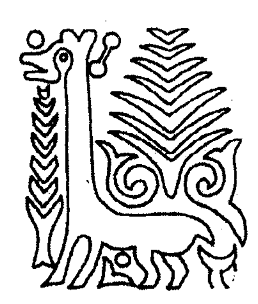
الشكل رقم –١٥–

زخارف فخارية "الموضوع المعروف باسم يد فاطمة"

١–٢ (القرن ١٢–١٣ م)، ٣–٥ (القرن ١٣)، ٦ (القرن ١٣–١٥ م)







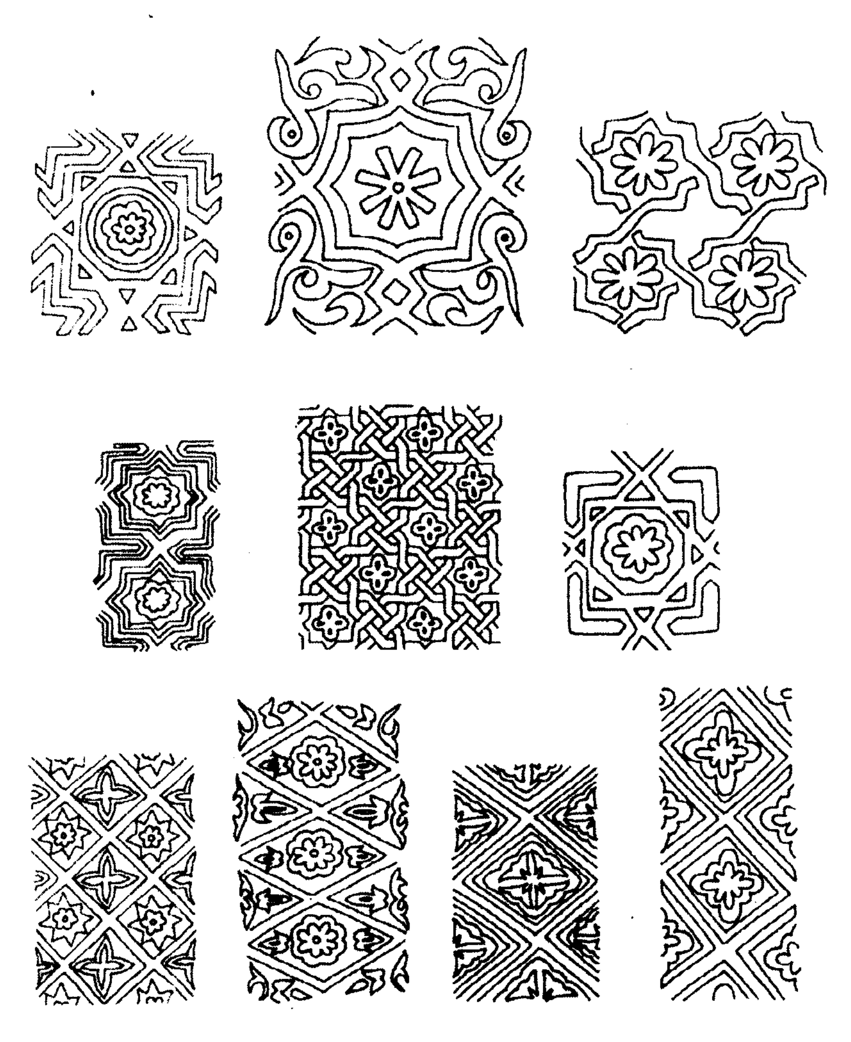




الشكل رقم -١٦-

زخارف فخارية ذات موضوعات حيوانية:

١ (القرن ١٢-١٣ م)، ٢-٥ (القرن ١٣-١٥ م)



الشكل رقم –١٧–

زخارف فخارية ذات موضوعات هندسية – نباتية:

١–٤ (القرن ١٣)، ٥–٦ (القرن ١٣–١٥م)

٧ (القرن ١٣ م)، ٨–١٠ (القرن ١٣–١٥ م)

ثبت المراجع المعتمدة

1- Aguado Villalba, J. (1983): **La cerámica hispanomusulmana de Toledo**. Madrid.

2- Barrucand, M.-Bednorz, A. (1992): **Arquitectura islámica en Andalucía.** Italia.

3- Bazzana, A. (1979): **"Céramiques médiévales:** Les méthodes de la description analytique apliquées aux productions de L'Espagne Orientale. II. **Les Poteries decorées.** Chronologie des productions médiévales" MCM, XV.

4- Bazzana, A. (1979): **"Céramiques médiévales:** Les méthodes de la description analytique apliquées aux productions de L'Espagne Orientale. II. **Les Poteries decorées.** Chronologie des productions médiévales" MCM, XVI.

5- Cressier, P.-Riera Fran, M.M.-Rosselló – Bordoy, G. (1992): La cerámica tardoalmohade y los orígenes de la cerámica nasrí. Palma de Mallorca.

6- Delpy, A. (1949): **"Notes sur quelques vestiges de céramique recueillis à Salé"** Hespéris, 36.

7- Ghunim, K. (1995): **La cerámica estampillada en Granada.** Granada. (inédita).

8- Golvin, L. (1965): **Recherches archéologiques à la Qal'a des Beni Hammad.** Paris.

9- Golvin, L. (1980): **"Les céramiques émaillées de période hammadide Qal'a des Banu Hammad** (Algérie)". CMMO.

10-Gómez Moreno, M. (1970): **"Textos de Gómez Moreno sobre La Alhambra musulmana"** CA, 6, Granada.

11-Gómez Moreno, M. (1966): **"Granada en el siglo** XIII" CA, 2, Granada.

12-González Martí, M. (1944): **Cerámica del levante español.** Siglos medievales. Tomo I.La Loza. Barcelona – Madrid.

13-Herber, J. (1927): **"La Main de Fatma"**. Hespéris, VII.

14-Herrera Escudero, M.L. (1943): **"Las tinajas mudéjares del Museo de Toledo: intento de sistematización"**. MMAP, IV.

15-Dugel, Ch. E. (1992): **"El agua de La Alhambra"** CA, 28. Granada.

16-Llubiá, L.M. (1967): **Cerámica medieval española**. Barcelona.

17-Michel, G. (1988): **La arquitectura del mundo islámico.** Madrid.

18- Montes Machuca, C. (1987-88): **"Algunas cerámicas estampilladas de Jerez de la Frontera** (Cádiz)" Estudios de Historiar y de Arqueología medivales. VII-VIII. Cádiz.

19-Muñoz Martín, M. – Flores Escobosa. I. (1987): **"Estudio de la cerámica hispanomusulmana de uso doméstico común y vasijas de almacenamiento"** AAA, II. Sevilla.

20- Navarro Palazón, J. (1986): **La cerámica esgrafiada andalusí de Murcia.** Madrid.

21-Navarro Palazón, J. (1986): **La cerámica esgrafiada eslámica en Murcia.** Catálogo. Murcia.

22- Navarro Palazón, J. (1987): **"Formas arquitectónicas en el moviliario cerámico andalusí"** CA, 23. Granada.

23- Pavón Maldonado, B. (1985): **"Arte, Símbolo y emblemas en la España musulmana"**. Al – Qantara, VI. Madrid.

24-Puerta Vilchez, J. M. (1987): **"La Alhambra de Granada: poder, arte y utoía"**. CA, 23. Granada.

25-Rosselló – Bordoy, G. (1978): **Decoración zoomórfica en las Istas Orientales de Al – Andalus.** Palma de Mallorca.

26-Rosselló – Bordoy, G. (1978): **Ensayo de sistematización de la cerámica árabe de Mallorca.** Mallorca.

27-Santos Giner, S. de los (1948-49): **"Estampillas de alfarerías moricsas cordobesas"** MMAP, IX-X.

28-Sierra Fernádez, J. A. – Lasso de de la Vega, M. G. (1982): **"Tinajas mudéjares del Museo Argueológico de Sevilla. Tipología y decoración"**. Homenaje a Conchita Fernández Chicarro. Madrid.

29-Zozaya, J. (1990): **"Aperçu général sur la céramique espagnole"** CMMO.

30-(1981): **Céramiques islámiques,** Musée d'art et d'historie. Genève (Catalogue).

31-(1992): Al – Andalus, **Las artes islámiques en España,** dirigida por Jerrilyun D. Dodds. The Metropolitan Museum of art. New York.

32-(1993): Vivir en Al – Andalus, exposición de cerámica (Catálogo).

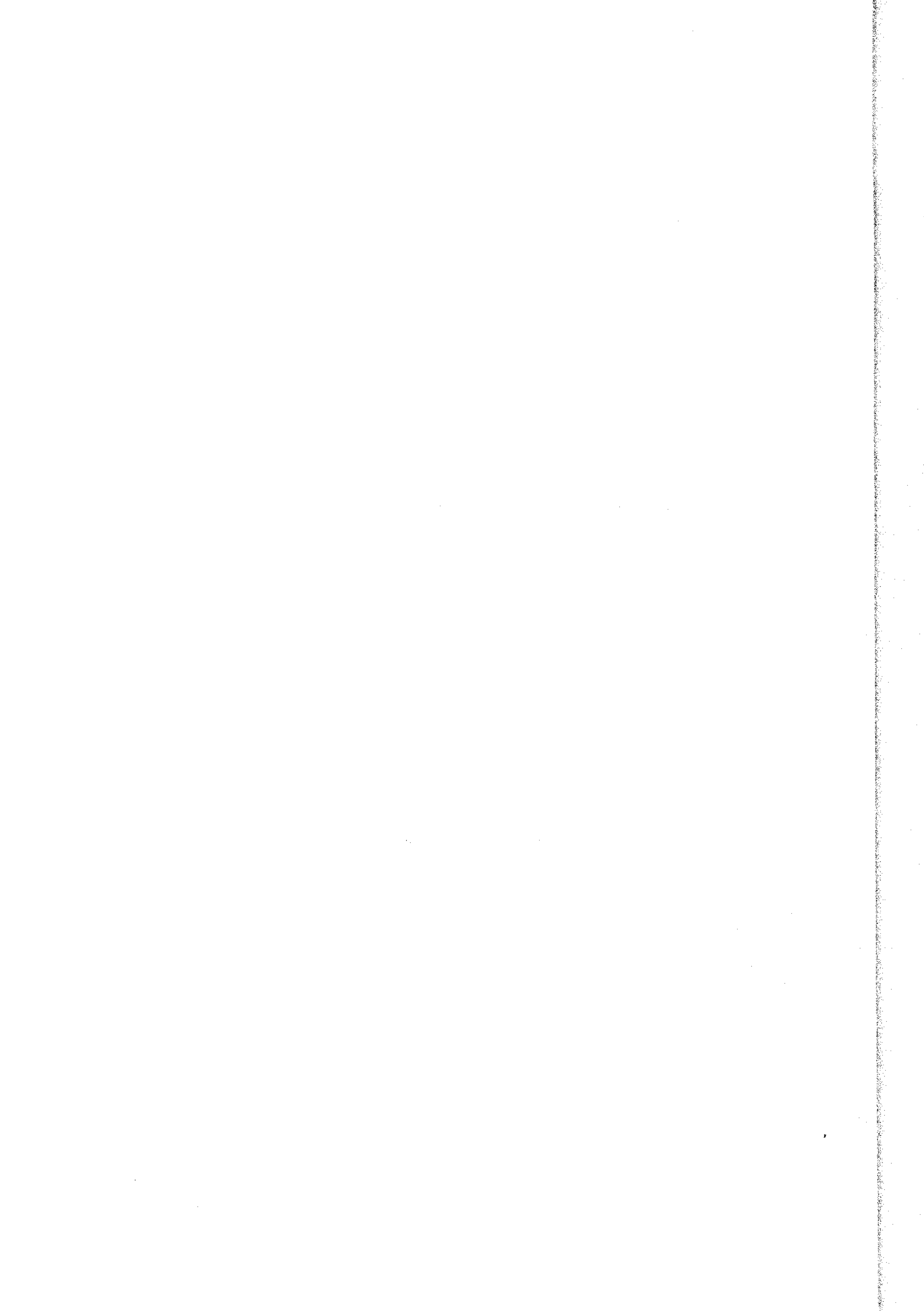
33-(1995): Arte islámico en Granada. Porpuseta para un museo. Granada (Catálogo).

٣٤- د. علي أبو عساف (١٩٩٣): **فنون الممالك القديمة في سورية**، دمشق.

دراسة تحليلية لموقف الحجاز من خلافة يزيد الأول

أ.د. محمد زيود

قسم التاريخ – جامعة دمشق



دراسة تحليلية لموقف الحجاز من خلافة يزيد الأول

تمهيد: الأمويون وعلاقتهم بالشام:

عرف الأمويون الشام وارتبطوا معها بعلاقات خاصة منذ العصر الجاهلي، بدءاً بأمية بن عبد شمس، واضطراره مغادرة مكة إلى الشام إثر منافسته المخفقة لعمه هاشم على النفوذ(١)، وكذلك عرفت قريش وزعامتها من الأمويين الشام، برحلاتها التجارية الصيفية إليها وبعلاقاتها التجارية المتميزة، بحيث كان تجارها يخرجون بقوافل كبيرة(٢).

وفي العصر الإسلامي، لقيت هذه العلاقة دعماً جديداً بعد أن عهد الخليفة الراشدي الأول أبو بكر الصديق (رض) (١١-١٣هـ)(٦٣٢-٦٣٤م)، إلى يزيد بن أبي سفيان بقيادة أحد الجيوش الثلاثة الرئيسية التي كلفت بمهمة تحرير الشام من سيطرة الروم. وكانت دمشق أول ولاية يستلمها يزيد، ولما توفي سنة (١٨هـ/٦٣٩م) أمر الخليفة عمر (١٣هـ-٢٣هـ)(٦٣٤-٦٤٣م)، معاوية على ما كان لأخيه يزيد،(٣) ولم تكن لمعاوية بعد وفاة أخيه يزيد إلا دمشق وأعمالها، ثم ولاّه عمر الفاروق الأردن بدلاً من شرحبيل بن حسنة. وعمل معاوية على كسب رضى الخليفة الفاروق فأبقاه على الشام، وتابع معاوية اهتمامه بفتح مدن الساحل الشامي كطرابلس، وقيسارية، وعسقلان، وأسكنها المرابطين ووكل بها الحفظة وعمل وفقاً "لرأي الخليفة عمر بن الخطاب في تحسين الثغور الإسلامية بإقامة نظام المرابطة على السواحل. وسار معاوية وفق سياسة محكمة مستغلاً" الظروف والأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية كافة لصالح حلمه الكبير في حكم دولة العرب الناشئة، وهو حلم قديم غذّاه أبوه "أبو سفيان" ورعته أمه هند بنت عتبة بن ربيعة أحد أشراف قريش، فكانت تقول له: "ثكلتك أمك إذا لم تحكم العرب"(*) كما كان معاوية يقوم أحياناً "باستشارة أبيه في المدينة(٤)، وكثيراً ما كان يفتخر بأمه فيقول "أنا ابن هند". ثم تطورت الأحداث

السياسية والعسكرية لتخدم هذا السياسي المعروف بأنه أحد دهاة العرب المشهود لـــهم بالحكنة السياسية والفطنة واقتناص الفرص واستغلال الأحداث، ومحاولة التأثير بـــها وتحريكها، وتفسير الأمور وفق مبتغاه، وقد استطاع استغلال هذه الظروف والأحـداث لإقامة الدولة الأموية التي كانت من أهم الدول العربية الإســلامية، إذا مـا اسـتثنينا حكومة الرسول (ص) والخلاقة الراشدة، وكان معاوية مؤسسها الأول بحنكته وإدارته.

انتقال الخلافة إلى الشام ونتائجه:

بعد مقتل الخليفة عثمان، بويع علي بالخلافة وقَبِلها بعد تردد (٥)، وتمّت هــذه البيعة بموافقة معظم المسلمين الأوائل من الصحابة من أهل الحل والعقد، وممن بايعوا الخلفاء الراشدين قبله، وهم المهاجرون والأنصار. وكانت تلك البيعة تفـرض عليــه البقاء في المدينة العاصمة الأولى للدولة العربية الإسلامية، غير أن الأمــور أخـذت تتبدل بسرعة وتتغير، وبدأت جهة الحجاز تضعف بعد أن بدأ التوجه إلـى الأمصـار وبخاصة إلى العراق والشام، وبعد انسحاب طلحة والزبير إلى مكة أولاً ثم خروجـهما إلى البصرة، برفقة السيدة عائشة معلنين مطالبتهم بدم الخليفة، فأجبر الخليفة علي على التوجّه بمعظم قوى الخلافة والعاملين في السياسة والحكم إلى العراق، ليكون قريباً من مصدر الأحداث، كما توجهت القوى العسكرية التي كان الخليفة قد استنفرها لمواجهــة معاوية الذي أعلن العصيان في الشام(٦). هذا إضافة إلى أن قوى الخلافة العسـكرية كانت قد تركزت في الأمصار.

ولسنا الآن في صدد تفاصيل ماحدث، ولكننا نريد أن نقول إن هذه الأحـــداث الكبرى هزَّت الخلافة وكانت من العوامل التي عملت على إضعاف الحجاز وحاضرته الإسلامية الأولى وبدأ دوره بالأفول رويداً رويداً. وعصفت هذه الأحداث العســكرية المتلاحقة بقوة المدينة، وانتقل الصراع السياسي والعسكري إلـــى خــارج الحجــاز، وفرضت الاستراتيجية العسكرية والسياسية الجديدة نقل المعركة إلــى العـراق، ثـم برزت المجابهة بين المكيين والمدنيين في معركة الجمل، وبرزت أكثر فـي معركـة

صفين. وكان معظم أنصار المدينة قد تجمّعوا إلى جانب علي، الذين وجدوا بنصرته "التوجه الإسلامي الصحيح" ووقفت قريش في مكة باستثناء بعض المهاجرين"خلف حركة المعارضة للخلافة، واختار هؤلاء البصرة أولاً" مركزاً" لهم، ونقطة انطلاق لتمردهم، ثم ذابوا بعد معركة الجمل في صفوف معاوية في الشام(٧). ولعل أهم نتائج معركة الجمل خسارة الحجاز مركزه السياسي القيادي، واتخاذ الكوفة العاصمة الثانية للدولة العربية بدلاً من المدينة.

وأسهم معاوية إسهاماً كبيراً في خسارة الحجاز، وذلك بتمركزه في دمشق، وصار يعتقد بأن دور الحجاز السياسي قد بدأ بالأفول، فبدأ يخرجه من حساباته ووضح ذلك بقوله(٨):"كان أهل الحجاز أعلى الناس، في أيديهم الحق، فلما تركوه صار الحق في أيدي أهل الشام". ثم استغل معاوية بعد ذلك إخفاق مشروع التحكيم، والهدنة التي حصلت، والهزة العنيفة التي لحقت بقوات الخلافة، وخروج فئة الخوارج، معلنة شعارها القائل "لا حكم إلا الله"(٩)، فاستفاد من هذه الأحداث جميعاً"، واتجه إلى الأمصار بادئاً "بمصر هادفاً" فكّ الحصار المتربص به وبقواته، وتمكن من فك الحصار المضروب عليه وذلك بإخراج مصر من تبعيتها للخلافة وضمها إلى قبضته. وما إن استقرّت الأمور له في مصر(١٠)، حتى بدأ يتجه صوب الحجاز، حيث أخذ يعمل على النفوذ إليه وضمّه إلى صفه، وطفق يداهمه بإرسال الحملات العسكرية منذ عام ٣٩هـ/٦٥٩م(١١). وانتقل الصراع العسكري بين الخليفة المتمركز في الكوفة، والوالي الخارج عليه في دمشق، وأخذ هذا يوجه الجيوش إلى الحجاز سعياً وراء السيطرة عليه وكسب تأييده، فرده عليه عليّ بحملات معاكسة، واستمر الحال كذلك إلى أن كانت طعنة ابن ملجم المرادي في عام ٤٠هـ/٦٦٠م لعلي بن أبي طالب أثناء نهوضه لصلاته في الفجر، حيث وضع ذلك حداً لبداية النهاية(١٢). وكانت هذه الطعنة الذي طعن بها علي بداية لحسم النزاع، وجاء ذلك لصالح معاوية، وكانت تلك الطعنة مؤلمة للحجازيين أكثر منها للعراقيين حيث تم نقل العاصمة بشكل نهائي إلى الشام. واستمرت دمشق طيلة العصر الأموي حاضرة للدولة العربية الإسلامية في

العصر الأموي. وأدى ذلك إلى نتائج خطيرة أضـرت بالحجـازيين فـي النواحـي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية كافة، حيث انكفأ دور الحجاز بشكل عام والمدينة بشكل خاص، ووضعت في زاوية الإهمال السياسي. ورافق انتقال الخلافة إلى دمشـق الإهمال الواضح للحجاز، وتحوّل جيش الخلافة إلى طبقة خاصة مقاتلة، وأصبـح أداة قمع للثورات الداخلية، وتمتّع بامتيازات كبيرة(١٣)، كما سلب الحجـاز الكثـير مـن خيراته، التي كانت ترد إلى العاصمة، كما خسر كثيراً من تجارته وفقد جزءاً كبـيراً من أهميته التجارية، وذلك بانتعاش الطرق التجارية المتجهة إلى الشرق عن طريـق العراق وخسرت مدنه التجارية كمكة والمدينة أهميتها بعد أن كانت قبلـة الأنظـار، ومركزا للثقل السياسي والتجاري لفترة تزيد على ثلث قرن من الزمن. وعلـى أثـر الإهمال المتعمد لهذا الإقليم حدث فراغ وخلل في الأوضاع الاجتماعية، خاصة بيـن فئات الشباب ونشأ في الحجاز طبقة من الشباب العاطل عن العمل، فمال إلـى حيـاة الدعة واللهو والزينة، كما اتجه بعضهم صوب النواحي الدراسية والبحـوث الدينيـة الإسلامية، فأدى ذلك كله لظهور أول مركز لدراسة علم الحديث. وهكذا نشأ في مكة والمدينة مناخان اجتماعيان متناقضان، فقد كانت الحياة العامة حياة ترف ولهو وغناء، وكانت حياة العلماء الموقوفة على العلم منزوية في الظل لا تكاد تلفت النظر.

ولاية العهد وموقف القوى منها:

شغل مصير الحكم وما ستؤول إليه الدولة معاوية، فعمل بكل طاقته على إيجاد حل لهذه المعضلة قبل موته بما يخدم التوجهات الأموية، و الذي كان أكبر المؤمنيـن بها، والمخططين والمنفذين لها. ولا شك في أنه نظر إلى الماضي القريب وشاهد مـا نزل بالدولة العربية الإسلامية، من فتن وحروب بسبب الحكم، فزاده ذلـك تصميمـا لاختيار من سيخلفه، ولهذا جاء قراره بتوريث الخلافة ربما أمرا طبيعيا وعاديا. وبعـد أن مهدت الأحداث له وجاء كنتيجة طبيعية لتطور الأحداث السياسية والفكر السياسـي في الدولة العربية الإسلامية، وبعد أن توطدت الوراثة في الشام، وصارت الزعامـة فيها للأمويين ابتداء من إمرة(١٤) يزيد بن أبي سفيان، غدا هذا الحق القرشي، وكأنـه

حق طبيعي ويستند لجذور بعيدة، وساندت الفئات التي وقفت إلى جانب معاوية يزيد، وما دعوة المغيرة وطرحه فكرة البيعة أمام يزيد إلا نوع من الاستغلال والاستقراء لما كان يحاك في بيت معاوية. فقد شعر المغيرة بحدوث خلل بعلاقته مع معاوية(١٥)، فأراد أن يحسّن رغبة معاوية التي أظهرها لخاصته، ولم يكن تصرف المغيرة إلا تأكيداً لهذه الرغبة وإخراجها، والعمل على تقبل النفوس لها. وساعدت الفكرة على إعادة الاعتبار للمغيرة فأعيد للكوفة بعد أن كاد عهده على وشك الأفول. وذكر المغيرة لأصحابه بعد ذلك أنه وضع رجل معاوية في غرز بعيد الغاية (١٦)، على أمة محمد "وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً". وقد قام شعراء الدولة الأموية بدورهم الإعلامي وتعبئة جماهير الأمة ومهدوا بذلك لإعلان البيعة(١٧). ومهَّد معاوية لإعلان بيعة يزيد بتهيئته وإظهاره بالمظهر اللائق للمهمة الجديدة، وبالتريث الذي نصح به "زياد ابن أبيه". وضمن هذا التوجه، أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس الحملة العسكرية الكبيرة التي أرسلت لفتح القسطنطينية في عام ٤٩هـ/٦٦٩م(١٨)، لإظهاره كقائد عسكري جدير بما يخططه له، وأخذ يزيد بعد ذلك يشترك في الصوائف وتحمل المسؤوليات العسكرية والإدارية. وضمن هذا المسار أُمّر يزيد على الحج في سنة ٥١هـ/٦٧١م، ولما حان الوقت أعلن معاوية البيعة ليزيد في عام ٥٦هـ/٦٧٥م(١٩).

ولقد باركت دمشق هذا العمل، ولعب كل من الضحاك بن قيس، زعيم القيسية والكلبيين "أخوال يزيد" دوراً مهماً في التبشير بهذه الفكرة بين القبائل العربية. وكان المغيرة قد تمكن بالدهاء والمال والحنكة من استمالة الناس وأخذ بيعتهم في الكوفة(٢٠). لكنَّ المعارضة الكبيرة، كانت في الحجاز حيث امتنعت وفودها عن الحضور إلى دمشق لتقديم المباركة والبيعة. (٢١) وفشل مروان بن الحكم في إقناع زعامة الحجاز ممثلة بالخمسة الكبار أبناء الصحابة وهم: "الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس" وهؤلاء يمثلون التراث الراشدي، ويحملون في أفئدتهم معاناة الحجاز، لاسيما العاصمة الأولى التي رغبت بإعادة مجدها الغابر، ووجد أبناؤها هؤلاء في أنفسهم

الحق بالخلافة فيما لو عادت الأمور إلى الشورى، وظهر ردهم بكلمة عبد الرحمن بن أبي بكر الذي حمل بجرأة على "هرقلية" الخلافة(٢٢). وانتصرت عائشة له وخرجت إلى المسجد تصحبها بعض نساء قريش، وكان لهذا الخروج الأثر الكبير على صعيد الحملة العدائية ضد الأمويين في المدينة(٢٣)، لهذا اضطر معاوية إلى الخروج إلى الحجاز بنفسه على رأس قوة عسكرية كبيرة عازما على أن يواجه التحدي بالعنف وظهر موقفه في الحوار الذي جرى مع السيدة عائشة التي طلبت منه الرفق والتأني (٢٤)، بعد أن رأته يخرج عن سلوكه المعهود.

وفي المدينة ألقى معاوية خطبته في المسجد (٢٥)، وأشاد فيها بفضائل يزيد، محاولا إقناع الحجازيين بالحسنى، وقد تغيب عن حضورها زعماء المدينة الذين تركوها إلى مكة، معلنين بذلك تصعيد معارضتهم. فما كان من معاوية إلا أن تبعهم واجتمع بكل منهم على انفراد، محاولا شق جبهتهم وتفريقهم (٢٦)، واستخدم معهم جميع وسائل الصبر والمداهنة، محاولا بذل الأعطيات والأموال التي لم تعط أكلها (٢٧). وأصر هؤلاء على موقفهم واختاروا ابن الزبير للتحدث عنهم، فاتهم معاوية بالخروج عن سنة الأوائل، وطعن بشكل غير مباشر بالخلافة الأموية وطلب من معاوية اعتماد سنة الرسول (ص) والخلفاء الراشدين الأربعة في موضوع الخلافة، وركز ابن الزبير لإعادة الاعتبار للحجاز الذي فقد دوره المركزي وانتقدوا جميعا "انفراد فرع واحد من قريش بوراثة الخلافة (٢٨)، وأعلنوا تمسكهم بمبدأ السقيفة الذي يعارض مبدأ ولاية العهد في الأساس. ويظهر أن هذا الرهط من قريش كان يدافع عن مصالح الأكثرية في قريش ضد الأقلية التي استأثرت بالسلطة، وارتبطت مصالحهم بمصلحة الدولة العامة التي سيكون الحجاز مركزها الرئيسي كما كانوا يتصورون، ولهذا عملوا على استعادة مركزه الأول وتأكيد دوره وأحقيته. ولن نستفيد كثيرا" إذا ما أعدنا إلى الأذهان الروايات التي تتحدث عن الطريقة التي استخدمها (٢٩)، معاوية في بيعة يزيد، وسواء تم اعتراف أبناء الصحابة بولاية العهد قسرا "في مكة استنادا" إلى روايات متعددة تتفق مع ما جاء في الطبري(٣٠)، أو أنها جاءت

بوساطة الوالي الأموي مروان بن الحكم، فإنه من المؤكد أن الحجاز غاب عن البيعة الرسمية التي حدثت في نهاية عهد معاوية والتي شارك فيها الولاة ورؤساء القبائل والوفود من الأمصار، من العراق (٣١)، وغيرها، وكان ذلك تحدياً كبيراً للدولة الأموية، واحتجاجاً صارخاً لمبدأ ولاية العهد الأموي. ولهذا لا نستغرب أن يكون معاوية، وهو الذي أقام دولته بالقوة معتمداً على قوة العصبية والمال والسلاح، في اتباع منهجه هذا في مسألة هامة وخطيرة وشغلت تفكيره (٣٢)، (مستخدماً القوة بأسلوب محكم، دون أن يتمكن أحد من المعارضة خوفاً من القتل)(٣٣)، ولم يكن هؤلاء النفر بنفس الصلابة في خصومتهم للأمويين (٣٤)، وتطورت الأحداث فدفعت كلاً من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير إلى المنافسة الجديدة والتطرف في التصدي للأمويين، وهما اللذان كان معاوية يتوجس منهما شراً على دولته وخليفته، وظهر ذلك في وصيته لابنه يزيد وهو على فراش الموت (٣٥)، ولهذا لا نستغرب أن تتفجر الأحداث المؤجلة بعد موت معاوية.

دور القوى السياسية في الأحداث الكبرى في عهد يزيد الأول:

١- ثورة الحسين:

مات معاوية سنة ٦٠هـ/٦٨٠م وتولى ابنه يزيد الخلافة، بعد أن مهد له أبوه الأرض وروّض الناس على إطاعة ولي عهده. وكان على المدينة آنئذ (الوليد بن عتبة بن أبي سفيان) وعلى مكة (عمرو بن سعيد بن العاص (٣٦)، وكان يشغل بال يزيد بيعة الحجاز له، لهذا كتب إلى واليه على المدينة)(٣٧).

"أما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر–وعبد الله بن زبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام". ولم يأخذ الوليد بكتاب الخليفة ولا بنصيحة مروان بن الحكم أحد أبرز رجالات الأسرة الأموية في الحجاز، والذي أشار عليه بسرعة أخذ البيعة منهم أو ضرب أعناقهم بدون تردد قبل أن يعلم هؤلاء بموت

معاوية (٣٨). وقد تمكن الحسين وابن الزبير من مغادرة المدينة إلى مكة (٣٩)، وتضايق يزيد من والي المدينة فعزله وولى عليها «عمرو بن سعيد العاص (الأشدق)». ولم يكد الحسين يصل إلى مكة حتى جاءته رسل كثيرة من الشيعة في الكوفة تحثه على القدوم إليهم معلنة ولاءها التام وبيعتها له ورفضها لخلافة يزيد (٤٠). وكان الحسين آنئذ قد غدا بطل المرحلة وكان محبوبا في مكة، ونصح بعدم الذهاب إلى الكوفة، وذكر بما فعله أهلها بأبيه وأخيه، واقترح عليه (عبد الله بن عباس) إذا كان لا بد من ذهابه إلى الكوفة أن يكون ذلك بعد طرد الوالي الأموي فيها وإعلان أهلها الثورة، كما اقترح عليه الذهاب إلى اليمن إذا وجد بقاءه في مكة يشكل خطورة عليه من الولاة (٤١) الأمويين. وفي المقابل كان ابن الزبير يحثه على الذهاب إلى الكوفة آملا في التخلص منه، لأنه منافسه الوحيد، ولا مطلب له بالخلافة في وجوده (٤٢). غير أن خروج الحسين إلى العراق أصبح أمرا مؤكدا فرضته طبيعة الظروف والأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقائدية، ويستدل على كثرة أنصاره في الكوفة من كثرة رسائلهم والتي علق عليها الدينوري، بقوله إنها «ملأت خرجين» (٤٣). وربما أدرك الحسين أن الأمويين لن يتركوه وشأنه، وكان خروجه منسجما بما يؤمن. وما يهمنا من ثورة الحسين أنها في الأساس ثورة حجازية الأهداف والتوجه انطلقت من الحجاز مناوئة للحكم الأموي، وهي وإن دارت رحاها وأحداثها في العراق، فذلك لأن الحجاز والعراق كانا ينظران إلى الحكم الأموي بمنظار المعارض لتوجيهاته الدينية والدنيوية. فمن الناحية الدينية، كان البلدان يعتبران انتصار معاوية، ومن ثم بيعة يزيد هزيمة للمثل والمبادئ السلفية الأصلية، وضربة كبيرة للشورى، وخروجا عن سيرة الأوائل، ونجاحا للحنكة السياسية المدعمة بالتجربة والمال. وشعر المسلمون الخلص في الحجاز والعراق أن هذا التحول هو انتصار لبني أمية ممثلة للأرستقراطية القرشية، كما كان ذلك هزيمة للجهود التي بذلت للحد من طغيان التسلط القرشي الرأسمالي، وهزيمة لتعاليم الإسلام وحربه للاستغلال والظلم (٤٤). كما أن الحجاز والعراق فقدا الخلافة ومركز الحكم، وبيت المال والثقل المادي والاقتصادي، وتوجه الصناع ورجالات الخبرة والكفاءات والشعراء إلى العاصمة

دمشق، وهذا أمر طبيعي وهذه الأسباب وسواها مجتمعة كانت أم متفرقة، كان لها الوقع الحساس على المجتمع العربي الإسلامي الذي شكل قسم كبير منه تياراً قوياً ضد السياسة الأموية. والتقت المعارضة العراقية بالحجازية في موقفها المعادي للحكم الأموي، إلاّ أنها لم تكن منسجمة أو متفاهمة في أسلوب العمل السياسي. ولهذا رغم كثرة الحركات والثورات ضد الحكم الأموي، كان الفشل مصير جميع هذه الثورات ابتداءً بثورة الحسين ومأساة كربلاء، إلى حركة التوابين، وثورة المختار الثقفي، في العراق، إلى ثورة المدينة، وموقعة الحرة، وأخيراً إلى تمرد ابن الزبير، الذي هزّ تصرفه الكيان الأموي. غير أن الثورات لم تحقق الآمال التي قامت من أجلها، ولقد تعاظم التيار المؤيد لبني هاشم منذ انتقال الزعامة في هذا البيت إلى الحسين، اثر الحادث الأليم الذي ألمّ بالحسن في المدينة ووفاته في ظروف غير طبيعية عام ٤٩هـ/٦٦٩ م. وتشير بعض الروايات إلى أن معاوية ربما كان وراء ذلك، حيث قام بتحريض ودفع زوجة الحسن«جعدة بنت الأشعث» ودفعها إلى وضع السم في الطعام، ووعدها بالزواج من ولده يزيد فدست له السم (٤٥). وهكذا تخلص معاوية من منافسه الأول في الخلافة وأزاحه من أمام مخططاته البعيدة، حيث يبدو أنه كان بين الرجلين عهود ومواثيق تنص على أن تكون الخلافة لمعاوية ما دام حياً فإذا مات فالأمر للحسن. وهناك روايات تقول بترك الأمر شورى بين المسلمين (٤٦) بعد معاوية. وقد زاد الحسين حنقاً وتصدى لمعاوية بشأن ولاية العهد كما جابه والي المدينة (٤٧)، عندما استدعاه لمبايعة يزيد بعد موت معاوية وهي مواقف تنسجم مع الاتجاه المعارض في الكوفة والذي كان قادته على اتصال دائم بالحسين، بقيادة زعيمه «سليمان بن صرد» (٤٨)، سيد أهل العراق ورأسهم. ولهذا كان خروج الحسين من الحجاز أمراً طبيعياً، وقد استخدم يزيد ما في وسعه.لمنعه من الخروج، حيث كتب إلى «ابن عباس» يطلب منه التدخل لمنع الحسين من الذهاب إلى الكوفة. كما بذل كل من عبد الله ابن جعفر ووالي يزيد على مكة «عمرو بن سعيد الأشدق» جهوداً كبيرة لثنيه عن عزمه (٤٩)، لكن هذه الجهود لم تجد نفعاً لإيقاف الحسين عن هدفه الذي آمن به وخرج من أجله، لأنه كان يرى أنه لا مناص له من ذلك التحرك في وقت أصبحت

الدولة فيه بأيدي من لا يؤمنون عليها، وكان الحسين قد وجه ابن عمه «مسلم بن عقيل» إلى الكوفة مستطلعا وممهدا له السبيل (٥٠)، فكتب له بمبايعة ثمانية عشر ألفا من أهلها وشجعه على النهوض، غير أنه كان لعزل الوالي الأنصاري «النعمان بن بشير» وتعيين «عبيد الله بن زياد» (٥١)، الثقفي في تلك المرحلة، الأثر الواضح في مهمة «مسلم » فجد في ملاحقته وأنصاره مستخدما المال والتهديد، وأخيرا تمكن من إلقاء القبض عليه وقتله. وقد وافت الحسين الأخبار بمقتل «مسلم» وانقلاب الموقف ضده وهو في القادسية، في حين كانت القوات الأموية بقيادة «عمر بن سعد بن أبي وقاص» تتقدم باتجاهه لاعتراضه وإلقاء القبض عليه وعلى جماعته، الذين لم يتجاوزوا التسعين، ما بين رجل وطفل وامرأة». ولم تمكن القوات الأموية الحسين من الوصول إلى الكوفة، وأجبرته على التوقف في كربلاء، حيث قاتل بظروف غير متكافئة وفضل الشهادة على الاستسلام الذي عرض عليه. وأظهر الحسين بطولة نادرة، واستشهد مع جميع أصحابه (٥٢). وقد دل خروجه إلى العراق في رأي بعض المؤرخين المحدثين، على ضعف تقديراته وعلى اطمئنانه إلى أهل العراق الذين خالفوا أباه قبلا.

هكذا فشلت هذه الثورة، التي كانت إحدى ردات الفعل الطبيعية العنيفة في الحجاز ضد الحكم الأموي، لإخراجه من دائرة القيادة والنفوذ. لكن إخفاق هذه الثورة لم يؤد إلى إضعاف التوجه المعارض، كما اعتقد الأمويون عند إبادتهم لزعمائه في كربلاء، بل على العكس من ذلك، كان من أولى نتائج كربلاء أنها كانت نقطة تحول أساسية في تطور التشيع، كما نبهت ثورة الحسين، الأكثرية المكرهة على الصمت إلى إعلان ثورتها ونقمتها،وبدا ذلك في ثورة التوابين. وكانت حركة الأكثرية المكرهة على الصمت إلى إعلان ثورتها ونقمتها وبدا ذلك في ثورة التوابين، وكانت حركة الحسين باكورة ثورات هزت النظام الأموي من أساسه وجعلته يعيش اضطرابات متلاحقة، وعجلت بالثورة في المدينة، وأججت النقمة على الأمويين، وكانت إحدى المحاولات الأولى التي ظهر فيها المطلب السياسي الحجازي الرامي إلى استعادة

الخلافة من الشام، كما أن فشلها كان أيضاً فشلاً للعراق في إعادة دوره السياسي الذي تطلّع إليه، وأدى كل ذلك إلى أن يصبح الحجاز محور المعارضة للحكم الأموي خلال السنوات التالية.

٢-ثورة المدينة:

ظهر ارتباك الحكم الأموي في عهد يزيد، من خلال الاضطراب الذي حدث في إدارة المدينة وتذبذب ولاتها وتغيرهم باستمرار (٥٣). فسرعان ما تضايق يزيد من تساهل واليه على المدينة مع الحسين وابن الزبير، فعزله وعين مكانه «عمرو بن سعيد بن العاص» الملقب بالأشدق، في رمضان من سنة ٦٠هـ/تموز ٦٨٠م(٥٤).

لكن هذا الوالي لم يتمكن من أخذ البيعة ليزيد، ولم تستقر الأحوال في المدينة. واستمرت النقمة على بني أمية والتحق بعض أهلها بابن الزبير، وفشلت الحملة التي وجهها الوالي إلى مكة وأسر قائدها «عمرو بن الزبير». ونتيجة لفشل الأشدق في القضاء على ابن الزبير نقم عليه يزيد وعزله وأعاد الوليد ابن عتبة، معتقداً أنه يتمكن من تهدئة الأمور (٥٥). غير أن الوضع ازداد تدهوراً وفشل الوليد للمرة الثانية في إقرار الهدوء، واجتمع في الحج لهذه السنة ثلاثة أمراء: الوليد، وابن الزبير، ثم نجدة بن عامر الحنفي «الخارجي». (٥٦)، ويبدو أن ابن الزبير تضايق من قبضة الوليد بن عتبة على مكة فكتب إلى يزيد يستعديه على الوليد ويتهمه بسوء الإدارة، ويأمل في تغييره أن تتحسن الأمور، ولهذا فقد أقدم يزيد على خلعه وعيّن عوضه «عثمان بن محمد بن أبي سفيان» وكان هذا فتىً غِراً حدثاً لم يجرب الأمور ولم تحنكه الأيام، ولم تضرسه التجارب (٥٧). ويظهر أن سوء إدارته وقصور إدراكه أديا إلى تفجير الثورة في المدينة التي كانت دوافعها كثيرة، وأهمها كره الأنصار للحكم الأموي عامةً ويزيد خاصةً، والذي أخرج المدينة من دائرة النفوذ والقيادة السياسية والدينية، وجعلها تعيش في الظل وتفقد إمكاناتها المادية وتصبح في ضائقة اقتصادية واضحة، لم يكن بالإمكان السكوت عنها أو تجاوزها. وظهر تذمر الأنصار وشكواهم، إثر الحوار الذي حدث

بين يزيد وعبد الله بن جعفر الذي قدم وسيطاً بينهم وبين يزيد، وبدا في قول يزيد (٥٨)، «فإن أقروا بالطاعة ونزعوا عن غيهم وخلالهم فلهم عليّ عهد الله وميثاقه أن لهم عطائين في كل عام ما لا أفعله بأحد من الناس طول حياتي، عطاء في الشتاء، وعطاء في الصيف، ولهم عليّ أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا، والعطاء الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو علي أن أخرجه لهم وافراً كاملاً فإن أنابوا وقبلوا ذلك جاوزوا (أي الجيوش) إلى ابن الزبير، وأن أبوا قاتلهم ثم أن ظفرت بها أنهبها ثلاثاً هذا عهدي إلى صاحب جيش لمكانك ولطلبتك فيهم».

ومن تتّبع أحداث معركة الحرة عند الطبري وغيره، نلحظ شدة المعارك والحماسة المتبادلة بين جند الشام بقيادة مسلم بن عقبة المُرّي، وجند المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة الغسيل (٥٩)، وهذا ما يدفعنا إلى البحث العميق حول الأسباب الحقيقية لهذه المعركة التي ألهبت حماسة الطرفين المتنازعين. ولا بد من أن تكون المطالب السياسية قد ارتبطت بالمطالب الإجتماعية، وبالتغيير الإقتصادي الذي أدى إلى عمق الخلاف. ولعل المشكلة الإقتصادية للمدينة تعود في بداياتها إلى أيام الرسول (ص)، عندما دفعت الظروف إلى استملاك المهاجرين للأراضي الزراعية في المدينة بطرق متنوعة بالشراء أو بالإقطاع (٦٠). وأصبح للكثيرين من الصحابة كالزبير، وعلي، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم أملاك في المدينة وجوارها (٦١). لكن الأمويين أكثروا من الإهتمام بالأراضي واستملاكها في عهد الخليفة عثمان، وزاد استملاكها في عهد معاوية، مما تسبب في وجود نوع من الإستياء العام لدى سكان أهل المدينة. ويظهر أن سياسة عثمان وفتح الباب على مصراعيه أمام الأسرة الأموية، كان بداية الأزمة الإقتصادية، وبالتالي فقد فرضت الظروف المادية السيئة على أنصار المدينة بيع ممتلكاتهم لأصحاب السلطة والثراء. وربما يكون الوضع الإقتصادي المتدهور الذي وصل إليه الأنصار هو الدافع وراء موقفهم من أزمة عثمان، وعدم المبالاة في محنته. فلم يقوموا بأي عمل إيجابي للدفاع عنه (٦٢). ولقد شعر الخليفة علي بوضع فقراء المدينة، ولهذا بادر بتقديم صدقة ضيعتين لهم وهما

(عين أبي نيزر، والبغيبة) لهؤلاء الفقراء على أن يستثمروها طالما لا يحتاجها الحسن والحسين فهما طلق لهما وليس لأحد غيرهما (٦٣). ويبدو أن أفراد الأسرة الحاكمة استغلوا أموالهم في شراء الأراضي الزراعية والعقارات وتمكنوا بظروف استثنائية وتحت ضغط الأحوال السيئة من القيام بعمليات شراء الأراضي بأسعار رمزية. وتم انتقال هذه الأراضي إليهم بصورة ما، وعلى مر الأيام شعر الأنصار بالغبن (٦٤)، ولهذا لا نستغرب أن يحاول هؤلاء استعادة حقوقهم في فترة بيعة يزيد. وهناك روايات توضح استملاك هذه الأراضي والإقطاعات بأثمان بخسة، لعل أوضحها ما ورد في الحوار الحاصل بين أهالي المدينة والوالي «عثمان بن محمد » وقولهم: « قد علمت أن هذه الأموال والمقصود هنا الأراضي كلها كانت لنا وأن معاوية آثر علينا في عطائنا ولم يعطنا قط درهماً» فما فوقه، حتى أمضنا الزمان ونالتنا المجاعة، فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها» (٦٥). وهذا الأمر وغيره وضع الأنصار في دائرة التبعية السياسية والإقتصادية للدولة. وهناك بعض النصوص التي تقدم لنا إحصائيات عن بعض الممتلكات الأموية وتبين اهتمام معاوية، خاصة بالأرض وتحسين إنتاجها (٦٦)، وتوضح أن معاوية كان يجد بالمدينة وأعراضها ألف وسق (٦٧)، وخمسين ألف وسق تمراً، ويحصد مئة ألف وسق حنطة (٦٨)، هذا بالإضافة لصوافيه الكثيرة في المدينة (٦٩).

ومن هنا لا بد من أن تكون هناك علاقة كبيرة بين السيطرة الأموية الإقتصادية على أهالي المدينة، وثورة هؤلاء على هذا الواقع المؤلم. ولعل ذلك يفسر شراسة الموقف العدائي الذي اتخذه كلا الفريقين في قتاله ضد الآخر. ومن هنا يمكن أن نقرر بأن مسألة الصراع بين الحجازيين وبخاصة الأنصار منهم، والأمويين في الشام هي قضية تم فيها دمج المبادئ والقيم بقضايا مصلحية، متصلة بالجور وبالواقع الإقتصادي الإجتماعي للحجاز عامة والأنصار خاصة، وما آلت إليه الأمور من خسارة هؤلاء وكسب كبير للأمويين وأتباعهم.

إذاً فثورة المدينة استهدفت إسقاط الحكم الأموي ورفضه، وانطلقت من أسباب متعددة وأسهمت الأمور الإقتصادية كما أوضحت مصادر متعددة بدور بارز فيها. فقد جاء في المحن (٧٠)، «أن أول ما هاج أمر الحرة عامل معاوية على الصوافي وممثله على ممتلكاته في المدينة، ومعارضة أهالي المدينة للوالي عثمان الذي حاول الوقوف إلى جانب ابن مينا في تصديه لهؤلاء الناس الذين منعوه من حمل ما كان يحمله كل سنة من تلك الصوافي من الحنطة والتمر ومنع أهل المدينة له من ذلك». ولم يكن الوالي عثمان بعيد النظر، ولم يسهم في حل الأزمة، بل عمل على تأزمها وأسهم بقسط كبير في تفجيرها وإعلان الثورة ومن ثم تمّ إخراجه وإخراج الأمويين من المدينة بالقوة (٧١). ويذكر صاحب المحن «فأخرجوا آل مروان من بني أمية ولم يحكروا أحداً من آل عثمان». وزاد الأمر تعقيداً محاولة عامل الصوافي ابن مينا استقطاع أراضي جديدة في عهد يزيد مستهدفاً جماعة بلحارث الخزرجي (٧٢). ولعل الروايات المتعددة (٧٣)، التي جاءت عند اليعقوبي وابن قتيبة، تؤكد ارتباط الثورة بمسألة الأراضي، وهناك نص ورد عن السمهوري أكثر تفصيلاً ووضوحاً في الربط بين دوافع الثورة ومسألة الأراضي المفقودة، غير أن ما ورد في المحن لأبي العرب لا يدع مجالاً للشك بأهمية النواحي الإقتصادية. ويبيّن صاحب المحن أن محدثيه جميعاً اجمعوا على أهمية هذه النواحي الإقتصادية في إشعال نار الثورة (٧٤). وهكذا فإن عملية استملاك الأرض في المدينة كانت أشبه ما تكون بنظام المصادرة، وذلك تحت توجه إصطفائها للدولة ممثلة بالأسرة السفيانية الحاكمة».

وأدى سوء الأوضاع الإقتصادية في المدينة إلى إهمال الأرض الزراعية، ولم يعد أصحابها قادرين على استثمارها والإعتناء بها، فاضطروا إلى بيعها تفادياً للخسائر التي تلحق بهم بسبب قلة إنتاجها الزراعي. وقد يكون مرد ذلك قلة الأيدي العاملة ولا سيما الأيدي الفتية التي خرجت مع الفتوح، ثم ما كان من سياسة شراء الأراضي للأمويين إلى إقطاع الأراضي، وإلى سياسة المضاربة، وطغيان القطاعات العسكرية والإدارية إلى حياة الهزيمة التي عاشتها المدينة إثر تنازل الحسن، ومن ثم سياسة

الأمويين نحو هذا الإقليم، وتحديداً تجاه الأنصار وإهمالهم سياسياً واقتصادياً، ولا سيما في الأيام الأولى من حكم معاوية. ولعل في الحوار الذي بين يزيد وعبد الله بن جعفر (٧٥)، يدلنا على ملامح السياسة الأموية الإقتصادية تجاه الحجاز والوضع المادي للأكثرية من أهالي المدينة. هذا الوضع الذي أدى بهم إلى الشعور بعدم الإستقرار وبافتقار السيادة على أرضهم، وغدت أراضيهم بنظرهم ملكاً غير مشروع للأمويين، تم في ظروف قاهرة.

وها هنا الآن الفرصة سانحة لهم بعهد يزيد، ولهذا قاموا مطالبين باستعادة حقوقهم السياسية والإقتصادية، ولعل هذا التلاحم القوي بين المطلب السياسي والإقتصادي لأهل المدينة وكذلك للأمويين يوضح ويفسّر عنف القتال في الحرة بين الطرفين (٧٦).

كما كان لثورة الحسين ومأساة كربلاء صدى عنيف في المدينة وتأجج الحماسة ضد الأمويين، وزاد الإستياء، قيام الهاشميات من أقارب الحسين بالنهوض حاسرات في أحياء المدينة (٧٧)، وساهمن في التحريض ونزع قناع الخوف والتعجيل في الثورة ضد الأمويين. ومما يلفت الإنتباه أن التعاون بين ثورة المدينة وقيام ابن الزبير في، مكة على الرغم من اتفاق الموقف السياسي والمعاناة المشتركة بين المدينتين، لم يكن واضحاً، وتجاهل كل منهما الآخر، أو على الأقل لم يكن التعاون بينهما كما يجب وربما يتحمل ابن الزبير وزر ذلك ويعد من جملة أخطائه العديدة التي أضعفت الجبهة الحجازية بشكل عام وأدت إلى إخفاق كل منهما (٧٨)، على انفراد. وقد حاول يزيد جاهداً بأن لا يتم اللقاء بين الثورتين، كما حرص على أن يلتف على الأنصار ويمنع قيامهم عليه، ولهذا قام بمبادرات متعددة كان منها الإيعاز لواليه على المدينة «عثمان بن محمد» أن يقوم بإرسال وفد من المدينة إلى دمشق ليشرح هناك وجهة نظرهم وبالمقابل يقوم الخليفة باستمالتهم وإرضائهم. وتشكّل الوفد وكان يمثل الزعامات الرئيسية في المدينة من مهاجرين وأنصار وقرشيين. (٧٩)، وقد مثل المهاجرين المنذر بن الزبير، والأنصار عبد الله بن حنظلة الغسيل، أما قريش فقد مثلها عبد الله

بن عمر. وأكرم يزيد وفدتهم وأعظم عطاءاتهم ووصل كلاً منهم بخمسين ألف درهم، وضاعف للمنذر المبلغ هادفاً من وراء ذلك شق الأسرة الزبيرية، كما أوفد يزيد الزعيم الأنصاري النعمان بن بشير «إلى الحجاز للاتصال بالأنصار ومفاوضتهم» (٨٠)، لكنه لم يتمكن من تحييدهم. كما فشلت محاولته مع ابن الزبير ولم يتمكن من إقناعه بالعدول عن ثورته (٨١)، ويدخل ضمن هذا التوجه أيضاً وساطة عبد الله بن جعفر بين يزيد وأهالي المدينة والحوار الذي أشرنا إليه سابقاً (٨٢)، ولم تفلح كافة التوجهات الأموية بهذا الخصوص.

وأعلنت الثورة في المدينة بهدف إسقاط الحكم الأموي والدعوة إلى الشورى. وظهرت الزعامات الرئيسية الثلاث التقليدية في المدينة (٨٣)، الأنصار برئاسة عبد الله بن حنظلة الغسيل، المهاجرون بزعامة معقل بن سنان الأشجعي، وترأس القرشيين عبد الله بن مطيع. وتم اختيار الزعيم الأنصاري قائداً أعلى للثورة، وربما بويع كذلك بالخلافة في المدينة (٨٤). وبدأت الثورة بخلع يزيد ومهاجمة الأمويين في دار شيخهم مروان بن الحكم، وقرّر الثوار إخراج الأمويين وطردهم من المدينة، بعد أن أخذوا عليهم العهود بعدم اشتراكهم في القتال ضدهم، أو التحدث عن أوضاعهم وكشف عوراتهم. وخرج هؤلاء وكانوا بحدود ٨٥ ألف رجل. ولم يكن خروجهم لصالح الثوار في المدينة، إلاّ أنه كان إجراء لا بد منه. ولم يلتزم هؤلاء بوعدهم، فقد قدم عبد الملك بن مروان معلومات دقيقة عن وضع المدينة وقوات الثورة فيها وكشف نقاط الضعف فيها (٨٦)، للقائد الأموي «مسلم بن عقبة المري»، الذي اختير لقيادة الجيوش الشامية وهو غير حجازي. وتم اختياره بخطة مقصودة، ويقال بنصيحة من معاوية (٨٧)، قبل موته. ولم يكن من السهل تجهيز هذه الحملة واختيار من يقوم بتنفيذ ما هو مطلوب منه من تدمير وضرب وإباحة لأهم مدينتين ومكانين في العالم العربي والإسلامي، ولهذا قام يزيد بحثّ الناس وتحريضهم وإغرائهم، ودفع لهم أعطيات عالية (٨٨)، ومساعدات مالية إضافية بغية إقناعهم وتشجيعهم على الخروج والقتال، وتمكّن من استنفار اثني عشر ألف مقاتل وكانوا يمثلون صفوة المقاتلين والمتدربين

على القتال والإقتحام في الجيش الشامي (٨٩)، الذي دربّه معاوية وقاتل به في معارك داخلية وخارجية. وجمع يزيد وقائده «مسلم» الحزم على المدينة وظهر ذلك في شدة القتال والعنف الذي استعمله الجيش الشامي حتى مع الصحابة والتابعين والعلماء ورجال الدين (٩٠)، وممن لم يتورطوا في الثورة. وربما كان للخيانة التي ظهرت أثناء القتال، والثغرة التي أحدثها مروان بن الحكم في صفوف الثوار، وذلك بإغرائه أحد أبناء بني حارثة وقيامه بفتح ثغرة في دفاعات أهل المدينة، أثر في إضعاف الجبهة الداخلية من جهة، وسرعة تحطيم المعنويات وبالتالي إنهاء القتال لصالح جند الشام (٩٢)، بسرعة مثيرة للشك، مما لا ينسجم مع الحماسة والإيمان لهؤلاء الثوار في المدينة.

وكان من نتائج معركة الحرة الأولية مقتل الكثيرين، وقد اختلفت الروايات حول تحديد أعداد القتلى. فهناك من ذكر سبع مئة رجل وأكثر سوى من قتل من الأنصار وسائرهم وقيل بلغوا عشرة آلاف (٩٣)، وهناك من أورد أرقاماً أخرى أقل أو أكثر، وأوردت بعض الروايات بأنه قتل يوم الحرة ثمانون من أصحاب النبي (ص) (٩٤)، ولم يبق بعد ذلك بدريّ، وقيل قتل من حملة القرآن فيها سبع مئة رجلى (٩٥)، ومما تؤكده قوائم القتلى الإجماع الذي شهدته المدينة ضد الأمويين، وإسهام كافة القوى السياسية والإتجاهات القبلية على اختلافها في هذه المعركة. كما ظهر تكتل قريش بغالبيتها المطلقة ضد الأمويين (٩٦)، في هذه الثورة الحجازية التي كانت المدينة فيها مهابة الجانب، ينظر إليها الجميع باحترام وقدسية. ولعل من أهم نتائج الحرة جرأة الناس على المدينة وفقدانها تلك الهالة التي كانت تحيط بها وتحميها (٩٧). وكانت هذه المعركة تشبه إلى حد ما معركة كربلاء من حيثِ الإيمان والإندفاع، والإنتقام، ثم كانت إباحة المدينة لمدة ثلاثة أيام حسب تعليمات يزيد، وما رافق ذلك من قتل ونهب وسلب للحريات وانتهاك للحرمات بعد المعركة والتسليم القسري، أكبر خطر على أهلها من القتال في الحرب (٩٨). وموقعة الحرة تمثل عمق الصراع وذروة النضال على السلطة والنفوذ بين مكة والمدينة بالحجاز والشام، وأدت هذه المعركة إلى

الإحباط في صفوف أهل المدينة وضرب معنوياتهم وإنهاء دورهم السياسي وتحجيمهم، وأبعدوا عن القيادة وخسروا كثيرا ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك، كما علق على ذلك كثير من المؤرخين والعلماء القدامى والمحدثين (٩٩). لكن الحرة عملت من ناحية أخرى على تمهيد الطريق لإبن الزبير وساعدته في تقديم الدعم وكانت أحد عوامل نجاح ثورته إلى حين.

وضعفت القوة العسكرية للمدينة، وتفرق ثوارها فمال الناس فيها إلى النواحي الفنية والدينية والعلمية. ولقد وصف القائد الشامي الذي أصبح يعرف بالمسرف وضع المدينة بتقريره العسكري الموجز للخليفة يزيد بقوله (١٠٠):«وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرافهم واتبعنا مدبرهم، وأجهزنا على جريحهم وانتهبناهم ثلاثا كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره».

٣-ثورة ابن الزبير ومعطياتها:

بعد مقتل الحسين، دعا ابن الزبير لنفسه وبايعه الناس، وكان يدرك أنه لا أمل له بالخلافة مع وجود الحسين في مكة، لهذا فقد شجعه بقوله:(١٠١)«أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها» وعقّب الحسين على كلام ابن الزبير بقوله:(١٠٢)«ها إن هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحبب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء وأن الناس لم يعدلوه بي، فود أني خرجت منها لتخلو له» ولقد استغل ابن الزبير مأساة كربلاء وأخذ يشنع بأهل الكوفة ويهاجم الأمويين ويعرض بيزيد (١٠٣). ويبدو أنه أصبح بطل الحجاز بلا منازع (١٠٤)، والأحق بالخلافة بعد استشهاد الحسين وبعد مأساة المدينة، ولهذا اعتبر نفسه ولي الحسين والمطالب بدمه معيدا إلى الأذهان ما ادعاه معاوية يوم مقتل عثمان. وطغت على شخصية ابن الزبير الجوانب العسكرية على السياسية، ولم يكن بعيد النظر، غير أنه اشترك في معارك كثيرة في العهد الراشدي وظهر موقفه المتصلب في حرب الجمل (١٠٥).

قامت أسس دعوة ابن الزبير على المطالب السياسية والإقتصادية للحجاز باستعادة دور الحجاز الراشدي، ولهذا طمع بالخلافة وعمل على استعادة الإعتبار لتيار المهاجرين واعتقد أنه بإمكانه إحياء التيار المعتدل في قريش الفاصل بين الهاشميين والأمويين. وحاول أن يربط بشخصه تآلف الجمع من الحجازيين. ولكن ابن الزبير أخطأ إذ لم يتعامل مع المعطيات الجديدة والتطور الذي حدث للدولة العربية والمجتمع الإسلامي ولم يلتصق بالأنصار، وخاصة بالعراق الذي ابتعد عنه. وربما كان خياره الأفضل والوحيد لنجاح ثورته باعتباره العدو العنيد ضد الأمويين، مدفوعا من وراء هذا الإبتعاد بحجازيته المفرطة بالتعصب لها، وإيمانه المطلق بعودة قيادتها، مدفوعا بالتأكيد الذي حظي به في الحجاز أكثر من سواها، نظرا لإعتباره أحد أبناء الصحابة البارزين. وظهر تشككه بموقف أهل العراق واتهامهم بأنهم ليسوا بأهل ثقة وأعاد إلى الأذهان مواقفهم المترددة مع علي ومن ثم الحسن والحسين، وشكلت هذه المواقف مصدر قلق له، ونقمة عليهم، وأعلن موقفه حيالهم بعد بيعته وهاجمهم بخطبه واصفهم بقوله (١٠٦):«بأنهم/غدر فجر إلا قليلا، وأن أهل الكوفة شرار أهل العراق، وأنهم دعوا حسينا لينصروه عليهم؛ فلما قدم عليهم ثاروا (عليه)...وجاء في خطبه...(١٠٧)»أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهدا لا، ولا نراهم لذلك أهلا.

كان كلام ابن الزبير حيال العراق من أخطائه السياسية في غير محله، وكان عليه أن يكسب ودهم، لكن ربما كان ابن الزبير على قناعة بأنهم لم يكونوا صادقين، وهذا ما يبرر عدم خروجه للعراق. وتأكد له ذلك بعد أن خذلوا أخاه «مصعبا» وتمكن عبد الملك بن مروان من استمالة أنصاره وشرائهم بالأموال والتهديد والوعيد (١٠٨). وفي الموقف العراقي من ابن الزبير والعلاقة بينهما، أن الأمر كان يستند إلى التقاء الإتجاهين ضد العدو المشترك. فموقف الحجاز والعراق تجاه الأمويين في الشام يتجهان في خط مستقيم ومتواز. وكلا البلدين انبعثا من المنطلقات ذاتها، لكن يخيل لمن يدرك الأمور، أنهم لم يلتقوا في نقطة واحدة ومركز مشترك، ولهذا آثر ابن

الزبير البقاء في الحجاز. ومن غير المنطق أن يترك إقليما يسـنده وقـامت دعوتـه لإحياء مجده وتراثه القديم، ومن هنا أحجم فيما بعد عن الذهاب إلى الشام، عندما دعاه القائد الشامي الحصين بن نمير السكوني، بعد موت يزيد في سنة ٦٤هـ(١٠٩).

ولعله من المناسب أن نتعرف مواقف القوى المحيطة بابن الزبير وعلاقته بـها وسياسته تجاهها وعلى رأس هؤلاء الأنصار، وهم القوى التي كان يحسب لها الحساب الأول منذ هجرة الرسول (ص) وحتى معركة الحرة، وقد وجدوا الآن أنفسهم مع ابـن الزبير ضد الأمويين وقالوا إنه (١١٠) إذا هلك الحسين عليه السلام فلا أحد ينازع ابن الزبير). وقدمت فلول من الهاربين من الحرة إلى مكة والتحقت بقوى ابـن الزبـير، وكرهوا غزو مكة وحاولوا منع ذلك دون جدوى (١١١). وفي سنة/٦٠هـ/ عندمـا رفض عمرو بن سعيد الأشدق توسط زعيم الأنصار«رافع بن خديج» وقال له: (اتـق الله ولا تغز الجيوش مكة، فإن الله حرمها فلم تحل لنبيه إلا ساعة من نهار ثم عـادت حرمتها فقال (الأشدق):

"وما أنت وهذا لقريش ، علم لا تبلغه أنت ولا أصحابك فانصرف رافع".

وكان ذلك اثر قسم يزيد ألا يقبل بيعة ابن الزبير إلا أن يؤتى به في "جامعـة ويوثقه في سلسلة". ثم أراد يزيد أن يخفف من حدته ، ورغب ألآ يحنث فـي يمينـه (قسمه) وأن يعمل في نفس الوقت لمداراته ، فأرسل إليه سلسلة من فضة مع النعمـان بن بشير الأنصاري وابن مسعدة الغفاري وابن غفاة الأشعري، وطلب هؤلاء من ابـن الزبير أن يضعها في يديه ، لكنه رفض وقال لهم "قولوا ليزيد يجعل يمينه هـذه مـن إيمانه التي يجب أن يكفرها". (١١٢) وعلى الرغم من أن الزعيم الأنصاري النعمـان بن بشير، صديق الأمويين القديم، كان يرى أي الأنصار في أحقية ابن الزبير بالخلافة وأنه أجدر بها من يزيد لمميزات كانت فيه (١١٣)، على ماتذكر المصـادر، إلا أنـه دعاه إلى وحدة الصف والتخلي عن الخروج وبيعة يزيد إذا بايعه الناس لقوله: "ولكني أحذرك الفتنة إذا بايع الناس واجتمعوا عليه". (١١٤) والتف أهل المدينة حول حركـة ابن الزبير الحجازية، وأظهروا حماستهم الشديدة نحوه، غير أن هذا الموقف لم يكـن

الآن قوياً بعد أن ضعف إثر المحنة الكبيرة التي حلت بهم بعد الحرة، ثم للشدة التي أخذوا بها بواسطة الولاة الأمويين وقوتهم في المدينة، ثم لخطأ ابن الزبير الذي لم يتوجه إليهم في الوقت المناسب ويساند ثورتهم في حينها، كل هذا وذاك جعل الأمويين يقاتلون أعداءهم على انفراد، فجاء ذلك بمصلحتهم وأضر بالمصلحة الحجازية الكبرى. ولعل ذلك من الدوافع الكبيرة لفشل الحجاز في صراعه ضد الشام . كما جاءت ابن الزبير قوات إضافية دفعت بها حركة الخوارج في اليمامة ضد الحكم الأموي. وقدم "نجدة بن عامر الحنفي" في جمع من الخوارج (١١٥)، وشارك في فك حصار الحصين السكوني القائد العسكري الشامي لمكة، كما انضم المختار الثقفي أحد الطامعين بالحكم وصاحب الثورة الكبيرة في العراق ضد الحكم الأموي لمجابهة القوة الشامية المحاصرة للقوات الزبيرية في مكة. لكن هذا التحالف سرعان ما انفرط عقده ولم تتفق أهواء الخوارج (١١٦)، وتطلعات المختار مع الحركة الزبيرية. ولم يستفد هذا من هذه القوى الرديفة.التي كان بمقدورها أن تعطيه دعماً هو بأمس الحاجة إليه. واعتقد أن مرد ذلك لعدم وضوح الرؤيا عند هؤلاء المتمردين وللنزعات الخاصة التي سيطرت على كل منهم، هذا بالإضافة إلى الإختلاف بينهم وعدم اتفاقهم على قواسم مشتركة تجمع شملهم وتؤلف بينهم.

أما الموقف الهاشمي في الحجاز وعلاقة ابن الزبير بقيادتهم فيتلّخص بعدم التزامهم الوقوف إلى جانب ابن الزبير، وانعزالهم في الطائف، وهي المدينة التي حافظت على الولاء للأمويين وعلى الرغم من أن قوتهم قد دمرت بعد مأساة كربلاء، لكن هؤلاء شعروا بأن ابن الزبير بإعلانه الخلافة لنفسه اعتدى على حقهم فيها. وأظهر هؤلاء الرفض لإبن الزبير وحاول يزيد كسبهم إلى صفه وربما كان أنجح سياسة من ابن الزبير حيالهم، بإظهار التودد لهم، وتجلى ذلك بإرساله خطاب الشكر إلى عبد الله بن عباس (١١٧) وفيه يشكره على موقفه السلبي من ابن الزبير ورفضه البيعة له، وطلب منه أن يحثّ الناس على بيعته وابتعادهم عن ابن الزبير. لكنه لم يتمكن من كسب ود الزعيم الهاشمي ودماء كربلاء لا تزال غزيرة ولا يمكن أن يوقف

نزيفها الدموع ولا الأموال أو الرسائل. فرد عليه ابن عباس بخطاب جاء فيه "فأما تركي بيعة ابن الزبير فوالله ما أرجو بذلك برك ولا حمدك...وسألت أن أحبب الناس إليك وأبغضهم وأخذلهم لإبن الزبير فلا ولا سرور ولا كرامة، كيف وقد قتلت حسيناً وفتيان عبد المطلب مصابيح الهدى ونجوم الأعلام، غادرتهم خيولك بأمرك في صعيد واحد مرملين بالدماء مسلوبين بالعراء...فلا شيء أعجب عندي من طلبتك..وقد قتلت ولد أبي وسيفك يقطر من دمي". ويبدو أن الطائف رغم نزعتها الأموية لم تؤيد ابن الزبير، وفي نفس الوقت لم تعمل لصالح الأمويين لا بل استقبلت بعض زعماء المعارضة ضد الجبهتين الحجازية والشامية، ومن هذا التيار المعارض المختار بن أبي عبيد الثقفي (١١٨)، وهو من الفئة الثقفية التي لم تستفد من النظام الأموي. كما لجأ إلى الطائف ابن عباس (١١٩)، من الهاشميين، غير أن هناك معارضاً آخر أشد صلابة من ابن عباس أعلن رفضه لبيعة ابن الزبير، وبقي في مكة متحدياً ابن الزبير وهو محمد ابن الحنفية الذي أغضب موقفه ابن الزبير ودفعه حتفه إلى محاولة حرق الهاشميين في مكة (١٢٠)، وسجنهم وتشريدهم، مما دفع شيعة الكوفة لإظهار عدائهم لإبن الزبير وتصلبهم ضده، وقاموا بإرسال وفد منهم يعلن ويحتج لسجن ابن الحنفية (١٢١)، قبل أن يتمكن من الهروب إلى العقبة (١٢٢)، ناجياً بنفسه. وهذا التصرف سوغ هو الآخر مأخذاً على السياسة الزبيرية في الحجاز، ولم يكن ذلك في مصلحة ابن الزبير وأدى ذلك إلى إضعاف جبهة الحجاز الداخلية.

وأما الموقف الرسمي لأبناء الصحابة عدا الهاشميين، فقد اتفق هؤلاء في المعارضة المبدئية لخلافة ابن الزبير مع الهاشميين أيضاً، وكان رأيهم بأن حركته ليست البديل المطلوب للحكم الأموي، ومثّل هذا التوجه عبد الله بن عمر، والذي وجد في ابن الزبير مجرد ساع من أجل الحكم وحب السيطرة ووصفوا دعوته بأنها تفتقر إلى الحد الأدنى المطلوب الإصلاحي الذي تقتضيه تلك المرحلة. وهذا ما عبّر عنه ابن عمر صراحة بقوله عن ابن الزبير: إنه (لا يطلب سوى الخلافة) (١٢٣)، وهكذا أخطأ ابن الزبير في كسب واستقطاب المهاجرين من أبناء الصحابة الكبار وخسر

تأييدهم الفاعل في الخلافة، وفقد بذلك مسوغاً مهماً في مطلبه القاضي بالثورة ضد يزيد، الذي حاول هذا النفوذ إلى صفوفهم وضرب جبهة ابن الزبير وخسارتها في النهاية.

وانطلاقاً من مكانه مكة وقداستها، اعتقد ابن الزبير وأصحابه أن الأمويين لن يقدموا على مهاجمتها، وقد لا تتكرر محنة المدينة والتي كان لها أسبابها الثأرية، والتي تعود برأي بعض المؤرخين والكتاب إلى الإنتقام ليوم بدر (١٢٤)، وربما تغافل هؤلاء وغاب عن خلدهم عمق الصراع السياسي وإبعاد التمسك بالنفوذ والسلطة، والأمويون لن يتخلوا عن حق صار مكتسباً لهم مهما كانت التضحيات. ولهذا فقد استندوا إلى التأييد القبلي، وتخلوا عن الإلتزام الديني وقادوا تياراً سياسياً أوصلهم إلى الحكم، ولا يمكننا القول إن الأمويين بعد فتح مكة فكروا بالتخلي عن الإسلام، بل شاركوا جنوداً وقادة في حروب الردة والفتوحات غير أنهم لم يصلوا إلى الحكم بقيم الإسلام ونظمه، لكنهم وصلوا بقوة السلاح وهم من أجل حماية دولتهم واستمراريتها لم يتورعوا عن أي عمل يؤمن لهم ذلك، وضمن هذا التوجه يمكن أن نفسر مأساة كربلاء وموقعة الحرة وضرب الكعبة والعائذين في الكعبة واعتقاد الزبيريين (١٢٥)، وتصورهم بأن الجيش الشامي لن تتعدى مهماته محاصرة ابن الزبير والضغط عليه للإستسلام والبيعة ليزيد. لكن المتبصرين السياسيين أدركوا أن يزيد ومعاونيه وما عرف عنهم من تطرف (١٢٦)، لم يتقاعسوا عن القيام بأي عمل لدرء الأخطار التي تعترضهم، وربما لم يكن قرار ضرب تمرد الأنصار في المدينة (١٢٧)، ومن ثم حصار مكة إلاّ بموجب خطة وضع أمر القتال فبها الخليفة الأموي يزيد بن معاوية، والتي كان يسيطر على هاجسه الرئيسي الآن تمرد ابن الزبير في مكة على حد زعمه، ولقد كان مسلم بن عقبة أكثر صلابة وتحمساً من يزيد لتنفيذ مهمة التصدي لثوار المدينة وإباحتها، وظهر ذلك في كلامه وأثناء وصيته وهو على فراش الموت قوله (١٢٨): «اللهم أني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله أحب إلي من قتلي أهل المدينة ولا أرضى عندي في الآخرة». وسواء

تأكد هذا القول أم لم يتأكد، فمما لا شك فيه أن القائد الأموي لم يتورع من القيام بأي عمل يهدف لإنهاء التمرد، وإرضاء أسياده في دمشق، وتثبيت الحكم والسلطة الأموية.

لعل من أخطائه الكبيرة التي ارتكبها ابن الزبير. كان قراره إخراج الأمويين من المدينة وإيعازه بذلك لواليه عليها عبيد الله بن الزبير (١٢٩)، بطردهم منها، ووجد هؤلاء المسوغ لخروجهم بعد أن أصبح أمراً ملحاً إثر معركة الحرة، ولم يكن من السهولة العيش بسلام في المدينة، كما غدت الشام تجذبهم نحوها للإشتراك في السلطة والحكم. وسرعان ما تنبه ابن الزبير ولم يتمكن من إعادتهم وصدقت توقعات القرشيين، وخشية ابن الزبير من إبعاد هؤلاء الذين وصلوا إلى الشام وهي بأمس الحاجة لهم وأسهموا كثيراً في إنقاذ الأزمة السياسية الكبيرة التي كادت أن تنهي الدولة الأموية، خاصة بعد موت يزيد المفاجئ في (٦٤هـ/٦٨٣م) (١٣٠)، وخروج الأمويين متحدين في مؤتمر الجابية (١٣١)، ثم منتصرين في معركة مرج راهط (١٣٢). والتف الأمويون حول شيخهم وعميد أسرتهم مروان بن الحكم، الذي تهيأت له الظروف لتسلم الخلافة وانتقالها بعد ذلك إلى فرعه، وربما كان اعتماد ابن الزبير على القيسية وزعيمها الضحاك ابن قيس، وتأجج روح العصبية بين قيس ويمن من العوامل التي ساعدت على تكتل الأمويين والكلبيين، ومن الأخطاء التي ارتكبها ابن الزبير أيضاً في مسيرته هذه.

غير أن التصرف الأموي حيال مكة وحصارها وضرب الكعبة بالمنجنيق وحملة الحقد على الحصين بن نمير قائد الحملة العسكرية، والخليفة يزيد والأمويين بشكل عام بلغت أشدها، مما كان له أكبر الأثر على الجبهة الزبيرية وحصولها على التأييد، مستغلاً ابن الزبير ببراعة واضحة هذا الحدث المروع لمصلحته الخاصة، وسواء أكان حريق الكعبة مفتعلاً من أنصار ابن الزبير،(١٣٣)، أم أن ذلك حدث مصادفة وقضاءً وقدراً أضرمته شرارة عابرة في يوم الثالث من ربيع الأول (٦٤هـ/٦٣٨م) (١٣٤)، وقبل وفاة يزيد بأيام، فقد جاء الحدث مؤثراً للغاية على مشاعر المسلمين وكان ذلك لصالح ابن الزبير وكسب الشعور العام نحوه.

هكذا توجهت الأفكار وازداد الناس توجها نحو مكة وازدادوا تعاطفا مع قضية ابن الزبير وخلافته وبعدها بايعت مصر والعراق (١٣٥)، والحجاز، وأهل الجزيرة وأهل الشام إلا أهل الأردن، لإبن الزبير، ومناطق أخرى، وقد أثار حريق الكعبة وضربها بالمنجنيق مشاعر الناس وعواطفهم وألهب ذلك حماسة الشعراء، وهم الأدوات الإعلامية التي أظهرت استياء المسلمين لهذا الحدث الذي صوره شعراء كثر على رأسهم شاعر ابن الزبير عبد الله بن قيس الرقيات، (١٣٦)، الذي هاجم قبائل الشام واتهمها بأنها كانت وراء إحراق الكعبة.

وعلى إثر وفاة يزيد أعلنت الهدنة العامة بين المقاتلين، وعقد اجتماع في الأبطح (١٣٧)، بين القائد الشامي الحصين، وابن الزبير لمناقشة الأحداث الطارئة. وأظهر القائد الشامي رباطة جأش وثقة بالنفس، وبقوة أجازت له التكلم بإسم الشام، وظهرت في مخاطبته ابن الزبير ورغبته في الخروج معه إلى الشام ومبايعته بالخلافة على الفور فيما إذا قبل أهل الحجاز بذلك. وتكفل له بقوله (١٣٨): «اخرج معي إلى الشام فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم». وكان جواب القائد الحجازي ينم على تمسكه بالموقف الحجازي، وبعدم الخروج على رأي مستشاريه من الحجازيين وبدأ ذلك بقوله (١٣٩)، «إن لي أمراء لست أقطع أمرا دونهم فأناظرهم ثم يأتيك رأيي». وقد صرح أقرب المستشارين لإبن الزبير «عبد الله بن صفوان» وهو من أوائل المبايعين له بالخلافة بعد موت (١٤٠) يزيد بن معاوية، بمعارضة الإنتقال إلى الشام واستبعد هذا الإنتقال والخروج إلى الشام، وذلك بدافع التعصب للحجاز وتوجهاتها السياسية. وطرح القائد الشامي المشكلة الحجازية بجميع أبعادها وأراد أن يطوى ما أحدثته الحروب، وخاصة في المدينة، وكان من أولى نتائج «اجتماع الأبطح» رفض ابن الزبير مقترحات الحصين بن نمير (١٤١)، واتهام هذا لإبن الزبير، بقصور النظرة السياسية، وعدم تمكنه من اختيار اللحظات الحاسمة والمفيدة. وربما لم نجد المسوغ لمنتقدي ابن الزبير بعدم الخروج إلى الشام ونقل مركزه إليها، فقد يكون له ما يسوغ عدم الإنتقال إلى الشام وهي أموية التوجه والإيمان والمنحى،

وقد لا يجد فيها مبتغاه، ثم أن خروجه كما أشرنا سابقاً سيفقده الدعم الحجازي الذي قامت خلافته ودعوته على أساسها وأحقيتها، وتفقد حركته بذلك مضمونها.

ولم تكن نقلة الإمام علي، بعيدة عنه، ولا بد من أنها أعادت لذهنه تخلي الكثيرين عنه وتركهم لمعسكره إثر انتقاله إلى الكوفة، كما اعتزل البعض دعوته انسجاماً مع هذا التوجه الحجازي. ولا بد من أن ابن الزبير وضع أمام عينيه الفشل الذي سيحيق به في الشام، ولاشك في أن العراق كانت أقرب لحركته، غير أن الخسارة التي لحقت بأبيه وبه في البصرة في الجمل (١٤٢)، ومن ثم مقتل الإمام علي بالكوفة وما آلت إليه الأمور بعد ذلك في عهد كل من الحسن والحسين في العراق، والفشل الذي حل بهم جميعاً، وإن كل ذلك دفعهم لعدم ترك الحجاز، ولم يجد المبرر والأمان للتوجه إلى الشام أو إلى العراق وفيهما الفشل محتملاً بنفس معيار النجاح.

ولكن يبدو أن إيمان ابن الزبير بحجازيته وبالفكرة التي دافع عنها كانت قوية وقناعته مطلقة وظهر ذلك في حواره مع أمه أسماء بنت أبي بكر (١٤٣)، في لحظاته الأخيرة، ولهذا لم يقبل المساومة على هذا الحق رغم الإغراءات الأموية له، لكنه استشهد من أجله. غير أن ابن الزبير لم يتمكن من الإستفادة من الوقت واللحظات الحاسمة وممن أيدوه كرهاً بالأمويين، وفشل في تجميع القوى المناهضة لهم ولم يوحدها في جبهة واحدة، ويستخدم ذلك ضد عدو مشترك، ولا سيما في فترة دانت له معظم أقاليم الدولة العربية الإسلامية وبايعته بعد موت يزيد. وقد لا يكون السياسي المحنك الذي يستفيد من الظروف الملائمة.

ولم يقتنع مطلقاً بأن الحجاز أصبح منطقة غير قادرة على قيادة ورئاسة الدولة العربية الإسلامية، بعد أن أصبح التوجه مفروضاً للمراكز الجديدة في العراق والشام، واستمر متمسكاً بموقفه مقيماً في مكة، وأرسل أخاه مصعباً إلى العراق، حيث قدم له دعماً اقتصادياً وبشرياً، وشكّل مصدر التمويل الأساسي في حركته، كما كان مركز المواجهة الفعلية في الصراع ضد الأمويين (١٤٤)، وترك زمام الأمر بالعراق لأخيه الذي لم يكن مطلق الصلاحية فيها، إنما كان محكوماً بأوامره وكثيراً ما حدث التناقض

بين أوامر الأخوين مما أضعف الجبهة الزبيرية بشكل عام أمام التلاحم الأموي. وكان لبعد عبد الله بن الزبير عن القيادة في العراق أكبر الأثر على انتصار خصمه الأموي عبد الملك بن مروان، الذي أصرّ على قيادة المعركة بنفسه (١٤٥).

لهذا وُصِف ابن الزبير بأنه لم يكن السياسي الموفق وقال عنه اليعقوبي «لم يصلح أن يكون سائساً» (١٤٦)، كما كانت تعوزه المرونة والدهاء والمبادرة، بالإضافة لما اتصف به من البخل، وهذا ما أبعد عنه الطامعين والشعراء وطالبي المال. ولم يتمكن من فرض العطاء وتقديمه في الوقت المناسب (١٤٧)، وعجز عن مجاراة الأمويين في العطاء وكسب وسائل الدعاية والإعلام، خاصة الشعراء. وقد ترك ذلك تأثيره السلبي على وضعه، ولم يتمكن من مجاراة خصمه عبد الملك في استقطاب الناس وجذب الشعراء لبلاطه، وهؤلاء كان لهم دورهم الكبير في التأثير على الناس والدفاع عن النظام الأموي الذي تمثل في هذه الحقبة بالخليفة القوي عبد الملك بن مروان، ولهذا لا نستغرب أن يكون النصر للأمويين ممثلاً في عبد الملك بن مروان وشخصيته الفذة النادرة كرجل دولة بكل ما تعنيه العبارة. والقائد الناجح الذي صقلته الأحداث وخرج من خضم الأهوال ليثبت أنه بطل المرحلة الجديدة.

وبإيجاز فإن ما ورد في البحث يمثل وجهة نظر المؤرخين الذين اعتمدت على كتاباتهم، وقد التزمت في هذه الدراسة قدر الإمكان بالمعلومات التي وردت بالأخبار الأكثر موضوعية.

وأما وجهة نظري فهي تتلخص بأن معظم الصراعات التي حدثت والأساليب التي استخدمت في علاج الأحداث إنما كانت تستند أساساً إلى المصالح والأسس الدنيوية، مع أن معظم الأحداث كانت تصطبغ بالأمور الدينية، وكانت النزعات الإنسانية والرغبات البشرية المحرك الأساسي لمعظم هذه الأحداث، مع تأكيدنا على تفاوت البشر في معتقداتهم الدينية ورغباتهم البشرية.

وانسجاماً مع ما تقدم، علينا أن نلتزم بالحكمة ونبتعد عن التعصب، ونتخلص من تركات تاريخ طويل انزلق في مطباته الكثرة من الباحثين ورجال الفكر والسياسة،

ونتعامل مع الأحداث بموضوعية بغية فهمها كما حدثت فعلاً، ولا نحمل المعتقدات والدين تبعات ما حدث، مدركين ماهية الدين الإسلامي الحنيف الخيرة والتي هو بمنأى عن كل الصراعات التي امتلأ بها التاريخ العربي الإسلامي، والتي هي من صنع البشر ونتيجة طبيعية لتطور ومعطيات متعددة ومعقدة وشائكة.

وصفوة القول، حاولت في هذا البحث أن أجتهد، ولم أقل فيه القول الفصل، فالتراث العربي الإسلامي الغني مفتوح أمام الباحثين، وكل يجد فيه مبتغاه، ويرى ما يضيف أو يصحح، وحسبي أني حاولت وفي هذا وحده أجر وجزاء، والله أسأل أن أكون وفقت لما فيه الخير.

ثبت المصادر والمراجع والهوامش

١- البلازري، **فتوح البلدان** ص١١٦(القاهرة١٩٨٧م)

-المقريزي، **النزاع والتخاصم بين أمية وبني هاشم**،ص٨٠ القاهرة١٩٣٧.

-جمال سرور، **قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد(ص)** ص٤٥ ط القاهرة١٩٦٦.

٢-الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج٢ ص٢٥٢ (طبعة دار المعارف بمصر١٩٦٠م)

وابن حبيب، **المنمق** ص١٣١ (١٩٨٥ بيروت **والمجبر**، ص١٦٢ ١٩٤٢ (حيدر أباد).

البلازري، **أنساب الأشراف**، ج١ ص٥٩٠ (القاهرة١٩٥٩) وانظر ط بيروت١٩٧٤.

-اليعقوبي، **تاريخا** ج١ ص٢١٢،٤٧٠، بيروت١٩٨٠ تحقيق الشيخ محمد بأمر المحمودي.

-الأزرقي، **أخبار مكة** ج١ ص١٠٤ الناشر دار الأندلس بيروت ١٣٥٢هـ.

٣-البلازري، **فتوح البلدان** ص١١٦ (القاهرة ١٩٨٧م).

-خليفة بن خياط، **تاريخه** ج١، ص١٥٧ تحقيق سهيل زكار دمشق١٩٦٨.

- ابن سعد، **الطبقات** (ج٧ ص٤٠٦-الطبري ج٥ ص٢٢٣/٣٢٢).

٤-ابراهيم الأبياري، **معاوية بن أبي سفيان**، ص٢٥٧ سلسلة أعلام العرب القاهرة.

-ابن طباطبا، **الفخري في الآداب السلطانية**، ص١٠٤-المسعودي، **مروج الذهب** ج٢ ص ٣٤٣. ط٢ بيروت١٩٧٣-عبد العزيز سالم، **التاريخ السياسي**

والحضاري **للدولة العربية** ص٣١٨/٣١٧. (دار النهضة العربيـــــة-بــيروت)، ابراهيم بيضون: **الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في اشكالية العلاقـــات مــع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري** (بيروت١٩٨٣) ص١٩٤/١٩٢.

٥- **الطبري**، ج٤ ص٤٢٧-ابن الأثير، **الكامل** ج٣ ص١٩٠ (بيروت١٩٧٩).

-سيف بن عمر، **الفتنة ومعركة الجمل**، ص٩٥ (بيروت١٩٧٢).

-**خليفة**، ج١ ص١٩٨.

٦-**الطبري**، ج٤ ص٤٥٥-**الكامل** ج٣ ص٢٠٥/٢٠٤-وانظر نبيه عاقل: **خلافة بني أمية**: ص٣٠/٢٩ دمشق١٩٧٢

٧-انظر: **الطبري**، ج٤ ص٥٣٢/٥٠٨-سيف بن عمر، **الفتنة** ص٨٢/٨٠.

-ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة** ج١ ص٧٩/٧٦/٧٥/٧٤/٧٢ ٩٤ (المكتبة التجارية القاهرة).

-الدينــوري (أبــو حنيفــة)، **الأخبـــار الطـــوال** ص١٥٨/١٥١/١٤٩/١٤٥ (القاهرة١٩٦٠)

--اليعقوبــــــــــي، **تاريخــــــه** ج٢ ص١٨٣-**الكـــــــامل** ج٣ ص٢٧٧/٢٥٨/٢٤٤/٢٤٠/٢٣١/٢٢٦/٢١٢ - وانظر: ابراهيم بيضون: **الحجاز** ٢٠٩/٢٠٥/٢٠٢/٢٠٠/١٩٣/١٩٢ ص٢٣٥/٢٣٤/٢٢٣ وشرح **نهج البلاغــــة** ج٦ ص ٣٤/٣٣ والبلازري: **أنساب** ج١ ص١١٦/٥٧

٨-ابن قتيبة، **الإمامة** ج١ ص٩٤-ابن ألعثم، **الفتوح** ج٢ ص٤٣٠ (مكتبــة ســـهيل زكار عن نسخة اسطنبول رقم-٢٩٥٦) (طُبــــع تحقيــق زكـــار دار الفكــر بيروت١٩٩٢م)

-ابراهيم بيضون: **الحجاز** ص١٩٧.

٩-**الطبري**، ج٥ ص٩٣/٦٧-**الكامل**، ج٣ ص٣١٦/٣٢٩ ص٣٧٨/٣٤١

١٠-**اليعقوبي**، ج٢ ص١٩٣(بيروت١٩٨٠)-**الكامل**، ج٣ ص٣٨٣

-ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة** ج١ ص٩٤-**ابن الأعثم**: ج٢ ص٤٣٠

١١-**الطبري**، ج ٥، ص١٣٤/١٣٩ **الكامل**، ج٣ ص٣١٦/٣٢٩/٣٤١/٣٧٦/٣٧٨ وانظر **الغارات** لأبي اسحق ابراهيم بن محمد الثقفي ط بيروت ١٩٨٧ تحقيق عبد الرزاق الحسيني الخطيب ص٣٤٤/٤٠٤-بيضون: **الحجاز** ص٢١٠/٢١١

١٢-**اليعقوبي**: ج٢ ص١٩٣/١٩٧ بيروت١٩٨٠-**الكامل**: ج٣ ص٣٥٢

-**الطبري**: ج٥ ص ١٣٤ / ١٣٥/ ١٣٦/ ١٣٩/ ١٤٠ - **الكامل** ج٣ ص٣٧٦/٣٨٣/ ابن الأعثم، **الفتوح**: ج٤ ص٣٨/٣٩

-البلازري، **أنساب** ص٤٥٤-٤٥٥-٤٥٦ المسعودي، **مروج** ج٣ ص٢١/٢٢.

١٣-انظر مثلاً: ثورة ابن الأشعث-وثورة كل من المدينة، ومكة. سهيل زكار، **تاريخ العرب والإسلام** ص٢١٣ دمشق١٩٨٢. وانظر: الدينوري، **الأخبار الطوال** ص٣١٦-و**الطبري**، ج٦ ص٣٢٦ والمسعودي، **مروج الذهب**، ج٣ ص١٤٣، فلها وزن: **الدولة العربية**: ص٢٣٤/٢٣٦-الدوري: **مقدمة في تاريخ صدر الإسلام** ص٥٥/٥٦، ابراهيم بيضون: **الحجاز** ص١٩٠/١٩١/٢٢١/٢٢٢/٢٣٢

١٤-خليفة بن خياط، **تاريخه** ج١ ص١٥٧.

رضوان السيد، **جدليات العلاقة بين الجماعة والوحدة والشريعة في الفكر السياسي العربي الإسلامي**/مجلة الوحدة عدد/٢/ ص١٨/١٩٨٠.

-ابراهيم بيضون، **الحجاز والدولة الإسلامية**: ص٢٣٥ نقلاً عن الطبري، ج٥ ص٨٦ (ج١٣ مكتبة خياط بيروت).

-بيضون، **المرجع السابق** ص٢٣٥.

١٥-وانظر **الطبري**، ج٥ ص٣٠١/٣٠٢-**الكامل**، ج٣ ص٥٠٣/٥٠٤

١٦-**الكامل**، ج٣ ص٥٠٤ (وردت الفي)

١٧-أحمد الشايب، **تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني** ص٢٩١/٢٩٦ وديوان **الأخطل** ص٥٦/٣٣٦، **والأغاني** ج١٥ ص٢٩/٦٣، وانظر **الطبري**، ج٥، ص٢١٤/٢١٥/٣٠٢-بيضون: **الحجاز** ص٢٣٦

١٨-**الطبري**، ج٥، ص٢٣٢/٢٢٣-**الكامل** ج٣ ص٤٥٨-حتى **تاريخ سورية** ج٢ ص٤٦.

-البلاذري، **أنساب** ج١ ص٢٤٢-ابن خياط: **تاريخ خليفة** ج١ ص٢٤٨-القلقشندي، **مآثر الأناقة في معالم الخلافة**، ج١ ص١١٢/١١٣ النويري: **نهاية الإرب** ج٢٠ ص٢٧٠ العدوي، **الأمويون والبيزنطيون** ص١٥٦(القاهرة ١٩٥٣).

١٩-**الطبري**، ج٥ ص٢٨٦-**الكامل**، ج٣ ص٤٩٠-المسعودي: **مروج** ج٣ ص٢٢٧-ابن قتيبة، **الإمامة** ج١ ص١٦٠.

٢٠-**الطبري**، ج٥ ص٣٠٢-**الكامل** ج٣ ص٥٠٣/٥٠٤/٥٠٨-نبيه عاقل: **خلافة** ص٩٣/٩٤ وعن دور المغيرة في بيعة يزيد انظر: **تاريخ الخلفاء** ص٥٧٠ حيث هناك تفاصيل كاملة عن هذا الدور.

٢١-**الطبري**، ج٥ ص٣٠٤/٣٠٧ **الكامل** ج٣ ص٥٠٦/٥١١

٢٢-**الكامل**، ج٣ ص٥٠٦-ابن الأعثم: **الفتوح** ج٤ ص٢٣٤/٢٣٥-**الإمامة والسياسة** ج١ ص١٦٦.

٢٣- ابن الأعثم، **الفتوح**: ج٤ ص٢٣٤-**الكامل**/ج٣ ص٥٠٦/٥٠٧

٢٤-**الفتوح**، ج٤ ص٢٣٨-**الإمامة**: ج١ ص١٦٧/٢٧٧-**الطبري**، ج٥ ص٣٠٩-بيضون: **الحجاز** ص٢٤٢-وانظر نبيه عاقل **خلافة** ص٩٥ وما بعدها ومناقشته لبعض الروايات حول بيعة يزيد.

٢٥-**الإمامة**، ج١ ص٢٩٧-**العقد الفريد**: ج٢ ص٣٧٢.

٢٦-ابن الأعثم، **الفتوح** ج٤ ص٢٤٦ **الإمامة**، ج١ ص٢٩٨/١٦٧-**الطبري**: ج٥ ص٣٠٤

-**العقد الفريد**، ج٤ ص٣٧٢.

٢٧-**ابن الأعثم**، ج٤ ص٢٤٢.

٢٨-ابن الأعثم، **الفتوح**، ج٤ ص٢٤٦-**خليفة** ج١ ص٢٥٦ بيضون، **الحجاز** ص٢٥٤

٢٩-انظر حول هذا الأمر، **خليفة**، ج١ ص٢٥٦-**الكامل** ج٣ ص٥١٠

-ابن الأعثم، **الفتوح** ج٤ ص٢٤٩/٢٥٧-ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق** مخطوط ورقة ٣٥٣-**مروج الذهب** ج٣ ص٢٧-فلها وزن: **تاريخ الدولة العربية** ص١٣٨.

٣٠-**الطبري**، ج٥ ص٣٠١/٣٠٥-**الكامل**، ج٣ ص٥١٠/٥١١

٣١-المسعودي، **مروج** ج٣ ص٢٧

٣٢-سهيل زكار، **تاريخ العرب والإسلام** ص١٥٥-بيضون، الحجاز ص٢٤٨

٣٣-ابن الأعثم، **الفتوح** ج٢ ص٢٤٢-**الطبري** ج٥ ص٣٠١-**الكامل** ج٣ ص٥١١- **خليفة** ج١ ص٧٥٦

٣٤-**تاريخ خليفة**، ج١ ص٢٥٧.

٣٥-**الطبري**، ج٥ ص٣٢٢/٣٢٣-الدينوري، **الأخبار** ص٢٠٦- **الفخري**، ص٩٢، **العقد الفريد** ج٤ ص٨٧ **الكامل**، ج٤ ص٦-**خليفة**: ج١ ص٢٥٧-**مروج**: ج٣ ص٣٦/٣٨

٣٦-البلاذري: **فتوح** ج١ ص ٤٧٧-**الطبري**، ج٥ ص٣٣٨-**النويري**: **نهاية الارب** ج٢٠ ص٣٧٦

٣٧-**المصادر السابقة**.

٣٨-**الطبري**، ج٥ ص٣٣٨-**خليفة** ج١ ص٢٨٢

٣٩-**الطبري**، ج٥ ص٣٣٩-**خليفة** ج١ ص٢٨٢-البلازري: **أنساب** ج٤ ق٢ ص٢٣

٤٠-الدينوري: **الأخبار** ص٢٢٨-النويري: **نهاية**: ج٢ ص٣٨٦-**الطبري**، ج٥ ص٢٥١/٢٥٢/٢٥٣

٤١-**الطبري**، ج٥ ص٣٨٣.

٤٢-**الطبري**، ج٥ ص٣٨٣.

٤٣-الدينوري، **الأخبار** ص٢٢٩-**النويري**، ج٢٠ ص٣٨٦. انظر نبيه عاقل: **خلافة** ص١٠١

٤٤-انظر: أبحاث كل من: الأستاذ الدوري-**مقدمة في تاريخ صدر الإسلام** ص٤٠-٦٥-سهيل زكار، **تاريخ العرب والإسلام** ص٩٢/١٩٠-ابراهيم بيضون: ص١٠٧/١٣٧/١٤٦/ **تكون الإتجاهات السياسسية في الإسلام** الأولى-بيروت١٩٨٦-نبيه العاقل، **خلافة بني أمية**، ص٥٢/٥٣/٥٤/٥٥ وما بعدها دمشق١٩٧٢

٤٥-**خليفة**، ج١ ص٢٤٦-**تاريخ الخلفاء**: ص١٢٧-**الأخبار الطوال** ص٢٢١ ابن الأعثم ج١ ص١٧١/ص١٧٣-**تاريخ اليعقوبي**، ج٢ ص٢٢٥/٢٢٨ **مروج الذهب**: ج٣ ص٥-٧، **مقاتل الطالبين** ص٤٦/٧٧-**تاريخ الخلفاء** للسيوطي: ص١٩٢ سهيل زكار، **المرجع السابق** ص١٦٧.

٤٦-الدينوري: **الأخبار الطوال**، ص ٢٣١-**الطبري**، ج٥ ص١٦٢-١٦٤-طه حسين، **علي وبنوه** ص٢٠٠-جمال سرور، **الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية** ص٩١.

٤٧-**الطبري**، ج٥ ص٣٣٩.

٤٨-ابن قتيبة، **الإمامة** ج١ ص١٥١-**الكامل** ج٤ ص٢٠-**الطبري**، ج٥ ص٣٥٢.

٤٩-**الطبري**، ج٥ص٢٨٧/٢٨٨-محمد ماهر حمادة، **الوثائق السياسية والإدارية**، ص٢٦.

٥٠-**الطبري**، ج٥ ص٣٥٤/٣٥٥-ماهر حمادة، **المرجع السابق** ص١٠٣/١٠٤.

٥١-البلازري، **أنساب**: ج٤ ق١ ص١٠٢/١٠٣ أو ج٢ ق١ ص١-١٦، **تاريخ خليفة** ص٢٧٨. نبيه عاقل: **خلافة** ص١٠٢

٥٢-وعن ثورة الحسين، انظر **أنساب** ج٢ ص١-١٦-**الفتوح** ج١ ص١٨٧ و٢٣١ظ-السيوطي، **تاريخ الخلفاء** ص١٦١/١٩٥-**اليعقوبي**، ج٢ ص٢٠٥/٢١٠-**مروج الذهب** ج٣ ص٧٥-٨١، **البداية** ج٨ ص١٥٠.

٥٣-البلاذري، **أنساب** ج١ ص٤٧٧-و ج٤ ق٢ ص١٢ **الطبري**، ج٥ ص٣٣٨، **النويري**: ج٢ ص٣٧٦.

٥٤-**خليفة**، ج١ ص٢٨٣-البلازري، **أنساب** ج٤ ق٢ ص٢٣ **الطبري**، ج٥ ص٣٤٣/٤٧٥.

٥٥-**الطبري**، ج٥ص٣٣٤/٣٤٥-**البلاذري**، ج٤ ق٢ ص٢٩-**أبو الفداء**، ج١ ص١٨٩، **مروج**، ج٢ ص٨٥.

٥٦-**الطبري**، ج٥ ص٣٧٩-**الكامل**، ج٣ ص٣٠٦-**النويري**، ج٢٠ ص٥١٩.

٥٧-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٠-**الكامل**، ج٤ ص١٠٢/١٠٣.

٥٨-ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة** ج١ ص١٧٠.

٥٩-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٨/٤٨٩/٤٩٠/٤٩٥-**الكامل**، ج٤ ص١١٥/١١٦/١١٧/١٢١/١٢٣.

٦٠-المبرد، **الكامل في اللغة والأدب** ج٢ ص١٥٤-صالح أحمد العلي: **ملكيات الأراضي في الحجاز** ص١٠٤/١٠٥ مجلة العرب الرياض عدد ١٩٦٩.

٦١-أبو يوسف، **الخراج** ص٦١-ابن سعد، **الطبقات**: ج٣ ص١٠٤/٢٢٢-السيوطي، تاريخ الخلفاء ص١٦٩-صالح العلي، **ملكيات الأراضي في الحجاز** ص٩٧٢.

٦٢-البلاذري: **أنساب** ج١ ص٤٨٦-راجع **مقتل عثمان**، في **طبقات** ابن سعد ج٣ ص٧٢/٧٥-ابن الأثير، **الكامل** ج٣ ص١٦٧/١٨٠-أبو العرب التميمي، **كتاب المحن**: ص٦٣/٧٧.

٦٤-ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة** ج١ ص١٨٨.

٦٥-**الإمامة والسياسة**، ج١ ص١٨٨.

٦٦-عبد الحي الكتاني، **نظام الخكومة النبوية والتراتيب الإدارية**، ج٢ ص٥٠.

٦٧-السق ستون صاعاً والوسق هو حمل البعير، والوقر حمل البغل أو الحمار، انظر **اللسان وسق- والمحن**: ١٤٦.

٦٨-أبو العرب التميمي، **المحن** "دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٣"-**التراتيب الإدارية**: ج٢ ص٥٠/٥١.

٦٩-الصوافي، الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها واحدتها صافية، واستصفى صفو الشيء: أخذه، وصفا الشيء: أخذ صفوه **(اللسان صفا)** «بيروت ط١١٩٩٢»

عرف السمهوري: الصوافي بأنها جمع مفردها صافية ومعناها النخلة الكثيرة الحمل، **وفاء الوفاء** ج١ ص١٢٧، انظر: **المحن**: ص١٤٦/١٤٧. صالح العلي-ملكيات ص٩٢.

٧٠-أبو العرب التميمي، **المحن**: ص١٤٦ وما بعدها.

٧١-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٢-**المحن** ص١٤٦/١٤٧/١٤٩.

٧٢-أبو العرب التميمي، **المحن** ص١٤٦/١٥٠.

٧٣-**الإمامة**، ج١ ص١٨٨، **اليعقوبي**، ج٢ ص٢٥٠-السمهوري، **وفاء الوفاء**، ج١ ص١٢٧.

٧٤-**المحن**، ص١٤٦/١٥٠.

٧٥-ابن قتيبة، **الإمامة والسياسة**، ج١ ص١٨٩-**المحاسن والمساوىء** للبيهقي، ص٦٥.

٧٦-انظر: أحداث معركة الحرة في **المحن** ص١٤٦/١٥٥.

٧٧-المسعودي، **مروج** ج٣ ص٦٨/٦٩-بيضون، ص٢٧٠ **الحجاز**-**الكامل**: ج٤ ص٨٨/٨٩.

٧٨-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٠/٤٩٠-انظر فيما سيأتي من هذا البحث.

٧٩-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٠-**الكامل**، ج٤ ص١٠٣، البلاذري، **أنساب** مخطوطة ورقة ج١ ص١٢١/٣٢٩ بيضون، ٢٧٢، **الحجاز**.

٨٠-**الطبري**، ج٥ ص٤٨١-**الكامل**، ج٤ ص١٠٤-البلاذري، **أنساب** ج٤ ق٢ ص٣٢ **النويري**. ج٢ ص٤٨٧.

٨١-البلاذري، **أنساب** ج١ ص٢٢١/٢٢٥-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٢.

٨٢-انظر فيما سبق من هذا البحث.

٨٣-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٧-**خليفة** ج١ ص٢٩٠.

٨٤-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٢-**الكامل** ج٤ ص١١١-ابن سعد: **الطبقات** ج٥ ص٦٦/٦٨.

٨٥-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٢-**الكامل** ج٤ ص١١٣.

٨٦-**الكامل**، ج٤ ص١١٢-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٦.

٨٧-**خليفة**، ج١ص٢٩٠-**الكامل** ج٤ ص١١٢-**الطبري**، ج٥ ص٤٩٥ (قيل كان قدوم مسلم لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستون فانتهبوا المدينة ثلاثا) **المحن**، ص١٥٨.

٨٨-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٣-**الكامل**، ج٤ ص١٢١/١١٢.

٨٩-**الطبري**، ج٥ ص٥٠٢/١٨٢-بيضون، **الحجاز** ص٢٧٥-**الكامل**، ج٤ ص١٢٩.

٩٠-**المحن**، ص١٥٨/١٤٦-البلاذري: **أنساب**: مخطوط ٣٣٣-**الكامل**: ج٤ ص١٢٣/١١٧/١١٦.

٩١-**خليفة**: ج١ ص٢٩١-**الطبري**، ج٥ ص٤٩٥-**الكامل**، ج٤ ص١١٨/١١٧.

٩٢-**الطبري**، ج٥ ص٤٩٥-**الكامل** ج٤ ص١١٨-**المحن** ص١٥٠/١٤٨

-ابن قتيبة **الإمامة** ج١ ص١٨٠

-ابن سعد: **الطبقات**: ج٥ ص٣٩، حيث يورد ابن سعد أن مروان عاد مع مسلم واشترك في معركة الحرة وقدم مساعدات كبيرة لمسلم.

٩٣-**المحن**، ص١٥٨.

-بيضون: **الحجاز** ص٢٧٨.

٩٤-**المحن**، ص٢٥٨.

٩٥-**المحن**، ص١٥٩.

٩٦-**المحن**، ص١٦٠-**الطبري**، ج٥ ص٤٩١/٤٩٠-**الكامل**، ج٤ ص١٢١/١٢٠، **خليفة**، ج١ ص٣٠٢/٢٩٢.

٩٧-**المحن**، ص١٧٢، **الطبري**، ج٥ ص٤٩٢-**الكامل** ج٤ ص١٢١/١١٤.

٩٨-**الطبري**، ج٥ ص٤٩٢/٤٨٤-**المحن**، ص١٦٠-**الكامل** ج٤ ص١١٩/١١٦.

٩٩-ابن قتيبة، **الإمامة** ج١ ص٢٠١-طه حسين: **في الأدب الجاهلي** ص١٢٣، فلـهاوزن: **تاريخ الدولة العربية** ص١٥٨.

١٠٠-**الإمامة**، ج١ ص١٩٩-**الكامل**، ج٤ ص١٢٠.

١٠١-**الطبري**، ج٥ ص٣٨٣. وانظر: نبيه عاقل: **خلافة** ص١٠٣/١٠٥.

١٠٢-**الطبري**، ج٥ ص٣٨٣.

١٠٣-**الطبري**، ج٥ ص٣٧٤/٣٧٦. وانظر: نبيه عاقل: **خلافة** ص١٠٦.

١٠٤-**الطبري**، ج٥ ص٤٧٤/٤٧٥.

١٠٥-**الطبري**، ج٥ ص٥٠٨/٥٠٩-**الكامل**: ج٣ ص٢٤٠/٢٦٢.

١٠٦-**الطبري**، ج٥ ص٤٧٤/٤٧٥-**الكامل**، ج٤ ص٩٨.

١٠٧-**المصادر السابقة**.

١٠٨-**الطبري**، ج٦ ص١٥٦/١٥٧-**الكامل**، ج٤ ص٣٠٦/٣٠٩، ص٣٢٣/٣٢٤.

١٠٩-**الطبري**، ج٥ ص٤٩٩/٥٠٢-**الكامل**، ج٤ ص١٢٩.

١١٠-**الطبري**، ج٥ ص٤٧٥/٤٨٥-**الكامل**، ج٤ ص١٢٩/١٣٠.

١١١-البلاذري، **أنساب** ج٤ ق٢ ص٢٤، جاء الخبر في أحداث سـنة ٦٠ هـ، **الطبري**، ج٥ ص٣٤٦ وج٢ ص٢٢٧ على لسان أبو شريح بدلا من رافع.

١١٢-**الطبري**، ج٥ ص٣٤٦/ **الكامل**، ج٤ ص٩٩-**البلاذري**، ج٤ ق٢ ص٢٣-أبـو الفداء، **المختصر** ج١ ص١٨٩.

١١٣-الدينوري، **الأخبار**، ص٢٦٤-الواقدي، **المغازي**، فتوح الشام، ص البـلاذري، **أنساب الأشراف**، ج٤ ق٢ ص٢٠. (وقد أشارت أصابع الإتهام إلى مصعب بن الزبير لحرق الكعبة).

١١٤-**المصادر السابقة**.

١١٥-البلاذري، **أنساب** ج٤ ق٢ ص٤٧-**الطبري** ج٥ ص٤٩٧-**النويري** ج٢٠ ص٤٩٧.

١١٦-**الطبري**، ج٥ ص٥٨٢/٤٩٧، ص٥٦٩/٥٦٢-وعن حركة المختار وثورته يمكن العودة إلى البلاذري، **أنساب** ج٥ ص٢٧٣/٢١٤-**اليعقوبي**، ج٢ ص٢٦٤/٢٥٨-**مروج الذهب**، ج٣ ص١٠٧/١٠٤ سهيل زكار، **تاريخ العرب والإسلام** ص١٧٨/١٨٥.

١١٧-**اليعقوبي**، ج٢ ص٢٤٨/٢٤٧-**الكامل**: ج٤ ص١٢٨/١٢٧.

١١٨-**المصادر السابقة**-وانظر المسعودي، **مروج** ج٣ ص٧٦.

١١٩-ابن قتيبة: **الإمامة والسياسة** ج٢ ص١١.

١٢٠-المسعودي **مروج** ج٣ ص٦٧.

١٢١-البلاذري، **أنساب** ج١ ص٣١٦-**المسعودي**، ج٣ ص٧٧-أبو عبد الله الجدلي: **أنساب** ج١ ص٣١٧.

١٢٢-المسعودي، **مروج** ج٣ ص٧٧-بيضون، **الحجاز** ص٢٩٧-وانظر **طبقات** ابن سعد ج٥ ص٩١/١٠٠/١٠٥.

١٢٣-البياس: **الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام**، مخطوطة ورقة ٣٢، دار الكتب المصرية رقم٣٩٩ تاريخ-بيضون، **الحجاز** ص٢٩٨.

١٢٤-البلاذري، **أنساب** ج١ ص٢٣٢-**الكامل** ج٤ ص١١٢-عبد المنعم ماجد، **التاريخ السياسي**، ج٢ ص٨٨-طه حسين: **في الأدب الجاهلي**: ص١٢٣-بيضون، **الحجاز** ص٢٩٩.

١٢٥-**الكامل**، ج٤ ص١٢٤.

١٢٦-وعلى رأس هؤلاء عمر بن سعد بن العاص، وعبيد الله بن زياد مسلم بن عقبة المري. والحصين بن نمير.

١٢٧-**الطبري**، ج٥ ص٤٨٤.

١٢٨-**الطبري**، ج٥ ص٤٩٧.

١٢٩-**الطبري**، ج٥ ص٥٣٠ **الكامل**، ج٤ ص١٤٥.

١٣٠-**الطبري**، ج٥ ص٥٣٠، **الكامل**، ج٤ ص١٢٥.

١٣١-الجابية: قرية من أعمال دمشق، من ناحية الجولان قرب مرج الصغير في شمال حوران إذا وقف الإنسان في الصنمين واستقبل الشمال ظهرت له، وتظهر من نوى أيضا، بالقرب منها تل يسمى تل الجابية. انظر، ياقوت، **معجم** ج٢ ص٩١ **(مادة الجابية)**.

١٣٢-مرج راهط، بنواحي دمشق وهو أشهر المروج في الشعر. انظر ياقوت **معجم** ج٥ ص١٠١ **(مادة مرج)** انظر **الكامل**، ج٤ ص١٤٧ المسعودي، **مروج** ص٧٣. **فلها وزن** ص١٦٩.

١٣٣-البلاذري، **أنساب**، ج١ ص٣٤٣.

١٣٤-انظر الروايات المختلفة حول هذه الحادثة.

-**الطبري**، ج٥ ص٤٩٨-الأزرقي، **أخبار مكة**، ج١ ص١٩٧/١٩٨.

-**البلاذري**، ج١ ص٣١٣/٣٤٥-**فلها وزن** ص١٦٢.

١٣٥-**الكامل**، ج٤ ص١٤٤.

١٣٦-البلاذري، **أنساب** ج١ ص٣٤٥.

١٣٧-**البلاذري**، ج١ ص٣٤٣، **الطبري**، ج٥ ص٥٠٢، **الكامل**، ج٤ ص١٣/١٢٩.

١٣٨-**الإمامة والسياسة**، ج٢ ص١٣/١٤-**الطبري**، ج٥ ص٥٠٢-**الكامل**، ج٤ ص١٣٠.

١٣٩-البلاذري، **أنساب** ج١ ص٣٥١.

١٤٠-**الإمامة**، ج٢ ص١٤، ابن الأعثم، **الفتوح** ج٤ ص١٨٣.

١٤١-**الطبري**، ج٥ ص٥٠٢ **الكامل**، ج٤ ص١٢٩/١٣٠.

١٤٢-انظر فيما سبق من هذا البحث-الدوري، **مقدمة**: ص٦١/٦٢.

١٤٣-**الطبري**، ج٥ ص؟

١٤٤-**الطبري**، ج٦ ص١٦٢، **فلها وزن**: ص١٩٥.

١٤٥-**الطبري**، ج٦ ص١٥١/١٦٢-**الكامل**-ج١ ص٣٢٣.

١٤٦-**اليعقوبي، تاريخه** ج٢ ص٢٧٤.

١٤٧-انظر: **الإمامة والسياسة**، ج٢ ص٢٣ موقفه «من وفد العراق الذي اصطحبه أخوه إلى مكة» وانظر: أحمد العلي، **العطاء في الإسلام**، ص٢٢، وبيضون، **الحجاز** ص٣١٤/٣١٦/٣٤٦.

الصراع على زعامة التحزب الهنائي في ساحل عمان

من خلال أحداث عام ١٨٤٥

في ضوء الوثائق البريطانية

د. محمد حسن العيدروس

كلية الآداب – جامعة الكويت

الصراع على زعامة التحزب الهنائي في ساحل عمان من خلال أحداث عام ١٨٤٥ في ضوء الوثائق البريطانية

مقدمة:

تعدّ دراسة نشأة الإمارات في ساحل عمان، في القرن الثامن عشر وتطوراتها، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أمراً ضرورياً لفهم التاريخ الحديث لدولة الإمارات العربية المتحدة التي ورثت تراث وتاريخ هذه الحقبة الطويلة بسلبياتها وايجابياتها. وفي خلال تلك الفترة، جرت أحداث وصراعات، في صور شتى، منها التحالفات السياسية ومنها المحاولات الإنقلابية، والإطاحة بالحكام. ولا شك في أن دراسة الصراعات السياسية في ساحل عمان سوف تكشف مدى تأثير السياسة البريطانية في القضايا الداخلية، سياسية كانت أم عسكرية، كما أنها توضّح موقف الحكام والسكان من هذه السياسة ومن سيطرة حكومة الهند على شؤون الخليج العربي بصفة عامة وساحل عمان بصفة خاصة.

تلقي هذه الدراسة الكثير من الأضواء على جوانب عديدة تعين على فهم السياسة البريطانية ذاتها وتبين لنا مدى صدق البريطانيين في تطبيق سياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية لساحل عمان. والواقع لم يتطرق إلى هذه الدراسة إلاّ القليل من المؤرخين المحدثين وبصورة عابرة أو عدم الفهم. ويمكن إرجاع ذلك إلى عدم الإعتماد على الوثائق أحياناً أو صعوبة الوصول إليها أحياناً آخرّ، ولهذا تعدّ هذه الدراسة من الدراسات التي تعتمد على الوثائق البريطانية المباشرة والتي تكشف أحداثاً وملابسات جديدة لعام ١٨٤٥ في تاريخ ساحل عمان، ولا سيما أن أحد موظفي حكومة الهند«كالوكيل الوطني» في الشارقة، كان أقرب إلى الأحداث ومعاصراً لها فكتب عنها عن كثب عقب وقوعها، مباشرة بوصفه شاهد عيان، إلى رؤسائه كالمقيم

السياسي البريطاني في الخليج العربي، الذي قام بدوره برفع تلك المعلومات إلى حكومته في الهند، قبل أن تتخذ حكومة الهند أو المقيم السياسي البريطاني أية خطوات تجاه تلك الأحداث الداخلية. والسياسة البريطانية في تلك الفترة كانت تأتي بعد قيام الحدث وبعد إجراء دراسة مستفيضة من كافة الجوانب لتلك الأحداث، وذلك حسب الأهمية للمصالح والإستراتيجية العليا لبريطانية.

التحزب الهنائي والغافري والتكوين السياسي لساحل عمان:

أصبحت عمان في حالة غير مستقرة نتيجة لسقوط دولة اليعاربة، وظهور التفكك السياسي في عمان منذ النصف الأول من القرن الثامن عشر، وذلك حينما انقسمت البلاد إلى حزبين سياسيين هما الحزب الهنائي والحزب الغافري. وتمخضت هذه الأحوال غير المستقرة عن أحداث تاريخية هامة منها ظهور موجات من الهجرة القبلية من عمان وحضرموت واليمن إلى سواحل الخليج العربي الجنوبي أو شمال عمان أي«ساحل عمان». وقد أدت هذه الهجرة في النهاية إلى ظهور تكوينات أو مجموعات سياسية جديدة في المنطقة ومن أهم هذه المجموعات المهاجرة قبائل: البوفلاح والرواشد العوامر، والمناهيل، وبني ياس، والمناصير، والظواهر، والحبوس وبني نقب والطنيج والشرقيون، واستقر بهم المقام في أبو ظبي «دبا» خورفكان-رأس الخيمة-وكما شهد ساحل عمان في ذلك الوقت نمواً وازدهاراً للقرى الصغيرة القديمة. ولعب ظهور التحزب الغافري في ساحل عمان، الذي تزعمه القواسم، حكام رأس الخيمة، وكذلك ظهور الحزب الهنائي، في ساحل عمان، الذي تزعمه آل بوفلاح، حكام أبو ظبي، دوراً بارزاً في تعزيز الإنفصال بدلاً من تعزيز الوحدة العمانية بل أدّى إلى انقسام ساحل عمان نفسه إلى قسمين: القواسم في الشمال والبوفلاح في الجنوب، وحال منذ ذلك الوقت دون قيام الوحدة أو الإتحاد حتى عام ١٩٧١، أي قيام دولة الإمارات العربية المتحدة.

ظلّ هذا التحزّب الهنائي والغافري قوياً بين سكان ساحل عمان طوال القرن التاسع عشر، كما ظل فترة طويلة في القرن العشرين. وتنقسم قبائل عمان منذ القرن الثامن عشر إلى كتلتين كبيرتين سياسيتين، هما الكتلة الهنائية والكتلة الغافرية وتؤيد القبيلة الهنائية أو الغافرية. مثيلاتها من القبائل في الحروب الداخلية والقضايا العامة وقتذاك في عمان.ولا شك أنه كان لكل من الكتلتين زعامات خاصة بها في اتجاه عمان. وقد ضعفت هذه العصبية كثيراً في السنوات الأخيرة، أي منذ قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في (ساحل عمان)، وبعد قيام حكم مركزي في عمان منذ تولي قابوس. إذ تغيرت ولاءات القبائل والسكان نحو الدولة الحديثة بكل مقوماتها، وقد ظهر هذان الحزبان السياسيان في أواخر أيام دولة اليعاربة التي حكمت عمان الموحدة مدة مائة وسبعة عشر عاماً (١٦٢٤-١٧٤١). وتعدّ هذه الدولة من أقوى الدول التي شهدتها ليس عمان وإنما منطقة الخليج العربي في التاريخ الحديث، وأكثرها ازدهاراً ونشاطاً خارجياً. وقد تمكن أئمة دولة اليعاربة من تحرير عمان من الإحتلال البرتغالي لسواحلها ثم تعقبوهم إلى سواحل الهند وساحل أفريقية الشرقية، التي استطاعوا أن يحكموها إضافة لحكم البحرين وجزيرة هرمز وقشم. وكان لعمان في عهدهم اسطولٌ حربي وتجاري كبير، وبعد موت الإمام سلطان بن سيف اليعربي عام ١٧١٨، وهو خامس ائمة اليعاربة، اجتاحت البلاد فتنة كبيرة حول تولي الحكم، اذ كان ابنه سيف بن سلطان الثاني صغير السن لم يبلغ الحلم. وظهر في الميدان السياسي شخصيتان كبيرتان قادتا الحرب الاهلية الاولى، خلف بن مبارك الهنائي. وينتسب لقبيلة بني هنة. والثانية محمد بن ناصر الغافري، وينتسب لقبيلة بني غافر، وانقسمت قبائل عمان كافة في تاييدهذينَ الزعيمين. وعلى الرغم من أنهما قتلا اثناء الصراع فيما بينهما، خارج حصن صحار، عام ١٧٢٨م، إلا أن طول فترة الانقسام التي عاشتها عمان، وانتشار المعارك الأهلية في طول البلاد وعرضها ترك، هوة عميقة بين كتل القبائل الهنائية وكتل القبائل الغافرية. وأودى هذا النزاع وهذا الانقسام بطبيعة الحال بدولة اليعاربة عام ١٧٤١م. ولا شك في أن هذا النزاع ترك أثره الكبير على القبائل التي تسكن ساحل عمان. ومع ظهور حكام البو سعيد في عمانِ عام ١٧٤١، ظهرت قوتان

سياسيتان جديدتان على ساحل عمان الشمالي والجنوبي استقلتا عن البو سعيد في عمان (١):

القوة الاولى : الحزب الغافري لساحل عمان:

يتألف هذا الحزب من حلف قبائل يتزعمهم القواسم الذين تزعموا الحزب الغافري المعارض لتولي أحمد بن سعيد الحكم في عمان، والتي ساندتها القباءل الهنائية. وكان مقرهم راس الخيمة ويمتد نفوذهم على ساحل الشمالية على خليج عمان، وعلى ساحل الخليج العربي حتى الشارقة. ويتألف الحزب الغافري في المنطقة من القبائل التالية: النعيم بفروعها الثلاثة وهي البوشامش والبو خريبان والخواطو. – ال على – طنيج –الغفلة – بني نقب – بني كعب.

القوة الثانية: الحزب الهنائي لساحل عمان:

يتألف هذا الحزب من حلف قبائل يتزعمهم البو فلاح الذين يساندون حكم احمد بن سعيد في عمان، ويمتد نفوذهم من دبي على طول ساحل عمان حتى حدود قطر في خور العديد، ويتألف الحزب الهنائي في المنطقة من القبائل التالية: الرواشد ومنهم البو فلاسية، العوامر – المناهيل – المناصير – بني ياس – الظواهر وهي جميعها قبائل أبو ظبي.

التحزب النهائي في أبوظبي:

ظهرت هجرة من افراد القبائل الهنائية ساحل عمان من « الظفرة» في الداخل عام ١٧٦١ الى الساحل في مدينة أبو ظبي، التى سرعان ما كثر عدد سكانها، وزاد البناء بها. ولكن ظلّ شيوخ البو فلاح يديرون شؤون الحكم من واحة في ليوا في

الداخل، حتى اتخذ شخبوط بن دياب،١٧٩٣، من مدينة أبو ظبي الناشئة، عاصمة لـه. وهي خطوة جريئة ذات أثر سياسي واقتصادي بالغ في حياة الإمارة، إذ فتحت القبائل الهنائية ساحل عمان في أبو ظبي نشاط البحر بخيراته الواسعة في التجارة والملاحة والغوص. وانتشرت بقية افراد القبائل على الجزر العديدة المقابلة لساحلهم. ومن هنا تبدا جزيرة دلما تاريخها في عالم الغوص واللؤلؤة أثناء القرن التاسع عشر. ويعتبر شخبوط بن دياب من الشخصيات الهامة في تاريخ أبو ظبي. وقد امتد حكمه حتى عام ١٨١٦، حينما ترك الامر لابنه الاكبر، محمد ثم أقام في العين حتى وفاته (٢). وقام طحنون بن شخبوط، في عام ١٨١٨ باسقاط أخيه الحاكم محمد بن شخبوط عن سدة الحكم وتولى المسؤلية بدلا عنه. وكان طحنون يمثل حزبا معارضا لسياسة أخيه محمد،حيث كان يرى ضرورة الانضمام الى الجبهة المساندة لحاكم عمان.

تم هذا الانقلاب بموافقة الوالد، وبتمويل من السلطان سعيد، حاكم عمان. فقام طحنون بانقلابه بنجاح وأجبر أخاه على ترك البلاد، فهرب محمد وتوجه بحرا إلى قطر ونزل مدينة البدع، ومن هناك طلب اللجوء السياسي عند آل خليفة حكام البحرين فاجأبوه الى ذلك. وفي عهد طحنون قامت بريطانية باحتلال ساحل عمان. ووقعّت مع حكامها اتفاقية السلام العامة لعام ١٨٢٠، والتي بموجبها أصبح ساحل عمان تحت الحماية أو السيطرة البريطانية. لقد شكل مجيء طحنون إلى السلطة في أبو ظبي من عام ١٨١٨ إلى عام ١٨٣٣ عنصر قوة للإمارة. لأنه كان شخصية انضباطية قيادية ممتازة، ذا أفكار متحررة، واستطاع بناء جيش قوى كما امتاز بالانضباط العسكري الشديد، وفرض سيطرته في المنطقة، وكان قاسياً على أخيه «خليفة بن شخبوط»، حتى منعه من حمل السلاح ما دام في البلاد. ويقال انه سمع ذات يوم صوت طلقة نارية في ظاهر البلاد، فاستفسر عن مصدرها فعلم أن أخاه خليفة يصطاد الطيور، فأمر بإبعاده إلى خارج البلاد. وحاول والدهم إصلاح الخلاف ولكنه لم ينجح. وكان محباً لخليفة الذي وجده ذات ليلة في أبو ظبي عام ١٨٣٣ يصلح رميا لبندقيته، فقال له: ما جاء بك وأخوك يبحث عنك دوماً؟ فأجاب خليفة: جئت لأصيد طيراً. ففهم الوالد

أنه يحاول قتل طحنون فلم يعترض عليه، لأن في قلب شخبوط حقدّ على ابنه طحنون، لعدم قبول شفاعته في خليفة، وردّه إلى أبو ظبي. فلما جاء الصباح كمن له في طريقه فرماه فلما خرّ طحنون صريعاً قيل أنه ركض وضربه بخنجر وقيل أن أخاه الآخـــر سلطان هو الذي ضربه بخنجر (٣) وتولى السلطة في أبو ظبي.

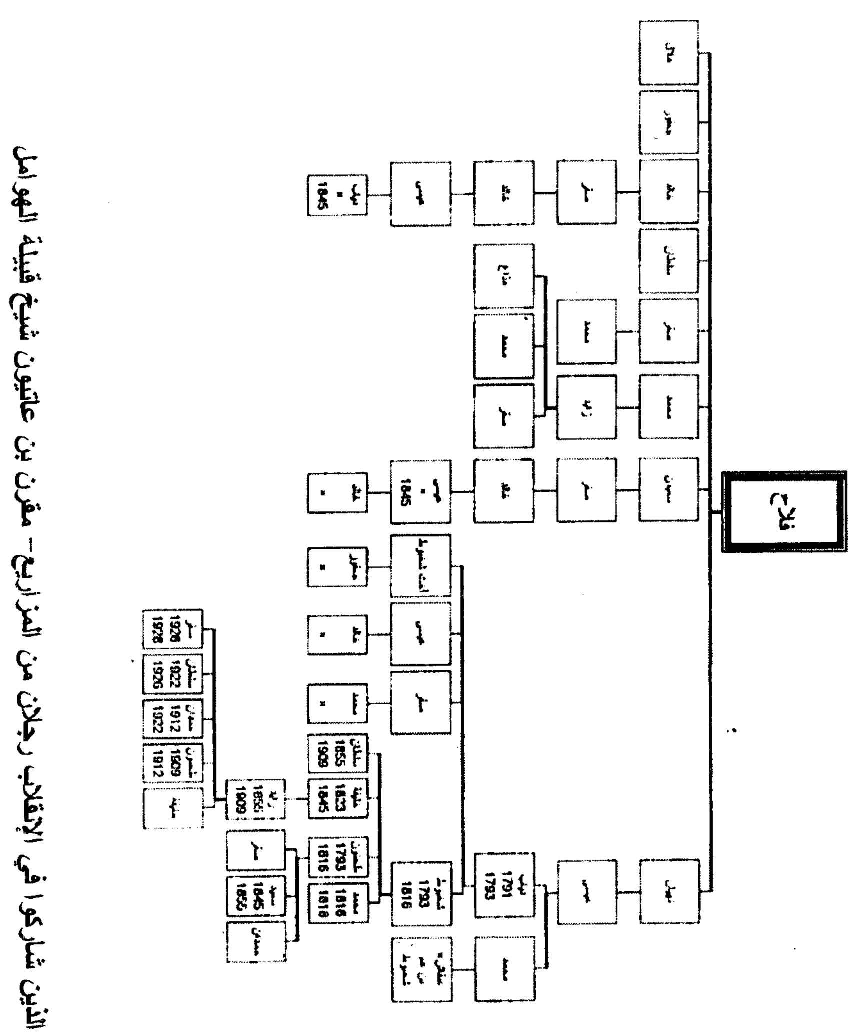
أحداث عام ١٨٤٥:

لم تخل زعامة خليفة بن شخبوط للحزب الهنائي في أبو ظبي من الطامعين في الحكم، وهم أقرباؤه وأولاد عمه. ويقول فالح حنظل في كتابه عن «تاريخ الإمــارات العربية»: «إذ تشكلت في هذا العام وربما في نهايته نواة حزب سياسي معارض ينوي الإطاحة بالحكم والإستيلاء على السلطة بقيادة أحفاد «سعدون بن فلاح الأول». فعندما انتقل الزعيم الأول فلاح إلى رحمة الله، خلف أولاداً وهم نهيان وســعدون وسـلطان وصقر ومحمد وخالد، في حين قتل صقر ومحمد، ثم آلت الزعامة إلــى أولاد أحفــاد نهيان فكان سعدون هو أخ نهيان وكان الحزب المعارض هذا من أحفاد «ســعدون»، أما المتآمرون فيقال أنهم ثمانية ذكر منهم «لوريمر»، عيسى بن خالد وخالد بن عيسى وذياب بن عيسى ورجل آخر اسمه «جعفور»، أما المطوّع فذكر أنهم كانوا، عيســى بن خالد وذياب بن عيسى وفتيان من آل نهيان وعلى رأسهم رجل يسمى «عنقاشــا». ولكن لوريمر أخطأ إذ وضع عيسى بن خالد وولده خالد وكأنهم أحفاد خالد بن فــلاح والأصح حسب الرواية المحلية التي تذكر الحادثة بأنها حادثة «عيال سعدون»، فــهم إذن أحفاد سعدون بن فلاح». إضافة إلى ذلك أقرباء شخبوط بن ذياب وما ذكره مــلا حسين «الوكيل الوطني البريطاني» في الشارقة أقرب إلى الصحة، فقد رفع مذكــرة مباشرة بعد وقوع الحادثة في ١٨٤٥/١/١٥، إلى الرائــد هنيــل المقيــم السياســي البريطاني في الخليج العربي جاء فيها:

«كنت أستعد للتوجه إلى عجمان وأم القوين ورأس الخيمة بعد مغادرة مســاعد المقيم السياسي البريطاني لتقصي الأمور والإستفسار عن أعمال ملاحي السفن، التــي

وصلت مؤخرا من زنجبار وساحل إفريقية الشرقية، ولأقدم إلى جميع شيوخ ساحل عمان هدايا مرسلة من الحكومة البريطانية إليهم وفي هذه الفترة علمت بحدث هام في أبو ظبي».

اتفق أحد عشر رجلا وهم أقرباء خليفة بن شخبوط وشقيقه سلطان منذ مدة طويلة على التخلص منهما، وهم «عيسى بن خالد» وابناه ويعد عيسى ابن أخت شخبوط بن دياب، و«خالد ابن عيسى بن دياب» وهو ابن شقيق شخبوط، و«جعفور» وهو ابن أخت شخبوط، و«عنقاش» وهو ابن عم شخبوط، وابن«محمد بن صقر» شقيق شخبوط ورجلان من قبيلة المزاريع، و«مقرن بن عانيون» شيخ قبيلة «الهوامل» فإن هؤلاء الأحد عشر كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للقيام باغتيال خليفة وشقيقه سلطان وحجز ممتلكاتهم وإبلهم وتعيين عيسى بن خالد زعيما لأبو ظبي بدلا من خليفة وسلطان ليحكموا قبائل أبو ظبي، في حين أصبح الباقون زملاءهم (٥)..ولكن لم يرد في هذه الوثيقة سوى ثمانية أسماء فقط، وإذا ما أضفنا ولدي عيسى بن خالد فيصبح العدد عشرة فقط. وفيما يلي نسب البوفلاح وأعضاء مجلس قيادة الإنقلاب:



الذين شاركوا في الانقلاب رجلان من المزاريع- مقرن بن عاتيون شيخ قبيلة الهوامل

وهناك عدة آراء حول حادثة الإنقلاب هذه، ويمكن إيجازها بما يلي:

الرأي الأول لفالح حنظل ويقول:

لم تكن الأحوال تهدأ حتى ثارت الفتنة العمياء في أبو ظبي. فلقد كان حزب أحفاد سعدون بن فلاح بقيادة عيسى بن خالد وذياب بن عيسى يعمل ليلا ونهارا لإنجاح خطة إنقلابية في أبو ظبي، وعندما حل موسم الصيف وتهيأ الرجال لرحلة الغوص الكبير، فغادر «سنيار» أي اسطول سفن أبو ظبي إلى المغصات وعليه معظم رجال المدينة بحيث كادت المدينة تخلو من الرجال. كانت تلك الفرصة التي ينتظرها رأس المؤامرة عيسى بن خالد، الذي شكل ما يشبه مجلس قيادة ثورة من ثمانية أعضاء وقرروا اغتيال الحاكم خليفة، وأسندوا تلك المهمة إلى رجل إسمه «عنقاش». وفي حوالي شهر أيار، خلت المدينة من الرجال إذ لم يبق مع خليفة إلا أخوه سلطان وقوة صغيرة من الحرس الخاص، فسنحت الفرصة للتنفيذ وتم تعيين ساعة الصفر عندما وصلت معلومات إلى عيسى بن خالد بأن خليفة وأخاه سلطان سيتوجهان غدا لتناول طعام الغذاء على ظهر سفينة تابعة لبعض رعايا البحرين الذين قدموا إلى أبو ظبي لغرض المتاجرة باللؤلؤ وإن الحاكم وأخاه سيتوجهان إلى هناك بحرس قليل معهم. ومنذ الصباح الباكر كان أعوان عيسى بن خالد قد انتشروا في المدينة وقرب القصر الأميري، وعندما حل الظهر توجه الأخوان خليفة وسلطان إلى السفينة حيث استقبلهما البحارة بحفاوة وتناولوا الغذاء سويا على شاطىء البحر، وبعد الغذاء قرر خليفة أن ينام القيلولة هناك في ظل السفينة الراسية، أما سلطان فلقد عاد إلى قصر الحصن وبعد أن نام خليفة ومن معه وثب عليهم عيسى بن خالد وزمرته فأطلقوا النار على خليفة وهو نائم فأردوه قتيلا ثم توجه المتآمرون نحو قصر الحصن، حيث دخلوا إلى هناك بقيادة «جعفور» وفاجأوا سلطان بعدة طعنات من خناجرهم قضت عليه في الحال(٦).

الرواية الثانية للمطوع في الجواهر واللآلئ تقول :

إن «عنقاش» رئيس زمرة التنفيذ وزع زمرته على ثلاثة أقسام، قسم لاغتيال خليفة في الطريق، وقسم لاغتيال سلطان، وكانت زمرة اغتيال سلطان تجلس معه في مجلسه، وهناك زمرة اقتحام كانت ترابط في باب قصر الحصن. وعندما ترك خليفة بن شخبوط مجلسه العام متوجها نحو قصر الحصن وصل إلى الكمين وهناك خرج له «عنقاش» وجماعته وأطلقوا عليه النار فأردوه قتيلا. وعلى صوت إطلاق النار قامت جماعة التنفيذ الثانية الموجودة بمجلس سلطان فاستلوا خناجرهم وأهووا بها على جسد سلطان الذي كان نائما وملتفا بقماش«اللاس» فنام نومته الأبدية،ثم قامت جماعة الإقتحام بإطلاق النار على حرس القصر فاقتحموه ودخلوا إليه وأعلنوا ولاية عيسى بن خالد (٧).

الرواية الثالثة لجون بن كيلي تقول :

ظلت الحالة هادئة هدوءا مشوبا بالقلق في المنطقة الشمالية من عمان أي «ساحل عمان» خلال الفترة الباقية من عام ١٨٤٥، وقد عادت الأمور فاضطربت بشكل خطير عندما اغتيل كل من خليفة بن شخبوط شيخ أبو ظبي وأخيه سلطان، من قبل أحد أفراد آل بفلح في نهاية الصيف، غير أن القاتل قتل هو الآخر من قبل بعض أتباع سعيد بن طحنون نجل الزعيم السابق طحنون بن شخبوط الذي وقع صريع ضربة نصل بن خليفة بن شخبوط في شهر نيسان ١٨٣٣ (٨).

الرواية الرابعة لملا حسين الوكيل المحلي البريطاني في الشارقة تقول :

كان سلطان مدركا للعداوة التي بدت من عيسى بن خالد وأنجاله، وبرغبتهم في التخلص من حراسه لكي يذبحوه. واستنجد بأخيه خليفة كي يبعد كلا من عيسى وأبنائه

من أبو ظبي والمذكورين آنفا. إلا أن ذلك لم يأت بنتيجة لأن خليفة لم يكن يعتقد بأنهم سوف يرتكبون مثل هذه الجريمة البشعة.

فمنذ أن تولى«سلطان وخليفة» السلطة كانا يعاملان عيسى وأبناءه بالمودة والإحترام ويعدانهم من الزملاء المقربين، نظرا لأنهم على إتصال دائم بهم، ويتناولون الطعام معهم مما يبعد الشكوك عما يفكر به خليفة. عاش المتآمران عيسى وشقيقه بهدوء في أو ظبي وهما يضمران العداوة ضد«خليفة وسلطان» حتى تفرق السكان وتوزع غواصو اللؤلؤ في البحر. كما توزع سكان الحضر والبدو في مزارع النخيل في«ليو» و«الظفرة» و«الختم» وفي ضواحي مدينة العين وأبو ظبي، حتى أن شخبوط ذهب إلى مزارع النخيل التي يملكها في البريمي، وبقى الكثيرون في أبو ظبي مثل خليفة بن شخبوط وأخيه سلطان وبعض التجار ووجهاء القبائل وآخرين لا يعملون في الصيد وبعض البحرانيين والأجانب (٩).

عزم عيسى بن خالد عندما رأى أن البلد خالية من السكان على إغتيال الشيخين خليفة وسلطان. ففي يوم الجمعة ٢٨ جمادى الثاني الموافق ٤ تموز وقبل الظهر، اجتمع الجميع ومعهم الشيوخ وخمسة رجال ينتمون إلى خليفة على الشاطئ تحت ظل سفينة «بتيل»، ثم وجه كل من خليفة وشقيقه الأوامر إلى الذين جلبوا معهم الطعام المعتاد ...إلخ. وبعد تناول الجميع الطعام والشراب جرت مناقشة حول مواضيع تافهة وغير هامة، وقام بعدها سلطان وجلس مع شخص للتحدث عن عمل، وبعد انتهائهما من ذلك ذهب إلى الشاطئ حيث تبعه أبناء عيسى بن خالد وخالد بن عيسى بن دياب وبعض الرجال من قبيلة المزاريع، كأنهم يطلبون منهم شيئا لا قيمة له، وعندما اقتربوا من سلطان بن شخبوط سحبوا فجأة خناجرهم وطعنوه(١٠).

لحق خليفة بأخيه عندما سمع ضربات الخنجر، حاول أن يدافع عنه ولكن عيسى بن خالد ومن معه سحبوا خناجرهم دون أن يمكنوه من الفرصة للدفاع عن نفسه وطعنوه اثني عشر جرحا، ثم تركوا خليفة وشقيقه كل منهما ملقى على الأرض، ثم أسرع عيسى بن خالد وأبناؤه واستولوا على الحصونِ ودخلوا منازل الشيوخ

وطردوا نساءهم وأطفالهم وسلبوا كل ما لديهم من مقتنيات، وأرسلوها إلى الحصن، ثم كتب عيسى بن خالد باسم الشيخين المقتولين رسائل وأرسلها سرا على الفور عن طريق البر إلى المسؤولين عن الجياد والإبل يطلب منهم أن يأتوا بالجياد في الحال إلى أبي ظبي. بدأ الخوف والرعب في المنطقة بين السكان بسبب حدوث الأعمال العدائية المذكورة آنفاً. استدعى عيسى بن خالد جميع وجهاء العشائر فورا وهم راشد بن فاضل شيخ عشيرة «المرور»، وخادم بن نهيان وشقيقه شيخي قبيلة «القبيسات»، وبطي بن سويدان شيخ عشيرة المحاربة، وخادم بن مطر شيخ عشيرة الرميثات، وصالح بن سيف وخليفة بن خميس شيخي عشيرة السودان، وسعيد بن سهيل شيخ عشيرة البوفلاسة، وعلي بن سعيد شيخ عشيرة المغالبة، وبطي بن عمير شيخ بوبهير، وواحد من شيوخ عشيرة قمزان وشيبان بن حسين وشقيقه زعل ومحمد بن نهد، إلا أنهم رفضوا في بادئ الأمر أن يقوموا بزيارته حتى أرسل عيسى بن خالد إليهم شيبان بن حسين الذي رتب الأمور بشكل مرض فيما بينهم. ثم بعد ذلك ذهبوا إلى عيسى بشكل ظاهري لمنع حدوث أي إضطراب حتى يتم جمع العشائر. وبعد أن هداهم عيسى بن خالد قال لهم : «أنها مشيئة الله أن يموت خليفة وشقيقه إذ أن مصيرهما محدود، وعليكم الآن أن تختاروا من بيننا من هو حي بدلاً من ميت، وأنتم رجال شرفاء ومحترمون فليبقى كل واحد في مكانه الحالي كشيخ لعشيرته كما هو الحال من قبل وأنا لا أريد منكم سوى المساعدة والنصيحة حتى لا ينتصر علينا أعداؤنا(١١)».

يتابع الوكيل المحلي البريطاني تقريره بقوله : علمت أن بعض المذكورين آنفا من شيوخ عشائر بني ياس كانوا مسرورين من حديثه وراضين عما قام به بالنسبة لأبناء شخبوط وأن آخرين كانوا مشمئزين من ذلك، فقد انضموا واعترفوا بعيسى بن خالد كزعيم عوضاً عن خليفة بن شخبوط، ولكن الله وحده يعلم ما يضمرون في أنفسهم من مخططات حياله.

انتشر اتباع عيسى بن خالد في أرجاء العاصمة ينشرون الرعب والاضطراب وهم يدعون إلى مبايعة الحاكم الجديد عيسى بن خالد زعيماً لحزب الهنائي في ساحل

عمان وحاكم أبو ظبي، ومن داخل قصر الحصن كانت زوجة خليفة بن شخبوط قد تمكنت من الهرب مع طفليها زايد وذياب واستطاعت عبور نقطة المقطع، وبعد رحلة من العذاب وصلت هذه الأرملة المنكوبة ومعها ولديها إلى دبي، حيث حلت لاجئة عند مكتوم بن بطي الذي أكرم وفادتها، ثم ذهبت مع ولديها إلى أهلها وأخوتها من عشيرة السودان. وكان أخوها عبد الله ابن الهول السويدي، الذي بنى لها بيتاً في منطقة «اللية» في الشارقة لتعيش هناك ويعيش ولداها زايد وذياب في كنف خالهم عبد الله بن الهول السويدي، أما عيسى بن خالد وزمرته الثمانية فلقد احكموا قبضتهم على جزيرة أبو ظبي العاصمة (١٢)، في الوقت الذي اعترفت بهم بعض عشائر بني ياس، كان نفوذهم لا يكاد يذكر على بقية قبائل أبو ظبي الكبيرة مثل العوامر والمناهيل.

ذكرت الأخبار أن عيسى أرسل إلى سعد بن مطلق قائلاً : «إنها مشيئة الله تعالى بالنسبة لما حدث مع خليفة وشقيقه سلطان، فقد أصبحت بديلاً عنهما متمتعاً بنفس السلطة لقيادة قبائل أبو ظبي، وأنا احتفظ بشرعية ما حدث بينكما عن طريق معاهدة أو ميثاق ولن أقوم بنقض هذا الميثاق. وكتب إلى شيوخ قبائل النعيم والقبائل والحكام الآخرين وبعث شيبان بن حسين ومعه رسائل إلى مكتوم ووجهاء دبي وإلى سلطان بن صقر وابنه صقر، ورسالة إلى ملا حسين الوكيل الوطني البريطاني في الشارقة، والذي بدا من أسلوب رسالته له ومن كلام شعبان ابن حسين أن عيسى بن خالد متلهف لأن يقمع جميع الأعمال والانتهاكات الموجهة ضد المصالح البريطانية، وأنه ينبغي على قبائل أبو ظبي الهنائية أن تخضع لسلطته وتسوي الخلافات ودياً وأن تتوصل إلى تفاهم بطريقة سليمة مع مكتوم بن بطي وسلطان بن صقر وابنه صقر، ويقول ملا حسين الوكيل المحلي البريطاني في الشارقة في تقريره :

«علمت بأن مكتوم وصقر بن سلطان قد ردّا عليه بشكل مرض وهما يميلان إلى إقامة علاقات ودية، ولكنني أعتقد بأن مكتوم ينتظر جميع قبائل أبو ظبي فإذا أقر الجميع بسلطته وخضعوا له، فسيقوم هو وصقر بتوطيد العلاقات الودية وبتجديد الاتفاقيات معه، ولكنه سيعاملهم معاملة مختلفة، إذا رفضوه وتحولوا إلى أحد أبناء

شخبوط مثل هلال أو محمد أو جعفور أو إذا اتحدوا مع سعيد بن طحنون في العـــداء ضده وضد أصدقائه.

«سمعت بأن سعد بن مطلق عندما علم باغتيال خليفة وسلطان والاستيلاء على ممتلكاتهما من قبل عيسى وآخرين، أعطى أوامره بجمع قواته وجنده وأرسل في طلب هلال بن شخبوط وقبائل أبو ظبي المقيمة في الجهة الغربية للتحدث حـول موضـوع مهاجمته هو ومن معه في أبو ظبي إلا أن سعد بن مطلق سينقاد عن طريـق المـال وواضح إخلاص الرجل الذي يمكن جلبه عن طريق المال (١٣)».

يتضح من تلك الروايات الثلاثة الأولى عدم الوضوح، حيث أن الرواية الأولى والثانية يختلط فيها الحقيقة مع بعض الخيال، في حين الروايـة الثالثـة مقتضبـة ولا تعطي أو تشير إلى الحادثة بشكل واضح، في حين نجـد مذكـرة الوكيـل الوطنـي البريطاني في الشارقة تقريراً واضحاً عن ملابسات الحادث وهي أقـرب الروايـات السابقة إلى الواقع، ومعاصرة لتلك الحادثة في تلك الفترة، كما نلاحظ في هذه المذكرة بأن شخبوط ذهب إلى مزارعه في العين، مما يعني أنه لم يتوفً وما زال يعيش حتـى تلك الحادثة التي ألمت بابنه.

نلاحظ أيضاً من تقرير الوكيل المحلي البريطاني كيف استطاع عيسى بن خالد أن يقنع بقية شيوخ العشائر بالاعتراف به كزعيم عندما استدعاهم وطلب منهم ترشيح أحد الحاضرين كزعيم للحزب الهنائي في أبو ظبي، في حين لم يفرض عليهم نفسـه وإنما أجبرهم بطريقة ما فرض الأمر الواقع، وهو نوع من التحايل لكسب الشـرعية الشعبية بطريقة ديكتاتورية أو الحاكم الأوحد، حيث لم يكن أمام شيوخ العشائر خيـار آخر غير اختيار عيسى بن خالد خوفاً من أن تتحول البلاد إلى حـرب أهليـة تـأكل الأخضر واليابس، كما وعد بإبقاء شيوخ القبائل في مناصبهم من الناحية الاجتماعيـة والسياسية، وثم حاول الحصول على الاعتراف من القبائل الكبيرة في أبو ظبي ثم مـن القبائل والحكام المجاورين، حيث بعث برسائل لكسب الاعـتراف والحصـول علـى

شرعية حكمه من قبل حكام دبي والشارقة، وخاصة من البريطانيين، عندما بعث برسالة إلى الوكيل الوطني البريطاني في الشارقة.

رسالة عيسى بن خالد إلى المقيم السياسي البريطاني:

كما بعث عيسى بن خالد حاكم أبو ظبي رسالة إلى الرائد هنيكل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بتاريخ ١٠ رجب الموافق ١٦ يوليو ١٨٤٥ جاء فيها:

«لقد حدث ما قدر الله لنا وكان ذلك بسبب حماقة سابقة جرت بيننا وبشكل واضح مع أناس لهم نفس المزاج وليس لهم علاقات بمختلف طبقات الناس وكل من استولى على السلطة تصبح القبيلة بجانبه. ونتيجة لهذه الأعمال وجدت من المهم أن أكتب إليك حول موضوع الهدنة المبرمة التي شاركت فيها والمتعلقة بقمع الاضطرابات والأعمال الخارجة على القانون كالنهب والقرصنة في البحر (١٤).

«سيكون سلوكي إن شاء الله مطابقاً للشروط والالتزامات الواردة في الهدنة المبرمة وسأعمل حسب أوامركم وسأكف عن القيام بأي عمل تحظرونه وستكونون راضين بإذن الله عن أهدافي وقصدي ولي الشرف أن أقوم بتنفيذ أوامرك ورغباتك (١٥)».

نجد من رسالة عيسى بن خالد أنه يوضح للمقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، أن من يستولي على السلطة بالقوة تصبح القبائل بجانبه أي جميع الشعب يؤيده ويقف إلى جانبه مهما كان وكيفما كان سلوكه وتوجهاته، وأنه الحاكم الفعلي الأوحد، ولهذا يجب على بريطانية الاعتراف به كحاكم على أبو ظبي في الوقت الذي يقدم عيسى بن خالد ولاءه لبريطانية ويعمل على تلبية كافية مطاليبهم ويلتزم بجميع المواثيق والاتفاقيات، وخاصة الهدنة البحرية ويقدم أقصى التنازلات مقابل ذلك، كما

يلاحظ عنه وعن غيره، كان أقصى المطالب والسعى التي يسعون لـــها هـــو كســـب شرعية الحكم ممن ليس له الشرعية، بل هو استعمار مغتصب، وذلـــك فـــي ســـبيل الاحتفاظ بالحكم والسلطة الزائلة إن عاجلاً أو آجلاً ولا يدوم إلا الله وحده الدائم وهـــو على كل شيء قدير وليس بريطانية. وهذه الحقيقة لم يفهمها الحكام العرب حتى يومنـا هذا ممن يخلقون المآسي ويجلبون على الشعب العربي الكوارث والمحـــن والتخلـــف والتبعية وعبودية الغرب الاستعماري الرأسمالي، الذي لا يهمه مصالح الشعب العربي ولا يهمه من يحكم وكيف يحكم أو يستولي على السلطة، وإنما اســـتمرار مصالحـــه الاستعمارية الرأسمالية، وهذا يمثل أحد نماذج الحكم العربي.

رسالة الوكيل المحلي البريطاني في الشارقة:

كتب ملا حسين الوكيل البريطاني في الشارقة إلى الرائـــد «هنيـل» المقيـم السياسي البريطاني في الخليج العربي بتاريخ ١٨٤٥/٧/١٦ بقولـــه(*): «كنـت قـد أعلمتكم في رسالتي السابقة عن اغتيال خليفة وشقيقه سلطان وعندما علم أفراد قبـــائل أبو ظبي المقيمين في العاصمة وكذلك المنتشرين في البحر لصيد اللؤلؤ بمـــا حـــدث استبدت بهم الفوضى بشكل كبير، وبعد ذلك مباشرة تجمعوا في مكان واحد في البحـــر بعيدين عن القبائل الأخرى وأرسلوا بعض أفرادهم إلى أبو ظبـــي لكشـــف الحقيقـــة، وعندما سمع عيسى بن خالد بأن بعض قوارب عشيرة المزاريع التـــي كـــانت علـــى الشواطئ قد توجهت إلى «دوات بني ياس» (أي مغاصات اللؤلؤ الخاصة ببني يـــاس) لمواصلة الأعمال المخالفة للقوانين ومتابعة الفوضى في البحر وذلك بعدما علمت تلـك العشيرة بمقتل خليفة وشقيقه.

(*) أوردنا نص الرسالة الأصلي، دون إجراء تصحيح ما، وذلك كما جاءت في متن دراســـة البـــاحث، ماعدا بعض التصويبات اللغوية. «رئاسة التحرير»

«قام عيسى بن خالد بإرسال مقرن بن غانم الهلالي في سفينة «البقارة»، (وهي أحد أنواع السفن المستخدمة في الخليج العربي ذات الحجم الكبير) لمعرفة الوضع ولتوضيح الأمور معهم، ثم توجه إلى بقية أفراد القبائل المقيمين على ضفاف الشاطئ بهدف تهديدهم بشكل صريح من القيام بأي إزعاج لأي شخصية ومن التوجه إلى أي ميناء في ساحل عمان عدا أبو ظبي، وذلك كما كانت العادة تقتضي من أولئك الأشخاص والسفن الذين تنقصهم المؤن والماء، يأتون إلى أبو ظبي ليتزودوا بما يريدون ثم يعودون لبدء صيد اللؤلؤ من جديد (١٦).

«ذهب مقرن بن غانم حسب تلك المهمة إلى «حي بني ياس» (أي مغاصات بني ياس) ثم عاد وقام بتحذير جميع الأطراف من ارتكاب أعمال تُخالف القوانين البحرية، ثم عاد إلى أبو ظبي. وبعد ذلك أخبر شيخ عشيرة «المرور» راشد بن فاضل، عيسى بن خالد، بأن اتباعه نظراً لأنهم عديمو التفكير وغير محنكين فإنه قلق، ويخشى أن يرتكبوا اثماً بقيامهم بأعمال مضرة في البحر، واستأذن من عيسى بن خالد أن يذهب إلى الغواصين ويحذر أناساً من ارتكاب عمل مخالف كهذا. فوافق عيسى بن خالد على ذلك ثم التقى بهم في مغاصات بني ياس وأجرى ترتيبات مع جماعته، بأنه في حالة مجيء رسول إليهم من قبله أو قبل محمد بن حمود فعليهم العودة حالاً إلى أبو ظبي، وعلمت بأن هؤلاء الغواصين الذين نفذت منهم المؤن والماء قد ذهبوا إلى أبو ظبي فأخذوا ما يحتاجونه وعادوا إلى مزاولة مهمة الغوص على اللؤلؤ.

«يبدو ظاهرياً بأن العمل يجري كما هو معتاد، ومن الصعب التأكد منه ولكن على معرفة بأن معظم غواصي أبو ظبي مدينون إلى سلطان بن شخبوط الذي يحتفظ بحقوقه حيالهم، حيث هو المالك والممول لأعمال الغوص على اللؤلؤ، وأن بعض هؤلاء يعملون في قواربه ولا يحتمل أن يعود هؤلاء إلى أبو ظبي، وإن عادوا فيستولي عيسى بن خالد على ممتلكاتهم وقواربهم التابعة لسلطان بن شخبوط. فقد جاء إلى دبي ستة أشخاص اعترفوا بما لديهم من أملاك تابعة لسطان بن شخبوط وجاء آخران إلى الشارقة وقام بعضهم ببيع لآلئهم إلى زعل بن سيار، وهو من تجار دبي

وقد قيل بشكل سري أن مكتوم دعاهم للإقامة تحت سلطانه، وأن تبقى ممتلكاتهم وقواربهم التي تعود ملكيتها إلى سلطان بن شخبوط وكذلك جميع الأشياء المودعة هناك، في حين قام البعض الآخر بعرض لآلئهم على تجار وسكان الشارقة لبيعها هناك (١٧).

يتابع الوكيل الوطني البريطاني في الشارقة قوله : «لقد استنتجت أن عشائر بني ياس المقيمة في أبو ظبي حالياً تدعم عيسى بن خالد بما توصل إليه من مكانة واعترفت بسلطته علناً والتي توطدت بشكل قوي، كما قدمت إلى أبو ظبي سفن اللؤلؤ، وباعوا لآلئهم وأخذوا احتياجاتهم وتموينهم وعادوا مرة ثانية إلى صيد اللؤلؤ، كما عادوا إلى مواصلة العمل كالمعتاد. ودهشت كثيراً من أن أهالي أبو ظبي الذين كانت في حوزتهم أملاك وقوارب شخبوط لن يدخلوا ذلك الميناء، وذلك الأمر، فقد قام الشيخ شخبوط بترحيل قبائل وعشائر القبيسات والمحاربة والمزاريع الذين كانوا يمتلكون بلدتي «العديد» و«دووح» كما كانوا سابقاً، فإذا استقروا بهما فيكون ذلك مخالفاً للاصول وستكون بالتالي هذه النتيجة. وإن ما أرفقته هو رسالة موجهة إليك من عيسى بن خالد وأيضاً من رسالته الموجهة إلى (١٨).

«جاء مفوضون من قبيلتي العوامر والمناصير إلى عيسى بن خالد ليعبروا عن استعدادهم للاتحاد معه، فقد استقبلهم بسرور وقدم إليهم هدايا ثمينة، أنت تدرك طبيعة البدو فمهما يكن فإن ما يهدفون إليه هو المال، سمعت بأن سلطان بن شخبوط يمتلك مبلغاً كبيراً من المال، جزء منه يعود إليه في أبو ظبي والباقي يعود إلى تجار مسقط وآخرين وإنه كان قد أُودِعَ لديه لشراء اللؤلؤ (١٩)».

نلاحظ من ذلك كيف كانت مهمة الوكيل الوطني البريطاني في الشارقة مراقبة الأوضاع في المياه الإقليمية لساحل عمان أثناء عملية الغوص، وكذلك مراقبة الحاكم الجديد لأبو ظبي عن كثبٍ وعن سير الأوضاع في المنطقة ورفع تقارير بذلك إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، وكيف كان الحاكم الجديد في أبو ظبي حريص على استقرار الأوضاع في بلاده، حتى يثبت لبريطانية قدرته على الحكم،

والسيطرة على رعاياه مما يعني موافقة الأخيرة على شرعيته وتثبيته على الحكم، كما نلاحظ أن سلطان بن شخبوط كان غنيا ويملك الكثير من السفن واللؤلؤ والمال، كما كانت لديه علاقات تجارية مع تجار خارج أبو ظبي مثل مسقط إضافة إلى التمويل لعمليات صيد اللؤلؤ.

الرسالة الأولى للمقيم السياسي البريطاني إلى حكومته عن الحادثة:

بعث الرائد هنيل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي برسالة في ١٨٤٥/٨/١١ إلى ج-ب ويلوغبي، رئيس حكومة بومباي بقوله: «ستؤدي هاتان الرسالتان المرافقتان الواردتان من الوكيل المحلي البريطاني في الشارقة ملا حُسين والمؤرختان في ١٥ و١٦ من الشهر الجاري، إلى إحاطة حاكم المجلس الموقر بالظروف المحيطة باغتيال زعيم أبو ظبي خليفة وشقيقه سلطان على يد عيسى بن خالد، وذلك في ٤ تموز الماضي، وحتى تاريخ رسالتي الوكيل فيسرني أن أعلمكم بأن الهدوء العام لم يعكره شيء وأن ذلك الحدث المروع لم ينتج عنه انقسام، وأخشى أن تحدث فوضى في قبائل أبو ظبي على أثر مقتل زعيمين محبوبين لهما نفوذ مثل الشيخ خليفه وشقيقه (٢٠).

«يبدو حاليا أن الشيخ عيسى بن خالد قد اعترف به بصورة عامة كزعيم لأبو ظبي ولدى الاطلاع على فحوى رسالة عيسى بن خالد الموجهة إلي (بعثت إليكم نسخة عن هذه الرسالة) إذ يبدو أنه رجل رزين وذو عزم وحزم إضافة إلى ذلك فهو على بينة تماما بضرورة منع أي أعمال لها صفة القرصنة ترتكب من قبل بني ياس. ولم يكن المرحوم الشيخ خليفة ولي عهد يتنافس مع عيسى بن خالد على السلطة العليا في القبيلة، إلا أنه من غير المحتمل أن يذعن أبناء المرحوم الشيخ طحنون - الزعيم السابق لأبو ظبي - تماما للسلطة التي اغتصبها عيسى بن خالد (٢١).

«إعادة احتلال «العديد» من قبل عشيرتي المحاربة والقبيسات كما أشار إلى ذلك الوكيل، سيكون موضع استنكار كبير كما أنه من المحتمل أن يؤدي إلى تجديد

أسلوب حوادث القرصنة التي كانت تجري سابقاً، والتي سببت لنا متاعب كثيرة في عام ١٨٣٧، حيث تم أخيراً إيقاف هذه المتاعب عن طريق الاستيلاء على «العديد» من قبل الشيخ خليفه وترحيل جميع السكان إلى أبو ظبي حيث كانوا تحت إشرافه مباشرة.

«وليس في نيتي الآن أن أرد على الرسالة التي بعث بها إليَّ عيسى بن خالد، إلا أنني إذا وجدت أن باستطاعته الحفاظ على منصبه كزعيم لأبو ظبي، فسأقوم بالرد عليه واسأنتهز الفرصة للتأثير عليه بوسيلة ما لاتخاذ إجراءات فعالة لمنع ترحيل الرعايا إلى «العديد» أو ما يجاورها (٢٢)».

نجد من ذلك كيف تعمل الإدارة البريطانية بطريقة التدرج، حيث يبعث الوكيل المحلي البريطاني في الشارقة بالأخبار والأحداث والتقارير بشكل دوري إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، والذي يقوم بالتعليق وإبداء وجهة نظره تجاه تلك الأحداث، وأحياناً يتقدم بتوصية ثم يرفعها إلى حكومته في بومباي، وينتظر ردها في شأن تلك الأمور، قبل أن يتخذ أي إجراء آخر. كما نجد من خلال رسالة المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي أنه لم يستعجل الرد على رسالة عيسى بن خالد بالإيجاب أو السلب، وإنما آثر التريث حيث يستطيع هذا الزعيم إثبات قدرته في الاحتفاظ على حكمه، برغم توصيته الجيدة تجاه هذا الزعيم إلى حكومته وقوله بأنه «يبدو رجل رزين ذو عزم وحزم».

يبدو أن المقيم السياسي البريطاني كان يعمل بحكم تجاربه في الصراعات السياسية حول الحكم في الخليج العربي، بأنه من الصعب استمرارية عيسى بن خالد في السلطة نظراً لوجود تنافس قوي على زعامة الحزب الهنائي في أبو ظبي، وخاصة من جانب أفراد عائلة البوفلاح إضافة إلى ظهور الثأر والانتقام والقتل من أجل الاستئثار بالحكم، وهذا ما حدث فيما بعد.

الرسالة الثانية للمقيم السياسي البريطاني إلى حكومته عن عيسى بن خالد :

أرسل «هنيل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي تقريرا في ١٨٤٥/٩/٢ إلى ج-ب- ويلوغبي رئيس حكومة الهند، عن تطور الأوضاع في ساحل عمان بعد حصول عيسى بن خالد على الاعتراف من جيرانه حكام ساحل عمان، وكيف حاول حاكم دبي إقناع وكيل حاكم نجد في البريمي بالانتقام من عيسى بن خالد والإطاحة به وعن تلك الأمور يقول:

«اعترف الشيخ سلطان بن صقر زعيم القواسم وابنه الشيخ صقر رسميا بعيسى بن خالد خلفا للشيخ خليفة زعيم أبو ظبي الراحل، وشكلا معه حلفا دفاعيا هجوميا وحذا حذوهم شيوخ ساحل عمان الآخرون في تلك المنطقة ما عدا شيخ مكتوم حاكم دبي، الذي أبدى عداء واضحا حيال زعيم أبو ظبي المنتخب حديثا والذي إذا لم يتم دعمه فإنه سيحاول طرده من ذلك المكان (٢٣).

أقر الشيخ مكتوم وهو يتوهم بأن في استطاعته اقناع وكيل حاكم نجد في البريمي، سعد بن مطلق المطيري، بالانتقام من قاتل المرحوم شيخ أبو ظبي، قام بالاتصال مع سعد بن مطلق المطيري بواسطة إرسال أخيه لزيارته في البريمي ومعه هدية وهي عبارة عن ٣٠٠ كراون(*)، ولكن المهمة فشلت فيما هدفت إليه تماما، وإذا لم ينجح شيخ دبي في زرع الشقاق بين الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة والشيخ عيسى بن خالد، فإن هذا يتطلب منه أن يمارس جميع أوجه دهائه ليدعم مكانته بينهما (٢٤).

أدت أعمال زعيم أبو ظبي المنتخب حديثا حتى الآن، إلى رضاء التجار المقيمين في أبو ظبي رضاء تاما. فقد أعاد إليهم بحرص جميع المبالغ التي كانت قد أودعت لدى المرحوم سلطان بن شخبوط لشراء اللؤلؤ (لدي سبب ضئيل في أن أشك

(*) قطعة نقدية ذهبية لعدة دول منها السويد، الدانمرك، إمبراطورية آل هيسبورغ، إلخ...

حاليا في كونه معززا وأن سلطته التي اغتصبها قد أقر بها تماما). وحتى نهاية فصل صيد اللؤلؤ واجتماع جميع أفراد قبائل أبو ظبي في العاصمة فإن هذه القضية لا تعتبر أنها قد حسمت بشكل نهائي (٢٥).

اغتيال عيسى بن خالد :

لم يستمر حكم عيسى بن خالد طويلا، فقد كان يعاونه أخوه ولكن لم يقر له قرار في الحكم. في احدى اجتماعات أقطاب المؤامرة أو مجلس الثورة برئاسة عيسى بن خالد نفسه وعضوية ذياب بن عيسى، وكان عدد المجتمعين أكثر من مائة شخص. وبينما كانوا يتناولون طعام الغداء حدث خلاف بينهم، فأطلق ذياب بن عيسى النار على عيسى بن خالد فأرداه قتيلا، وحدث هرج ومرج وإطلاق نار كثيف ومعركة بالخناجر وحدثت مذبحة كبيرة قتل فيها ستة وثلاثون شيخا من آل نهيان، دون سائر الحاضرين الذي قتل تسعة منهم، وهم لا يزالون على مائدة الطعام حتى اختلط الدم بالرز، فهرب جماعة عيسى بن خالد إلى الشارقة واستولى على الحكم ذياب بن عيسى، وسميت هذه الواقعة بواقعة «اليدافة». ولم يطل الأمر بيد ذياب بن عيسى، إذ مات مقتولا بيد ابن عيسى بن خالد، واسمه خالد بن عيسى بن خالد. ولكن هذا الأخير لم يستطع أن يمسك زمام الأمور فهرب من أبو ظبي إلى الشارقة وتولى الأمر أخوه. وهكذا فلت الزمام وضاعت هيبة الحكم وسط صراع مراهقين من هواة السياسة والانقلابات، مما حدا بأعيان أبو ظبي ووجهائها أن يتقدموا إلى شيخ عشيرة «المرور»، وهو محمد بن حمد يطلبون إليه إعادة النظام في المدينة الهائجة، حيث كانت قوات الأخ لا تزال تطلق النار على قصر الحصن في محاولة للسيطرة على حاميته التي لم تخضع لأحد بعد (٢٦).

اختيار سعيد بن طحنون حاكم أبوظبي ١٨٤٥ :

وافق محمد بن حمد على ذلك الطلب وتمكن من استدعاء مقاتلين وكتائب عسكرية لفرض النظام في العاصمة، فوصلت قوات بقيادة رجل اسمه راشد بن فاضل، كما وصلت قوات أخرى من قبائل أبو ظبي، تمكنت من فرض النظام في المدينة وسيطرت عليها وطردت المتآمرين، كما يذكر صاحب كتاب «نهضة الأعيان بحرية عمان»، أن الحكم آل بعد ذلك إلى أمرة آل فلاح لم تطل في حكمها فقيل أيامها أربعون يوماً، وقيل أربعة أشهر، وقد يكون أربعين يوماً لإقرار النظام بمساعدة محمد بن حمد شيخ عشيرة «المرور». ثم عاد أعيان أبو ظبي للإجتماع لانتخاب زعيم لهم. فقرروا المسير إلى الشيخ هلال بن شخبوط وهو أخو القتيلين وكان طاعناً في السن ويقيم في بلدة «المارية» في صحراء «ليوا»، فلما وصل الوفد إلى هناك شاهدوا الشيخ السابق لأبو ظبي محمد بن شخبوط، وهو الذي حكم قبل طحنون لمدة عامين وقد عاد مسرعاً من منفاه في قطر ليكون بجانب أخيه الأكبر هلال لمعالجة الأوضاع في أبو ظبي. فعقد وجهاء واعيان أبو ظبي بقيادة محمد بن حمد عدة اجتماعات مع الشيخين، فوجدهما كارهين للحكم وقد طعنا في السن ولا رغبة لهما في تحمل المسؤولية، فطلب المجتمعون من الشيخ هلال بن شخبوط أن يرشح لهم مرشحاً فقال: «إن شاء الله سيأتيكم بعد قليل». وبعد قليل دخل شاب في مقتبل العمر ومعه قطيع كبير من الإبل حيث كان يقوم على رعايتها وكانت تبدو على وجهه إمارات البأس والقوة. وقال الشيخ هلال للمجتمعين معه، هاهو زعيمكم وشيخكم الجديد أسد من أسود الصحراء، إنه سعيد ابن أخي طحنون، وهكذا تمت البيعة لسعيد بن طحنون بن شخبوط حاكماً جديداً وزعيماً لحزب الهنائي في ساحل عمان (٢٧).

الرسالة الثالثة للمقيم السياسي البريطاني إلى حكومته عن اغتيال عيسى بن خالد :

بعث هنيل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى ج.ب. ويلوغبي رئيس حكومة بومباي بمذكرة في ١٨٤٥/٩/١٦ قال فيها : «سيدي، لي الشرف أن أحيط حاكم المجلس الموقر علماً بأنه قد وصل مؤخراً قارب إلى هذا الميناء قادماً من أبوظبي ينقل أخباراً تفيد أنه في الأول من الشهر الجاري كان عيسى بن خالد – قاتل الشيخ خليفة بن شخبوط ومعه ابنه وشخص آخر، قد اغتيلوا جميعاً بواسطة ذياب بن عيسى بتحريض من الشيخ سعيد بن طحنون، وهو الآن زعيم أبو ظبي، لم أسمع بحدوث أي شغب خطير بمناسبة التغيير الكلي في الحكم، ولكنني أخشى كثيراً أن ذلك سيؤدي إلى حدوث أعمال تخالف القواعد والأصول البحرية (٢٨).

وصلتني الآن معلومات تفيد بأن خمسة عشر فرداً من عشيرة المزاريع غادروا منطقة المياه الراكدة المتعذر الوصول إليها، والتي تقع بين «العديد» وأبو ظبي، ولجأوا إلى سفينة كانت تأتمر بأمر قرير شيخ جزيرة «تاروت» واحد رعايا الشيخ محمد بن خليفة، من البحرين. وقام هؤلاء الأفراد بالاستيلاء على قارب يعود إلى تلك الجزيرة، بينما كان يقوم بأعمال تجارية على ساحل الخليج العربي. إن الخطوات التي ستتخذ بشأن هذه القرصنة التي حدثت ستكون موضوع الرسالة التالية ولديّ آمال ضئيلة بإمكانية عمل أي شيء فعّال حيال قضايا كهذه لحين قيام سلطة مستقرة وراسخة في أبو ظبي (٢٩).

لا نتفق مع ما قاله المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بأن عملية اغتيال قادة الانقلاب حدث بتدبير من قبل سعيد بن طحنون، الذي كان صغير السن، كما كان بعيداً كل البعد عن تلك الأحداث. فقد كان في تلك الفترة بعيداً أكثر من أربعمائة كيلو متر في صحراء «ليوا» مع قطيع من الأبل ومع أعمامه في حياة هادئة، والذين زهدوا في الحكم وفي مشاكل أبو ظبي، حتى جاء وفدٌ من أعيان البلاد ليرشحوا سعيد بن طحنون للحكم الذي لم يكن يسعى له. كما يشير المقيم السياسي

البريطاني إلى وقوع حوادث بحرية ويخشى أن تزيد تلك الحوادث من وجود فراغ في أبو ظبي لم يستطع حاكم قوي، السيطرة على الأمن والاستقرار في تلك المنطقة».

خشي هنيل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي من الاضطرابات في أبو ظبي والخلاف بين أسرة الـ بوفلاح حول زعامة الحزب الهنائي لساحل عمان في أبو ظبي، من أن يمتد إلى المناطق البحرية، ولهذا رأى أن يعترف لسعيد بن طحنون بالحكم باعتباره الرجل الأقوى، وانطلاقا من هذا التصور، أرسل «هنيل» الطراد «دجلة» إلى أبو ظبي في شهر تشرين الأول لتسليم خطاب الاعتراف إلى الحاكم الجديد وعرض التأييد والمساندة لهذا الشيخ، وإن أي تأخير في الاعتراف قد يؤدي إلى مزيد من الانقسامات والاغتيالات، كما حدث لعيسى بن خالد. وقد بارك شيوخ القبائل في أبو ظبي خطوة «هنيل» وتعهد سعيد بن طحنون باحترام التزامات المشيخة للحكومة البريطانية، وفي بومباي أمر الحاكم الكومندور «هنري بلاكود»، الذي كان في ذلك الوقت في زيارة «لبومباي» على رأس بعض قطع من أسطول الهند الشرقية بالإبحار إلى الخليج العربي وإثبات الوجود البريطاني هناك (٣٠).

نتائج الدراسة:

أولا : بينت دراسة الصراع على السلطة السياسية والتي عبرت فيه كل القوى السياسية عن نفسها، في أن الحكم طوال هذه الفترة كان وراثيا في خط الذكور دون أن تخرج عن حدود علاقة القرابة المتمثلة في الأخ أو الابن أو ابن الأخ أو ابن العم، وإن مدة الحكم في السلطة هي، بمتوسط عشرة أعوام، كانت وسطا مقارنة بنظائرها في الأسر الحاكمة الأخرى المعاصرة لها، إذا ما استثنينا حكم عيسى بن خالد وذياب بن عيسى لعدة أشهر فقط. فقد حكم ذياب بن عيسى بن نهيان عامين فقط ١٧٩١-١٧٩٣، ثم حكم ابنه شخبوط ٢٣ عاما من ١٧٩٣-١٨١٦، ثم حكم أبناء شخبوط كل من محمد عامين ١٨١٦-

١٨١٨، وطحنون خمسة أعوام ١٨١٨-١٨٢٣، وخليفة ٢٢ عاما من ١٨٢٣ إلى ١٨٤٥.

ثانيا : يمكن تتبع حيثيات قضية الحكم في ساحل عمان من خلال تحليل الممارسة العملية، إذ لم يكن هناك قواعد أو ترتيبات قانونية أو أن يكون الحكم الوراثي يتطبق بمبدأ البكورة في وراثة الحكم أو الأخ، فقد كان الحكم في المرحلة الأولى مباحا من أسرة البوفلاح حيث يرث الحكم أقوى أبناء أو أحفاد البوفلاح وذلك قبل أن يستقر وينتقل بشكل نهائي في نهيان بن فلاح في المرحلة الثانية.

ثالثا : لم تؤد تلك الاغتيالات من أجل الاستيلاء على السلطة إلى صراعات أو حروب أهلية، وهذه سمة من السمات الإيجابية في نظام الحكم في أبو ظبي، وبرغم ذلك فقد كان التنافس على الحكم في أبو ظبي ضعيف بل بعضهم كان يرفض الحكم، وذلك لمجابهة الأخطار الخارجية وخاصة الأطماع النجدية انطلاقا من البريمي، فالولاء لهذه الأسرة. لم يحد ولم ينحرف طالما بقيت هذه الأسرة تقدم الحكام سواء أكانوا مقتنعين أم لا، فلم يكن هناك اقتراح بعزل الأسرة على الإطلاق، وبقاء الحكم وراثي في هذه الأسرة. وقد وفر لعملية الحكم بهذه الطريقة عنصر الحماية أو الوقاية من قدوم أو مجيء حاكم من قبيلة أخرى أو غير ضليع، قد يجلب على الإمارة ما لا يحمد عقباه.

رابعا : لم تكن العقلية التركيبية القبلية قادرة أبدا على التمييز بين الحاكم بحكم الأمر الواقع بالقوة، والحاكم القانوني أي صاحب الحق الفعلي في وراثة الحكم، وكان من يعتلي الحكم فعلا هو صاحب الحق فيه وبغض النظر عن كيفية وصوله إلى الحكم أو طريقة حكمه. لذا كانت هناك محاولات لإعادة الحاكم المخلوع أو المعزول أو أحد أبنائه إلى الحكم ولو بعد حين أو في أقرب فرصة.

خامسا : مضت فترة الحكم في هذه المرحلة من الأب إلى الابن أو من الأخ إلى الأخ ولكن ليس على أساس من البكورة وإنما في بعض الحالات ورث الحكم أبناء أو أخوة ليسوا هم الأكبر سنا بين إخوانهم فقد مضى الحكم من الأب إلى الابن

مثلاً: من فلاح إلى ابنه محمد ثم ابنه زايد وبعدها عاد نهيان بن فلاح (العم) ثم حفيده ذياب بن عيسى، ثم شخبوط بن عيسى وبعدها إلى أبنائه من الأخ إلى الأخ مثل محمد بن شخبوط وطحنون بن شخبوط وخليفة بن شخبوط، ثم خرجت إلى فرع آخر من الأسرة فرع «السعدون بن فلاح الأول» شقيق نهيان الأول» «عيسى بن خالد» ثم فرع «خالد بن فلاح الأول» في ذياب بن عيسى، ثم عادت إلى فرع «نهيان» إلى ابن الأخ سعيد بن طحنون بن شخبوط ثم إلى ابن العم زايد بن خليفة ثم إلى الأخوة حمدان بن زايد – طحنون بن زايد – صقر بن زايد ثم إلى ابن الأخ شخبوط بن سلطان ثم زايد بن سلطان بن زايد سلطان بن زايد حاكم دولة الإمارات العربية المتحدة حالياً.

سادساً: نلاحظ في هذه المرحلة ظهور الإدارة الشعبية وتجسيدها والتعبير عنها في أكثر من مناسبة في شكل الموافقة على الحاكم وعدم الاعتراض عليه مثلما حدث «لعيسى بن خالد» أو اختيار الحاكم من بين أفراد أسرة البوفلاح دون غيرها مثل «سعيد بن طحنون».

سابعاً: نجد أن الحكومة البريطانية لا تهتم كثيراً فيمن يستولى على السلطة بالقوة أو بالانقلاب برغم تعهدها السابق لحكام ساحل عمان بالحكم الوراثي، ولكن عندما يصل إلى الحكم أي فرد فإنها تعترف بالأمر الواقع ولا تحاول التغيير ما دام هذا الشخص يعترف ويقر ويحافظ على المصالح البريطانية والاتفاقيات والمعاهدات السابقة ويقدم الخضوع والولاء الكامل لبريطانية التي تعترف به أو بهذا الشخص الذي وصل إلى الحكم بغض النظر عن كيفية وصوله إلى الحكم، سواء أكان عن طريق اغتيال الحاكم لعيسى بن خالد، أو القتل الجماعي كذياب بن عيسى، ولكن المهم أن لا يؤثر ذلك على سلطتها أو استقلال ساحل عمان. فبرغم أحداث ١٨٤٥، إلا أن بريطانية كانت في طريقها إلى الاعتراف بهم لولا مقتل عيسى بن خالد، حيث لم تكن تحاول إعادة أبناء آل نهيان للحكم بل وقفت إلى جانب قادة الانقلاب وأعطت لتلك الأعمال الإجرامية نوع من

الشرعية عندما قال المقيم السياسي البريطاني عن عيسى بن خالد، إنه رجل رزين وذو عزم إضافة إلى ذلك فهو على بينة تماما بضرورة منع أي أعمال لها صفة القرصنة ترتكب من قبل بني ياس».

أي أن بريطانية لديها مبدأ أو تحافظ على التزامها برغم المعاهدات أو المواثيق وتبرز تصرفاتها بتخوفها من الإخلال بالأمن في مياه الخليج العربي بقولها «أعمال القرصنة» مما يضر بمصالحها في المنطقة في حين لا تهتم بمصالح الآخرين وخاصة الحكام الذين وقعوا معها اتفاقيات ومعاهدات أو شعبهم في ساحل عمان.

ثامنا : نلاحظ كيف تهافت الحكام أو قادة الانقلاب والذين يستولون على السلطة بالقوة العسكرية أو بالقتل والاغتيال إلى حصول الاعتراف بشرعيتهم من بريطانية مقابل الالتزام بالسياسة أو الخط الاستعماري البريطاني، وذلك كما يحدث اليوم في العديد من الدول العربية والعالم الثالث عندما يبادر قادة الانقلاب إلى الاعتراف بالمصالح الغربية الرأسمالية مقابل الحصول على التأييد والدعم من تلك القوى الغربية وليس من الشعب الذي يمثل الشرعية الحقيقية، مما يعني ضعف للفهم السياسي وأن ما يحدث حاليا هو استمرار لذلك الماضي بكل افرازاته الخاطئة في فهم الشرعية والسلطة والحكم.

تاسعا : نجد توقيت الانقلاب كان في موسم الصيف وهو الموسم الذي يخرج فيه معظم السكان إلى البحر للغوص على اللؤلؤ مما يعني أن العاصمة تكون خالية من السكان وبالتالي تسهل عملية الانقلاب أو الاغتيال والاستيلاء على السلطة، كما نجد أن الغزو العراقي للكويت حدث في الصيف، عندما كانت خالية من السكان لأنهم كان يصطافون في الخارج في أوروبة هربا من فصل الصيف الحار في الوقت الذي كان أجدادهم يذهبون إلى الحر والرطوبة إلى أعماق البحر للحصول على قوتهم ورزقهم من اللؤلؤ. واليوم نجد أبناءهم في الخليج العربي في نفس موسم الصيف يذهبون للاستمتاع والاستجمام، الفرق بين

الأمس واليوم كبير ولكن هناك يحدث فراغ أو تصبح مدن الخليج العربي خالية من السكان في فصل الصيف مما يعني أن توقيت قادة الانقلاب كان في محله ومخطط جيد وليس اعتباطي أو صدفة.

تلك هي إحدى أهم خطوات الإدارة البريطانية التي جاءت عقب أحداث عام ١٨٤٥ في ساحل عمان ومن هنا تكمن أهمية هذه الدراسة التي تشرح لنا عن الظروف والمتغيرات التي طرأت في ساحل عمان من خلال تلك الأحداث أو الصراع السياسي على الزعامة، وقد نخرج من هذه الدراسة بحقيقة وهي أنه مثلما كان للسياسة البريطانية في ساحل عمان تأثير كبير على الصراعات السياسية فيها، فإن التغييرات الداخلية الناتجة عن هذه الصراعات والاستيلاء على السلطة في هذه الإمارات رغم صغر حجمها لعبت دورها في تشكيل خط السياسة البريطانية في هذه المنطقة. وهذا واضح في تغير موقف حكومة الهند من الأحداث والصراعات في ساحل عمان. وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في هذا النوع من الدراسة حول أحد النماذج للحكم بالقوة أو الاستيلاء على السلطة بالقوة والظروف والملابسات المحيطة به بضوء الوثائق البريطانية في تلك الفترة، والذي يتمثل في الخط الوراثي للسلطة في أبو ظبي حاليا والتي هي امتداد لذلك الماضي القريب، وكيف كانت السلطة محفوفة بالمخاطر والاغتيالات والتهجير واللجوء السياسي إلى الأقطار المجاورة، وأن النظام القائم حاليا بكل مظاهر التقدم والتطور والرقي ما هو إلا امتداد لذلك الماضي كقسوة الطبيعة الصحراوية في تلك الفترة، فالفرق كبير بين ما كان يجري بالأمس البعيد واليوم القريب، مع وجود بعض التشابه لبعض الأمور التي تحدث حاليا.

الهوامش

١- د. محمد مرسي عبد الله - **دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها** ص ١٢٣.

٢- د. محمد مرسي عبد الله - **نفس المرجع** ص ١٢٧.

٣- فالح حنظل - **المفضل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة** - ج٢- ص٤٧٤.

٤- فالح حنظل - **نفس المرجع** - ص٥٢٦-ج٢

٥- R/15/1/105 - **مذكرة من ملا حسين** الوكيل المحلي البريطاني في الشارقة إلى الرائد هنيل - المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بتاريخ ١٨٤٥/٧/١٥ صفحة ١٩٩-٢٠٢.

٦- فالح حنظل - **المرجع السابق** - ص٥٢١ - ج٢.

٧- فالح حنظل - **نفس المرجع** - ص٥٢٩-ج٢

٨- جون. بي.كيلي - **بريطانية والخليج** - ص ٦٧٨ - ج٢.

٩- R/15/1/105 - **مذكرة من ملا حسين** - الوكيل المحلي البريطاني في الشارقة - إلى الرائد هنيل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي بتاريخ ١٨٤٥/٧/١٥ صفحة ٣٩٩-٢٠٢.

١٠- R/15/1/105 - **نفس المرجع.**

١١- R/15/1/105 - **نفس المرجع.**

١٢- فالح حنظل - **المرجع السابق** - ص ٥٢٩ - ج١.

١٣- R/15/1/105 - **المرجع السابق.**

١٤- R/15/1/105 - **مرفق رقم (٣) رسالة من عيسى بن خالد** الشيخ الفعلي لأبو ظبي إلى الرائد «هنيل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي المؤرخة في ١٠ رجب الموافق ١٦ تموز ١٨٤٥ - صفحة ٣٩٥-٣٩٦.

١٥- R/15/1/105 – **نفس المرجع.**

١٦- R/15/1/105 – **مذكرة من ملا حسين** – الوكيل المحلي البريطـــاني فـــي الشارقة إلى الرائد «هنيل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربـــي المؤرخة في ١٨٤٥/٧/١٦ – صفحة ٢٠١-٢٠٣ (أ) – مرفق رقم (٢).

١٧- R/15/1/105 – **نفس المرجع.**

١٨- R/15/1/105 – **نفس المرجع.**

١٩- R/15/1/105 – **نفس المرجع.**

٢٠- **مذكرة من الرائد «هنيل»** المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربـــي – الى ج-ب – ويلوغبي رئيس حكومة بومباي – المؤرخة في ١٨٤٥/٨/١١ في بوشهر – صفحة ٣٩٥ – ٣٩٦.

٢١- R/15/1/105 – **نفس المرجع.**

٢٢- R/15/1/105 – **نفس المرجع.**

٢٣- R/15/1/105 – **مذكرة من الرائد «هنيل»** المقيم السياسي البريطاني فـــي الخليج العربي إلى -ج- ب ويلوغبي – رئيس حكومة بومباي – المؤرخـة في ١٨٤٥/٩/٢ في بوشهر – صفحة ٤٥٠-٤٥٢.

٢٤- R/15/1/105 – **نفس المرجع.**

٢٥- R/15/1/105 – **نفس المرجع.**

٢٦- فالح حنظل – **المرجع السابق** – ص ٥٣١ – ج٢.

٢٧- فالح حنظل – **نفس المرجع** – ص ٥٣١- ج٢.

٢٨- R/15/1/105 –**مذكرة الرائد «هنيل»** – المقيم السياسي البريطـــاني فـــي الخليج العربي إلى ج-ب ويلوغبـــي رئيـــس حكومـــة بومبـــاي مؤرخـــة ١٨٤٥/٩/١٦ في بوشهر – صفحة ٤٧٨-٤٨٨.

٢٩- R/15/1/105 – **نفس المرجع.**

٣٠- جون. ب. كيلي – **المرجع السابق** – ص٦٧٨- ج٢.

ثبت المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

الوثائق البريطانية غير المنشورة:

١- R/15/1/105 – **مذكرة من ملا حسين** – الوكيل المحلي البريطاني في الشارقة إلى الرائد «هنيل» – المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي مؤرخة ١٨٤٥/٧/١٥–. الشارقة – صفحة ١٩٩–٢٠٢.

٢- R/15/1/105 – **رسالة من عيسى بن خالد** – الشيخ الفعلي لأبو ظبي إلى الرائد «هنيل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي – المؤرخة في ١٠ رجب الموافق ١٦ يوليو – مرفق رقم (٣) – صفحة ٣٩٥–٣٩٦.

٣- R/15/1/105 – **مذكرة من ملا حسين** – الوكيل المحلي الوطني في الشارقة إلى الرائد «هنيل» المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي – المؤرخة في ١٨٤٥/٧/١٦– الشارقة – مرفق رقم (٢) – صفحة ٢٠٢–٢٠٣.

٤- R/15/1/105 – **مذكرة من الرائد «هنيل»** المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى ١–ج–ب– ويلوغبي – رئيس حكومة بومباي – مؤرخة في ١٨٤٥/٨/١١– بوشهر – صفحة ٣٩٥–٣٩٦.

٥- R/15/1/105 – **مذكرة من الرائد «هنيل»** المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي إلى : ج–ب–ويلوغبي – رئيس حكومة بومباي– مؤرخة في ١٨٤٥/٩/٢ بوشهر – صفحة ٤٥٠–٤٥٢.

٦- R/15/1/105 – **مذكرة من الرائد «هنيل»**– المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي – إلى : ج–ب–ويلوغبي– رئيس حكومة بومباي – مؤرخة في ١٨٤٥/٩/١٦ بوشهر – صفحة ٤٨٧–٤٨٨.

المراجع باللغة العربية :

١- جون.ب.كيلي- **بريطانية والخليج** – وزارة التراث القومي والثقافة – مسقط ١٩٧٩.

٢- فالح حنظل – **المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة** – لجنة التراث والتاريخ في دولة الإمارات العربية المتحدة – أبو ظبي ١٩٨٣.

٣- د. محمد مرسي عبد الله – **دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها** – دار القلم – الكويت ١٩٨١.

العلاقات الكويتية العثمانية

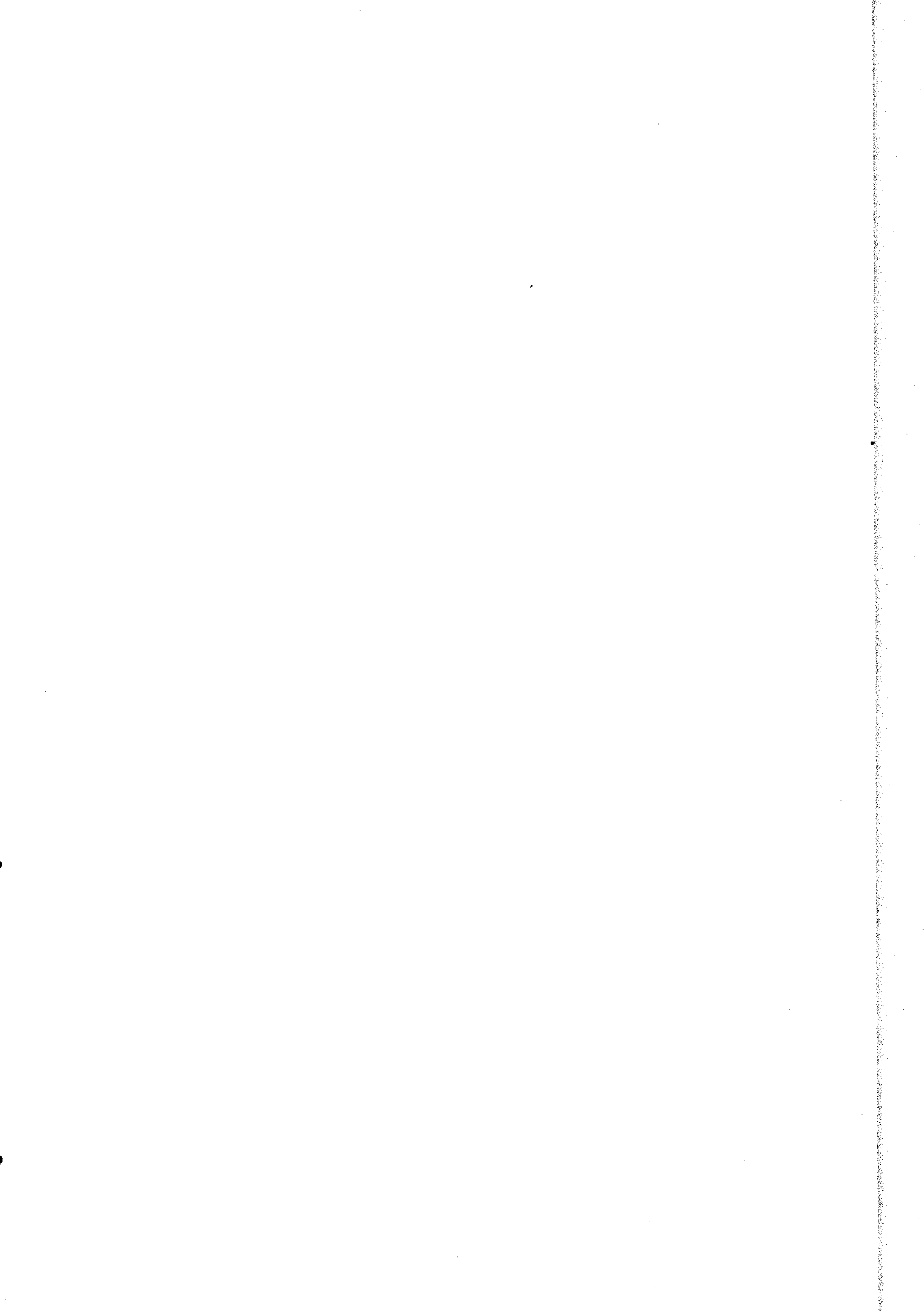
١٧١٨ - ١٩٠٢

أ. م. د. نجاة عبد القادر الجاسم

جامعة الكويت - كلية الآداب

قسم التاريخ





بسم الله الرحمن الرحيم

العلاقات الكويتية العثمانية

مقدمة:

تأثرت العلاقات الكويتية العثمانية بعدة عوامل دينية واقتصادية وسياسية، وذلك منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، في أعقاب هجرة العتوب واستقرارهم في الكويت عام ١٧١٦.

ويمكن تقسيم مراحل العلاقات إلى مايلي:

- المرحلة الأولى: ١٧١٨ – ١٨٦٩.
- المرحلة الثانية: ١٨٧٠ – ١٨٩٩.
- المرحلة الثالثة: ١٩٠٠-١٩١٨.

إن تحديد عام ١٧١٨ كبداية للدراسة هو تحديد منطقي لأنه تاريخ أول زيارة قام بها حاكم الكويت الشيخ "صباح بن جابر" إلى ولاية بغداد، أما التوقف عند عام ١٩٠٢ فلأنه تاريخ بداية مشكلة الحدود بين الكويت، وولاية البصرة.

إن البحث في هذا الموضوع يتطلب أحياناً الإشارة إلى السياسة البريطانية في منطقة الخليج العربي وإلى علاقة بريطانية بالكويت والنتائج التي ترتبت على هذه العلاقات وتأثيرها على العلاقات الكويتية العثمانية.

والله ولي التوفيق

تمهيد:

منذ أوائل القرن السادس عشر، حدث تحول في استراتيجية الدولة العثمانية، حين اتجهت نحو الشرق العربي، حيث الأراضي المقدسة، وكان ذلك في عهد السلطان "سليم الأول" حين انتصرت قواته على المماليك في مرج دابق عام ١٥١٦. واحتل العثمانيون في عهد السلطان سليمان القانوني بغداد، في أواخر عام ١٥٣٤ والبصرة عام ١٥٤٦، ونتيجة لذلك فقد أصبح هذا الإقليم ضمن الوحدة السياسية للدولة العثمانية التي قسمته إلى: ولايات، وهي الموصل، بغداد، البصرة، وأصبحت هذه المناطق تحكم /انكشارياً/، وإدارة عثمانية تتولى مسؤولية الشؤون الإدارية والمالية إلى جانب جهاز جمع الضرائب وجباية رسوم الجمارك.

لن نتوسع في الكتابة عن هذه المقاطعات العثمانية، ولكن الذي يهمنا في هذه الدراسة هي ولاية البصرة، نظراً لأنها أقرب ولاية عثمانية للكويت، وأكثرها تأثراً بالصراع الدولي في الخليج العربي، بسبب موقعها على شط العرب، وإن كانت أوضاعها في ذلك الوقت لم تساعدها على القيام بدور مؤثر في المنطقة، خاصة وأنها كانت تتعرض لاعتداءات بعض القبائل، بالإضافة إلى صراعها المستمر مع فارس.

وبالتالي لم تتمكن سلطاتها من مدّ نفوذها إلى خارج الولاية. وسوف نلاحظ التأثير الإيجابي لهذه الأوضاع على الكويت.

لقد سيطرت الدولة العثمانية عام ١٥٥٠ على الاحساء، المشهورة بمياهها وخصب أراضيها، وكانت ملتقى للطرق التجارية الهامة بين أقاليم الجزيرة العربية وفارس والهند وشرق إفريقية، ورغم ذلك فإن السيطرة أو النفوذ العثماني لم يمتد إلى إمارات الخليج العربية، وإلى قلب شبه الجزيرة العربية.

وبالنسبة لإقليم الإحساء، فقد استطاعت قبيلة بني خالد التغلب على الحامية العثمانية هناك عام ١٦٧٠، وأخذت بعد نجاحها في الإحساء نشر سلطاتها على المنطقة الممتدة من قطر جنوباً إلى حدود البصرة شمالاً.

الاستقرار:

هاجر العتوب في النصف الثاني من القرن السابع* عشر من الهدار من مقاطعة الأفلاج في نجد بسبب القحط، والنزاع القبلي، حيث استقروا في قطر مدة تصل إلى حوالي خمسين عاما.

أما فيما يتعلق بالأماكن التي اتجهوا إليها بعد ذلك فإن المصادر تختلف، ولكن من المعروف أنهم أقاموا ولفترة قصيرة في المخراق ثم في منطقة خور الصبية شمال الكويت الشرقي. لكنهم اضطروا إلى النزوح منها تلبية لأوامر السلطات العثمانية في البصرة التي اعتبرت وجودهم يشكل تهديدا للقوافل التجارية، واستقر بهم المقام في (كوت بني خالد) أي "الكويت"، ذلك الكوت الذي أقامه شيخ بني خالد لتخزين المؤن والذخائر اللازمة.

وفي أعقاب الاستقرار بدأت مرحلة الإدارة المشتركة حين قسم العتوب المسؤوليات فيما بينهم، وأصبحت شؤون الحكم تقع على عاتق "آل الصباح" وشؤون التجارة "لآل خليفة"، أما شؤون البحر فهي مسؤولية "الجلاهمة".

ثم بدأت الكويت تنمو سريعا ويزداد عدد سكانها، وتزدهر تجارتها نتيجة لعوامل كثيرة، ليست مجالها هذه الدراسة.

بداية العلاقة الكويتية العثمانية:

كانت الكويت في تلك الفترة تدخل ضمن ممتلكات قبيلة بني خالد، ولذلك استأذن العتوب رئيس بني خالد، قبل الاستقرار بها، لكن العتوب كما يبدو أدركوا

---

* حدد الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت (١٨٩٦-١٩١٥) في رسالته إلى محسن باشا وإلى البصرة تاريخ تأسيس الكويت بعام ١٦١٣ أنظر حسين خلف الشيخ خزعل – تاريخ الكويت ج ١ ص٣٧، ولقد اختلفت المصادر في تحديد تاريخ التأسيس.

أهمية التفاهم مع والي بغداد لضمان استقرارهم، وعدم تدخل السلطات العثمانية في شؤونهم، ولذلك توجه الشيخ "صباح بن جابر" إلى ولاية بغداد عام ١٧١٨، حيث شرح للوالي هدف جماعة العتوب من الاستقرار في الكويت وأنهم "لا يبغون ضراً بأحد" (١).

وكأن الشيخ "صباح" أراد أن يؤكد للسلطات العثمانية أن استقرارهم لن يؤدي إلى اضطراب الوضع أو إثارة المشاكل والتعدي على القوافل التجارية ولا نستبعد أنه أراد الحصول على الدعم العثماني، في حالة تعرض هذا الكيان الجديد لأي خطر.

ومن أجل إيجاد التوازن في علاقة العتوب مع أهم القوى في المنطقة المحيطة بالكويت، عقد الشيخ صباح اتفاق صداقة مع شيخ قبيلة بني خالد، وقد ارتكز على ما يلي "تصادق الكويت من يصادق بني خالد، وتعادى خصومهم"، كما اتفقا على تحديد تبعية القبائل المقيمة على الحدود بين الجانبين، وفقاً لرغبة الخوالد (٢).

أما بالنسبة لزيارة الشيخ صباح إلى والي بغداد، فقد كانت استهلالاً طيباً للعلاقة الكويتية العثمانية. لكن ما هي نتائج هذه الزيارة؟

لا شك في أنها حققت الهدف المنشود من ورائها، وهو ضمان إقرار الدولة العثمانية إستقرار العتوب في الكويت، وعدم التدخل في شؤونهم، ولكن في نفس الوقت تؤكد المصادر التاريخية أنه لم يترتب على هذه الزيارة أي التزام من جانب الشيخ صباح تجاه الدولة العثمانية، التي لم تجد كما يبدو في الكويت ما يشجعها على تحمل أعباء إقامة سلطة فعلية عثمانية فيها. ومن جانب الشيخ فإنه يمكن اعتبار هذه الزيارة على أنها اعتراف منه بالولاء للدولة الإسلامية الكبرى، أي الاعتراف بالتبعية الأسمية للدولة العثمانية التي لا تقترن بأي مظهر من مظاهر السلطة الفعلية.

بعض التقارير الأجنبية خلال القرن الثامن عشر:

بما أن الكويت لا تشكل أهمية لدى الدولة العثمانية، لذلك لم تشهد العلاقة بين الطرفين أي نمو، وكما يتضح من التقارير الهولندية وهي الأقدم، التي تناولت الكويت

في القرن الثامن عشر، عدم وجود أية صلة بين الدولة العثمانية وهذا الكيان الجديد، وأولها تقرير "نبهاوزن Kniphausen رئيس الوكالة التجارية الهولندية في جزيرة خرج، عام ١٧٥٦ ومساعده فان درهلست Jan Van Derhulst، فقد كتب عن الكويت ما يلي:

"تسكن جزيرة فيلكا والقرين جماعات من العتوب الذين يتمتعون بالاستقلال عن شيخ الصحراء، إلا أنهم يدفعون له مبلغا صغيرا يمثل ضريبة، ويمتلكون (٣٠٠) مركبا، معظمها صغيرة الحجم، ويحكمهم عدة شيوخ، ولكن الحاكم الرئيسي هو الشيخ "مبارك بن صباح" إلا أنه محدود الثروة ويافع، ولذلك فإن "محمد بن خليفة" الثري الذي يمتلك عدة مراكب يتمتع ويحظى بنفس المكانة التي يحظى بها الشيخ "مبارك"(٣).

يتضح من مضمون الرسالة السابقة الحقائق التالية:

١- حرص العتوب (حكام الكويت) على إظهار نوع من التبعية "لرئيس بني خالد" وهو "شيخ الصحراء" من خلال المبلغ الصغير الذي يرسله إليه حاكم الكويت.
٢- إن حاكم الكويت الفعلي من "أسرة الصباح" وهم فرع من العتوب، وإنه لا سلطة لزعيم بني خالد على الكويت التي كانت مستقلة في شؤونها، في الوقت الذي لم تكن بعد قد اكتملت مقومات نموها.

ومن أقدم الكتابات أيضا ما ذكره الرحالة الدانمركي "كارستن نيبور" Carsten Niebhur الذي مر بمسقط وبوشهر والبصرة في أثناء عودته من بومبي إلى أوروبة وقد جمع معلوماته عن الكويت في أثناء إقامته في بوشهر والبصرة في عام (١٧٦٥)(٤).

فقد كتب الآتي: "الكويت أو القرين كما كانت تعرف: ميناء يبعد مسيرة ثلاثة أيام عن البصرة، يعيش أهلها على صيد اللؤلؤ والأسماك ويمتلكون حوالي ثمانمائة

سفينة، ويحكم الإمارة شيخ من "قبيلة العتوب" وهو يتبع شيخ الاحساء ولكنه يتمتع بالاستقلال في فترات كثيرة (٥).

أما "لا توش" Latouche الوكيل البريطاني في البصرة، فقد كتب إلى مجلس المديرين في لندن في ٢٤ تموز ١٧٧٦، في أثناء نشوب الصراع العثماني الفارسي حول ولاية البصرة، ما يلي: "إذا كان بالإمكان بقاء القرين محايدة فإنه يمكن للقوافل أن تسافر"؛ وأضاف يبدو أن "القرين ذات موقع جيد يمكنها من أن تكون خلفا للزبير، غير أن هذا سوف لن يتأتى دون بقائها مستقلة" (٦).

الأدلة التي تؤكد استقلال الكويت عن القوى المحيطة:

تؤكد عدة أدلة استقلال الكويت، في تلك الفترة عن القوى المحيطة بها: مثلا ظروف بدء الاتصالات بين الكويت وبريطانية لأول مرة عام ١٧٧٥، حين حولت شركة الهند الشرقية الإنجليزية طريق تجارتها وبريدها عبر الكويت (١٧٧٦-١٧٧٩)، بعد حصار الفرس للبصرة مما ساعد على ازدهار تجارة الإمارة. ولا شك في أن هذه الحادثة تعد أولى الإشارات على طبيعة العلاقات الكويتية العثمانية. فقد تم هذا التحول مباشرة دون التقيد بالحصول على موافقة الحكومة العثمانية، أو السلطات العثمانية المحلية في ولايتي بغداد والبصرة.

وفي عام ١٧٨٧ أصبحت الكويت ملجأ للثائرين على السلطات العثمانية في ولاية البصرة، بعد انتصار الكويت على أسطول قبيلة بني كعب في عام ١٧٨٢، في شرقي جزيرة بوبيان (٧).

ونستطيع القول أن لجوء الثائرين يعتبر أحد الأدلة على عدم وجود سلطة عثمانية في الكويت. ففي أعقاب محاولة متسلم البصرة "مصطفى آغا" الاستقلال عن سلطة والي بغداد "سليمان باشا" بمساعدة شيخ قبيلة المنتفق "ثويني باش" أعد والي بغداد قوة كبيرة، للقضاء على هذه المحاولة، وإخضاع البصرة، ففر المتسلم وثويني إلى الكويت، واستجار بحاكمها الشيخ "عبد الله الصباح" (١٧٦٢-١٨١٥).

الذي يهمنا من هذه الحادثة هو، موقف حاكم الكويت من طلب والـــي بغــداد تسليم اللاجئين إليه، فقد وسّط الوالي رئيس الوكالة البريطانية في البصرة "مانيســتي" Manesty لدى الشيخ "عبد الله الصباح" لكي يسلم اللاجئين، كما هدّد بمهاجمته الكويت إذا رفض حاكمها تنفيذ الطلب، ولكن الشيخ "عبد الله الصباح" لم يذعن، مع أن بقـــاء اللاجئين في بلده لا يفيدها بشيء. وأكد الشيخ عبد الله الصبــاح أن التقــاليد العربيــة تلزمه عدم التخلي عن المستجير به، ولذلك فقد أبدى استعداده، لقتال الوالي في سـبيل حماية ضيوفه إذا كان لا بد من ذلك (٨). في ذلك الوقت كانت الكويت تشهد ازدهاراً في تجارتها، وأصبح ميناء الكويت من أغنى الموانى البحرية في الخليج العربي، كمـا أصبحت الكويت سوقاً هاماً لتصريف السلع والبضائع، وكانت السفن التجارية ترســو عند سواحلها للتزود بالمياه.

ومجمل القول، فإن الكويت أصبحت منذ أواخر القرن الثــامن عشــر طريقــاً ملاحياً هاماً لفتت انتباه القوى المجاورة. أما بالنسبة لمتسلم البصـــرة ورئيــس قبيلــة المنتفق فقد غادرا الكويت، وفشلت محاولتهما الهجوم على البصرة (٩).

إن هذه الحادثة تؤكد استقلال قرار شيخ الكويت عن السلطة العثمانيـــة، لأنــه ليس من السهل تحدي والي بغداد، وهو ممثل السلطان العثماني، فلو كـــانت الكويــت تابعة للدولة العثمانية تبعية فعلية لما لجأ إليها الخارجون على الدولة العثمانية.

ومن الأدلة الأخرى ترحيب حاكم الكويت بإنتقال وكالة شركة الهند الشـــرقية الإنجليزية إلى بلاده من البصرة في (١٧٩٣- ١٧٩٥) بعد خلاف رئيـــس الوكالــة "مانيستي" مع السلطات العثمانية في الولاية، وتؤكد أيضاً عدم وجود سلطة عثمانية في الكويت، لأن إقامة الوكالة ساعد على ازدهار حجم تجارة الكويت وإلى إقامة علاقــة مباشرة بين الكويت والوكالة، التي أصبحت تفرغ السلع في الميناء الكويتي، ثم تنقــل إلى الموانى الأخرى. وكان لذلك نتائجه السلبية على البصـــرة، خاصــة وأن نشــاط الوكالة كان عصب الحياة الاقتصادية في الولاية.

يضاف إلى ذلك تناقض السياسة التجارية بين الكويت والولايات العثمانية فالأولى كانت تنتهج سياسة تجارية حرة وتأخذ بأسلوب الرسوم المنخفضة، بينما كانت السياسة المطبقة في الولايات العثمانية تعتمد على الرسوم المرتفعة.

ومثل هذا التناقض كان له آثاره السلبية على اقتصاد البصرة بينما ازدهرت تجارة الكويت وتعززت مكانتها.

ومهما يكن من أمر فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن لشيوخ الكويت عدم الامتثال للأوامر العثمانية وانتهاج سياسة تتناقض مع السياسة العثمانية إذا كانت الكويت تابعة للدولة العثمانية؟

إن نتيجة هامة يمكن استخلاصها من هذا العرض السريع وهي أن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك سلطة فعلية على الكويت وأن سياسة حكام الكويت خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت مستقلة، وبعيدة عن تدخل السلطات العثمانية.

إلا أن انهيار نفوذ حكم قبيلة بني خالد في الإحساء عام ١٧٩٥. أمام هجمات الدولة السعودية الأولى (١٧٤٥-١٨١٨) أدخل الكويت مرحلة هامة. فقد أصبحت مهددة من جانب الدولة السعودية التي حاولت مد نفوذها إلى الكويت وفرض الزكاة على أهلها دون جدوى خلال "١٧٩٣ و١٧٩٧". ومما تجدر الإشارة إليه بهذا الصدد أن الكويت استطاعت بقوتها الذاتية صد هذه الهجمات بينما لم تكن (الدولة) العثمانية بعد قد أدركت خطورة الحركة الدينية الإصلاحية بزعامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على سلطانها.

وفي تقديرنا أن هذه الأحداث والتطورات جعلت الكويت تقترب أكثر باتجاه الدولة العثمانية، التي استطاعت القضاء على الدولة السعودية وتدمير عاصمتها "الدرعية" في تموز ١٨١٨، وبالتالي كان أمراً طبيعياً أن تتخذ الكويت اتجاه التقارب من الدولة العثمانية.

العلاقات الكويتية العثمانية خلال القرن التاسع عشر:

قبل انتهاء العقد الثاني من القرن التاسع عشر انهارت الدولة السعودية "الأولى"، وتزايد النفوذ الإنجليزي في منطقة الخليج وبدأت أولى خطوات انفراد بريطانية بالسيطرة على المنطقة في أعقاب نجاح حملتها الثالثة التي وجهتها ضد القواسم في تشرين الثاني ١٨١٩.

كما ازداد النفوذ السياسي الإنجليزي في البصرة، مع تزايد حجم التجارة الإنجليزية هناك، حتى أن الوكيل السياسي البريطاني في بغداد (ريش) James Rich هو الذي رشح عبد الله باشا (١٨١٠ – ١٨١٣) وسعيد باشا (١٨١٣-١٨١٦) لتولي ولاية بغداد (١٠). بينما كانت الدولة العثمانية مشغولة بمشاكلها في أوروبة وحربها ضد روسية.

سياسة الشيخ جابر بن عبد الله الصباح:

أما في الكويت التي كان يحكمها في تلك الفترة الشيخ جابر الصباح (١٨١٥-١٨٥٩)، فقد كتب ميجور كوليبرك Colebrook في تقريره عن ساحل الخليج العربي المؤرخ في ١٠ أيلول عام ١٨٢٠ مايلي: إن الكويت هي أول مستوطنة على رأس الخليج العربي، وتقع في ميناء واسع يصلح لرسو السفن، ويسكنها مجموعة من العرب يخضعون "لآل صباح" وهم فرع من "قبيلة العتوب" وتحميها قلعة مجهزة بعشرين مدفعا، وبناء على أكثر التقديرات احتمالا، فإن السكان المسلحين يتراوح عددهم بين ٥٠٠٠ الآف إلى ٧٠٠٠ الآف رجل وأن بضعة مئات منهم من العتوب، أما الباقي فهم عبارة عن خليط، وأنهم يعملون بالتجارة ويعيشون بسلام" (١١).

ويلاحظ أن التقرير يخلو من الإشارة إلى العلاقة مع الدولة العثمانية. واعتقد أنه لو كانت هناك ثمة علاقة أو سلطة عثمانية لما أغفلها كوليبرك، وفي علم ١٨٢١، حدث تطور آخر وذلك في أعقاب اضطراب علاقة وكالة شركة الهند الشرقية

الإنجليزية في البصرة مع باشا بغداد "داود باشا" نتيجة لمحاولته فرض رسوم على سلع الوكالة تزيد عن الحد الذي تم الاتفاق عليه في عام ١٧٣١، وهو ٣% (١٢). ولذلك فقد غادرت الوكالة البصرة إلى الكويت، واستقرت هناك من ١٥ كانون الأول ١٨٢١ إلى ١٩ نيسان ١٨٢٢ (١٣)، ثم عادت إلى البصرة وذلك بعد أن هدد حاكم بومبي "الفينستون" Eliphinstons باشويه بغداد بتحريم كل المعاملات التجارية مع ولاية البصرة فاضطر الوالي إلى التراجع (١٤). عن قراره.

ولا يمكن إغفال أهمية الانتقال بالنسبة لفهم العلاقات الكويتية العثمانية في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، فلو كانت سلطة والي بغداد ممتدة إلى الكويت، لما أمكن للوكالة نقل المستودع التجاري إليها.

ومن التقارير التي تسلط الضوء على العلاقات الكويتية العثمانية تقرير الميجور "جورج ب. بروكس" C.B.Brucks، في آب ١٨٢٩ وهو من جهة البحرية الهندية والذي أرسله إلى حكومة الهند، حيث وصف فيه الملاحة في الخليج العربي. وبعد أن شرح أهمية موقع الكويت، وتجارتها قال عن حكامها أنهم "يعترفون بسيادة الأتراك ويدفعون ضريبة عبارة عن أربعين كيساً من الأرز وأربعمائة سباطة من التمور، وأن الشيخ "حاكم الكويت" – يتلقى سنوياً خلعة شرفية من الحكومة العثمانية، وأن الكويت تتمتع بالسلم، بينما تسود الاضطرابات كل الخليج، ولهذا فإن أهلها يدينون لقوتهم البحرية (١٥).

نلاحظ أن هناك بعض التناقض في ما يتعلق مع الدولة العثمانية. ويمكن القول أن هذا التقرير، أول إشارة إلى اعتراف أسمي من حاكم الكويت، أي أنها علاقة تربطها الرابطة الدينية والمنفعة المتبادلة وعدم قدرة حكام الكويت تجاهل ضرورة وأهمية الارتباط بأكبر دولة إسلامية.

إذن فقد حدث تغير في العلاقة الكويتية العثمانية. ويمكن إرجاع هذا التغير إلى التطورات التي شهدتها منطقة الخليج العربي وشبه جزيرة العرب. ويأتي في مقدمتها نجاح الدولة العثمانية بقوة محمد علي في القضاء على الدولة السعودية الأولى، كما

الاستقرار:

هاجر العتوب في النصف الثاني من القرن السابع* عشر من الهدار من مقاطعة الأفلاج في نجد بسبب القحط، والنزاع القبلي، حيث استقروا في قطر مدة تصل إلى حوالي خمسين عاما.

أما فيما يتعلق بالأماكن التي اتجهوا إليها بعد ذلك فإن المصادر تختلف، ولكن من المعروف أنهم أقاموا ولفترة قصيرة في المخراق ثم في منطقة خور الصبية شمال الكويت الشرقي. لكنهم اضطروا إلى النزوح منها تلبية لأوامر السلطات العثمانية في البصرة التي اعتبرت وجودهم يشكل تهديدا للقوافل التجارية، واستقر بهم المقام في (كوت بني خالد) أي "الكويت"، ذلك الكوت الذي أقامه شيخ بني خالد لتخزين المؤن والذخائر اللازمة.

وفي أعقاب الاستقرار بدأت مرحلة الإدارة المشتركة حين قسم العتوب المسؤوليات فيما بينهم، وأصبحت شؤون الحكم تقع على عاتق "آل الصباح" وشؤون التجارة "لآل خليفة"، أما شؤون البحر فهي مسؤولية "الجلاهمة".

ثم بدأت الكويت تنمو سريعا ويزداد عدد سكانها، وتزدهر تجارتها نتيجة لعوامل كثيرة، ليست مجالها هذه الدراسة.

بداية العلاقة الكويتية العثمانية:

كانت الكويت في تلك الفترة تدخل ضمن ممتلكات قبيلة بني خالد، ولذلك استأذن العتوب رئيس بني خالد، قبل الاستقرار بها، لكن العتوب كما يبدو أدركوا

* حدد الشيخ مبارك الصباح حاكم الكويت (١٨٩٦-١٩١٥) في رسالته إلى محسن باشا وإلى البصرة تاريخ تأسيس الكويت بعام ١٦١٣ أنظر حسين خلف الشيخ خزعل – تاريخ الكويت ج ١ ص٣٧، ولقد اختلفت المصادر في تحديد تاريخ التأسيس.

أهمية التفاهم مع والي بغداد لضمان استقرارهم، وعدم تدخل السلطات العثمانية في شؤونهم، ولذلك توجه الشيخ "صباح بن جابر" إلى ولاية بغداد عام ١٧١٨، حيث شرح للوالي هدف جماعة العتوب من الاستقرار في الكويت وأنهم "لا يبغون ضراً بأحد" (١).

وكأن الشيخ "صباح" أراد أن يؤكد للسلطات العثمانية أن استقرارهم لن يؤدي إلى اضطراب الوضع أو إثارة المشاكل والتعدي على القوافل التجارية ولا نستبعد أنه أراد الحصول على الدعم العثماني، في حالة تعرض هذا الكيان الجديد لأي خطر.

ومن أجل إيجاد التوازن في علاقة العتوب مع أهم القوى في المنطقة المحيطة بالكويت، عقد الشيخ صباح اتفاق صداقة مع شيخ قبيلة بني خالد، وقد ارتكز على ما يلي "تصادق الكويت من يصادق بني خالد، وتعادى خصومهم"، كما اتفقا على تحديد تبعية القبائل المقيمة على الحدود بين الجانبين، وفقاً لرغبة الخوالد (٢).

أما بالنسبة لزيارة الشيخ صباح إلى والي بغداد، فقد كانت استهلالاً طيباً للعلاقة الكويتية العثمانية. لكن ما هي نتائج هذه الزيارة؟

لا شك في أنها حققت الهدف المنشود من ورائها، وهو ضمان إقرار الدولة العثمانية إستقرار العتوب في الكويت، وعدم التدخل في شؤونهم، ولكن في نفس الوقت تؤكد المصادر التاريخية أنه لم يترتب على هذه الزيارة أي التزام من جانب الشيخ صباح تجاه الدولة العثمانية، التي لم تجد كما يبدو في الكويت ما يشجعها على تحمل أعباء إقامة سلطة فعلية عثمانية فيها. ومن جانب الشيخ فإنه يمكن اعتبار هذه الزيارة على أنها اعتراف منه بالولاء للدولة الإسلامية الكبرى، أي الاعتراف بالتبعية الأسمية للدولة العثمانية التي لا تقترن بأي مظهر من مظاهر السلطة الفعلية.

بعض التقارير الأجنبية خلال القرن الثامن عشر:

بما أن الكويت لا تشكل أهمية لدى الدولة العثمانية، لذلك لم تشهد العلاقة بين الطرفين أي نمو، وكما يتضح من التقارير الهولندية وهي الأقدم، التي تناولت الكويت

في القرن الثامن عشر، عدم وجود أية صلة بين الدولة العثمانية وهذا الكيان الجديد، وأولها تقرير "نبهاوزن Kniphausen رئيس الوكالة التجارية الهولندية في جزيرة خرج، عام ١٧٥٦ ومساعده فان درهلست Jan Van Derhulst، فقد كتب عن الكويت ما يلي:

"تسكن جزيرة فيلكا والقرين جماعات من العتوب الذين يتمتعون بالاستقلال عن شيخ الصحراء، إلا أنهم يدفعون له مبلغا صغيرا يمثل ضريبة، ويمتلكون (٣٠٠) مركبا، معظمها صغيرة الحجم، ويحكمهم عدة شيوخ، ولكن الحاكم الرئيسي هو الشيخ "مبارك بن صباح" إلا أنه محدود الثروة ويافع، ولذلك فإن "محمد بن خليفة" الثري الذي يمتلك عدة مراكب يتمتع ويحظى بنفس المكانة التي يحظى بها الشيخ "مبارك"(٣).

يتضح من مضمون الرسالة السابقة الحقائق التالية:

١- حرص العتوب (حكام الكويت) على إظهار نوع من التبعية "لرئيس بني خالد" وهو "شيخ الصحراء" من خلال المبلغ الصغير الذي يرسله إليه حاكم الكويت.

٢- إن حاكم الكويت الفعلي من "أسرة الصباح" وهم فرع من العتوب، وإنه لا سلطة لزعيم بني خالد على الكويت التي كانت مستقلة في شؤونها، في الوقت الذي لم تكن بعد قد اكتملت مقومات نموها.

ومن أقدم الكتابات أيضا ما ذكره الرحالة الدانمركي "كارستن نيبور" Carsten Niebhur الذي مر بمسقط وبوشهر والبصرة في أثناء عودته من بومبي إلى أوروبة وقد جمع معلوماته عن الكويت في أثناء إقامته في بوشهر والبصرة في عام (١٧٦٥)(٤).

فقد كتب الآتي: "الكويت أو القرين كما كانت تعرف: ميناء يبعد مسيرة ثلاثة أيام عن البصرة، يعيش أهلها على صيد اللؤلؤ والأسماك ويمتلكون حوالي ثمانمائة

سفينة، ويحكم الإمارة شيخ من "قبيلة العتوب" وهو يتبع شيخ الاحساء ولكنه يتمتع بالاستقلال في فترات كثيرة (٥).

أما "لا توش" Latouche الوكيل البريطاني في البصرة، فقد كتب إلى مجلس المديرين في لندن في ٢٤ تموز ١٧٧٦، في أثناء نشوب الصراع العثماني الفارسي حول ولاية البصرة، ما يلي: "إذا كان بالإمكان بقاء القرين محايدة فإنه يمكن للقوافل أن تسافر"؛ وأضاف يبدو أن "القرين ذات موقع جيد يمكنها من أن تكون خلفا للزبير، غير أن هذا سوف لن يتأتى دون بقائها مستقلة" (٦).

الأدلة التي تؤكد استقلال الكويت عن القوى المحيطة:

تؤكد عدة أدلة استقلال الكويت، في تلك الفترة عن القوى المحيطة بها: مثلا ظروف بدء الاتصالات بين الكويت وبريطانية لأول مرة عام ١٧٧٥، حين حولت شركة الهند الشرقية الإنجليزية طريق تجارتها وبريدها عبر الكويت (١٧٧٦-١٧٧٩)، بعد حصار الفرس للبصرة مما ساعد على ازدهار تجارة الإمارة. ولا شك في أن هذه الحادثة تعد أولى الإشارات على طبيعة العلاقات الكويتية العثمانية. فقد تم هذا التحول مباشرة دون التقيد بالحصول على موافقة الحكومة العثمانية، أو السلطات العثمانية المحلية في ولايتي بغداد والبصرة.

وفي عام ١٧٨٧ أصبحت الكويت ملجأ للثائرين على السلطات العثمانية في ولاية البصرة، بعد انتصار الكويت على أسطول قبيلة بني كعب في عام ١٧٨٢، في شرقي جزيرة بوبيان (٧).

ونستطيع القول أن لجوء الثائرين يعتبر أحد الأدلة على عدم وجود سلطة عثمانية في الكويت. ففي أعقاب محاولة متسلم البصرة "مصطفى آغا" الاستقلال عن سلطة والي بغداد "سليمان باشا" بمساعدة شيخ قبيلة المنتفق "ثويني باش" أعد والي بغداد قوة كبيرة، للقضاء على هذه المحاولة، وإخضاع البصرة، ففر المتسلم وثويني إلى الكويت، واستجار بحاكمها الشيخ "عبد الله الصباح" (١٧٦٢-١٨١٥).

الذي يهمنا من هذه الحادثة هو، موقف حاكم الكويت من طلب والي بغداد تسليم اللاجئين إليه، فقد وسّط الوالي رئيس الوكالة البريطانية في البصرة "مانيستي" Manesty لدى الشيخ "عبد الله الصباح" لكي يسلم اللاجئين، كما هدّد بمهاجمته الكويت إذا رفض حاكمها تنفيذ الطلب، ولكن الشيخ "عبد الله الصباح" لم يذعن، مع أن بقاء اللاجئين في بلده لا يفيدها بشيء. وأكد الشيخ عبد الله الصباح أن التقاليد العربية تلزمه عدم التخلي عن المستجير به، ولذلك فقد أبدى استعداده، لقتال الوالي في سبيل حماية ضيوفه إذا كان لا بد من ذلك (٨). في ذلك الوقت كانت الكويت تشهد ازدهاراً في تجارتها، وأصبح ميناء الكويت من أغنى الموانى البحرية في الخليج العربي، كما أصبحت الكويت سوقاً هاماً لتصريف السلع والبضائع، وكانت السفن التجارية ترسو عند سواحلها للتزود بالمياه.

ومجمل القول، فإن الكويت أصبحت منذ أواخر القرن الثامن عشر طريقاً ملاحياً هاماً لفتت انتباه القوى المجاورة. أما بالنسبة لمتسلم البصرة ورئيس قبيلة المنتفق فقد غادرا الكويت، وفشلت محاولتهما الهجوم على البصرة (٩).

إن هذه الحادثة تؤكد استقلال قرار شيخ الكويت عن السلطة العثمانية، لأنه ليس من السهل تحدي والي بغداد، وهو ممثل السلطان العثماني، فلو كانت الكويت تابعة للدولة العثمانية تبعية فعلية لما لجأ إليها الخارجون على الدولة العثمانية.

ومن الأدلة الأخرى ترحيب حاكم الكويت بإنتقال وكالة شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى بلاده من البصرة في (١٧٩٣- ١٧٩٥) بعد خلاف رئيس الوكالة "مانيستي" مع السلطات العثمانية في الولاية، وتؤكد أيضاً عدم وجود سلطة عثمانية في الكويت، لأن إقامة الوكالة ساعد على ازدهار حجم تجارة الكويت وإلى إقامة علاقة مباشرة بين الكويت والوكالة، التي أصبحت تفرغ السلع في الميناء الكويتي، ثم تنقل إلى الموانى الأخرى. وكان لذلك نتائجه السلبية على البصرة، خاصة وأن نشاط الوكالة كان عصب الحياة الاقتصادية في الولاية.

يضاف إلى ذلك تناقض السياسة التجارية بين الكويت والولايات العثمانية فالأولى كانت تنتهج سياسة تجارية حرة وتأخذ بأسلوب الرسوم المنخفضة، بينما كانت السياسة المطبقة في الولايات العثمانية تعتمد على الرسوم المرتفعة.

ومثل هذا التناقض كان له آثاره السلبية على اقتصاد البصرة بينما ازدهرت تجارة الكويت وتعززت مكانتها.

ومهما يكن من أمر فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن لشيوخ الكويت عدم الامتثال للأوامر العثمانية وانتهاج سياسة تتناقض مع السياسة العثمانية إذا كانت الكويت تابعة للدولة العثمانية؟

إن نتيجة هامة يمكن استخلاصها من هذا العرض السريع وهي أن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك سلطة فعلية على الكويت وأن سياسة حكام الكويت خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت مستقلة، وبعيدة عن تدخل السلطات العثمانية.

إلا أن انهيار نفوذ حكم قبيلة بني خالد في الإحساء عام ١٧٩٥. أمام هجمات الدولة السعودية الأولى (١٧٤٥-١٨١٨) أدخل الكويت مرحلة هامة. فقد أصبحت مهددة من جانب الدولة السعودية التي حاولت مد نفوذها إلى الكويت وفرض الزكاة على أهلها دون جدوى خلال "١٧٩٣ و١٧٩٧". ومما تجدر الإشارة إليه بهذا الصدد أن الكويت استطاعت بقوتها الذاتية صد هذه الهجمات بينما لم تكن (الدولة) العثمانية بعد قد أدركت خطورة الحركة الدينية الإصلاحية بزعامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على سلطانها.

وفي تقديرنا أن هذه الأحداث والتطورات جعلت الكويت تقترب أكثر باتجاه الدولة العثمانية، التي استطاعت القضاء على الدولة السعودية وتدمير عاصمتها "الدرعية" في تموز ١٨١٨، وبالتالي كان أمراً طبيعياً أن تتخذ الكويت اتجاه التقارب من الدولة العثمانية.

العلاقات الكويتية العثمانية خلال القرن التاسع عشر:

قبل انتهاء العقد الثاني من القرن التاسع عشر انهارت الدولة السعودية "الأولى"، وتزايد النفوذ الإنجليزي في منطقة الخليج وبدأت أولى خطوات انفراد بريطانية بالسيطرة على المنطقة في أعقاب نجاح حملتها الثالثة التي وجهتها ضد القواسم في تشرين الثاني ١٨١٩.

كما ازداد النفوذ السياسي الإنجليزي في البصرة، مع تزايد حجم التجارة الإنجليزية هناك، حتى أن الوكيل السياسي البريطاني في بغداد (ريش) James Rich هو الذي رشح عبد الله باشا (١٨١٠ – ١٨١٣) وسعيد باشا (١٨١٣-١٨١٦) لتولي ولاية بغداد (١٠). بينما كانت الدولة العثمانية مشغولة بمشاكلها في أوروبة وحربها ضد روسية.

سياسة الشيخ جابر بن عبد الله الصباح:

أما في الكويت التي كان يحكمها في تلك الفترة الشيخ جابر الصباح (١٨١٥-١٨٥٩)، فقد كتب ميجور كوليبرك Colebrook في تقريره عن ساحل الخليج العربي المؤرخ في ١٠ أيلول عام ١٨٢٠ مايلي: إن الكويت هي أول مستوطنة على رأس الخليج العربي، وتقع في ميناء واسع يصلح لرسو السفن، ويسكنها مجموعة من العرب يخضعون "لآل صباح" وهم فرع من "قبيلة العتوب" وتحميها قلعة مجهزة بعشرين مدفعا، وبناء على أكثر التقديرات احتمالا، فإن السكان المسلحين يتراوح عددهم بين ٥٠٠٠ الآف إلى ٧٠٠٠ الآف رجل وأن بضعة مئات منهم من العتوب، أما الباقي فهم عبارة عن خليط، وأنهم يعملون بالتجارة ويعيشون بسلام" (١١).

ويلاحظ أن التقرير يخلو من الإشارة إلى العلاقة مع الدولة العثمانية. واعتقد أنه لو كانت هناك ثمة علاقة أو سلطة عثمانية لما أغفلها كوليبرك، وفي علم ١٨٢١، حدث تطور آخر وذلك في أعقاب اضطراب علاقة وكالة شركة الهند الشرقية

الإنجليزية في البصرة مع باشا بغداد "داود باشا" نتيجة لمحاولته فرض رسوم على سلع الوكالة تزيد عن الحد الذي تم الاتفاق عليه في عام ١٧٣١، وهو ٣% (١٢). ولذلك فقد غادرت الوكالة البصرة إلى الكويت، واستقرت هناك من ١٥ كانون الأول ١٨٢١ إلى ١٩ نيسان ١٨٢٢ (١٣)، ثم عادت إلى البصرة وذلك بعد أن هدد حاكم بومبي "الفينستون" Eliphinstons باشويه بغداد بتحريم كل المعاملات التجارية مع ولاية البصرة فاضطر الوالي إلى التراجع (١٤). عن قراره.

ولا يمكن إغفال أهمية الانتقال بالنسبة لفهم العلاقات الكويتية العثمانية في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، فلو كانت سلطة والي بغداد ممتدة إلى الكويت، لما أمكن للوكالة نقل المستودع التجاري إليها.

ومن التقارير التي تسلط الضوء على العلاقات الكويتية العثمانية تقرير الميجور "جورج ب. بروكس" C.B.Brucks، في آب ١٨٢٩ وهو من جهة البحرية الهندية والذي أرسله إلى حكومة الهند، حيث وصف فيه الملاحة في الخليج العربي. وبعد أن شرح أهمية موقع الكويت، وتجارتها قال عن حكامها أنهم "يعترفون بسيادة الأتراك ويدفعون ضريبة عبارة عن أربعين كيساً من الأرز وأربعمائة سباطة من تمور، وأن الشيخ "حاكم الكويت" – يتلقى سنوياً خلعة شرفية من الحكومة العثمانية، وأن الكويت تتمتع بالسلم، بينما تسود الاضطرابات كل الخليج، ولهذا فإن أهلها يدينون لقوتهم البحرية (١٥).

نلاحظ أن هناك بعض التناقض في ما يتعلق مع الدولة العثمانية. ويمكن القول أن هذا التقرير، أول إشارة إلى اعتراف أسمي من حاكم الكويت، أي أنها علاقة تربطها الرابطة الدينية والمنفعة المتبادلة وعدم قدرة حكام الكويت تجاهل ضرورة وأهمية الارتباط بأكبر دولة إسلامية.

إذن فقد حدث تغير في العلاقة الكويتية العثمانية. ويمكن إرجاع هذا التغير إلى التطورات التي شهدتها منطقة الخليج العربي وشبه جزيرة العرب. ويأتي في مقدمتها نجاح الدولة العثمانية بقوة محمد علي في القضاء على الدولة السعودية الأولى، كما

السويس. وكانت الكويت ضمن الدائرة التي سلط الوالي أنظاره عليها وأراد تعزيز سلطة الدولة فيها.

انجلت الأمور بعد ذلك عندما حاول نامق باشا فرض بعض الإشراف على النشاط التجاري، والسياسي الكويتي حين طلب من الشيخ "صباح بن جابر" قبول منصب قائمقام، كما طلب منه الموافقة على تأسيس جمرك عثماني في بلده، ولكن الشيخ صباح رفض هذين المطلبين وفضل إبقاء الكويت مستقلة (٣٤).

وهذه أول مرة تبرز محاولة من هذا النوع ترمي إلى جعل حاكم الكويت قائمقاما، ويؤكد ذلك أن حكام الكويت لم يحملوا حتى هذا التاريخ هذا اللقب، كما لم يكن أهل الكويت يدفعون ضرائب أو مكوسا للخزانة العثمانية.

لقد أثار رفض الشيخ غضب والي بغداد، بالإضافة إلى قلقه من تردد البواخر البريطانية على ميناء الكويت، لأنه كان يخشى من نتائج ذلك على تجارة البصرة، وإنقاص أهميتها كميناء تجاري، رغم أن البواخر البريطانية كانت تتردد على موانئ ولايتي بغداد والبصرة أيضا في ذلك الوقت.

وأمام ثبات موقف الشيخ صباح، هدد الوالي باحتلال الكويت، ما لم يوافق الشيخ على مطالبه، وبدأ في تجهيز سفينتين حربيتين لغزو الكويت، فلم يكن أمام الشيخ غير تهدئة الموقف وامتصاص غضب وحنق الوالي بأن طلب من الوكيل البريطاني في البصرة، ان لا يسمح للباخرة الإنجليزية "الفرات" بزيارة ميناء الكويت عند عودتها من البصرة، لأنه يرى بأن متسلم البصرة سليمان بك سوف يبالغ في تقريره إلى والي بغداد بخصوص حمولة هذه الباخرة من البصرة إلى الكويت.

اقتنع الوكيل البريطاني بالأسباب التي دفعت الشيخ صباح إلى هذا الموقف، فوافق على أن ترسو الباخرة "الفرات" في ميناء البصرة (٣٥).

كما اتخذ حاكم الكويت خطوات أخرى من أجل إبعاد الكويت عن اضطراب العلاقة مع ممثل السلطات العثمانية في بغداد "نامق باشا"، بأن طلب من القنصل

البريطاني في بغداد في ١٦ أيار ١٨٦٦ أن تتوقف بواخر شركة الملاحة البريطانية عن زيارة ميناء الكويت، طالما أن نامق باشا واليا في بغداد (٣٦).

إذن، رغم أن الشيخ كان يعترف بالتبعية الأسمية للدولة العثمانية، والولاء للسلطان العثماني، فإنه من ناحية أخرى لم يكن يصدع بما يؤمر به من تلك السلطات، فلم يوافق إلا على ما كان مسايرا لمصلحة الكويت، مع الحرص على عدم إثارة غضب السلطات العثمانية قدر الإمكان.

ولا شك في أن ضعف الوجود البحري العثماني كان له أثره في صلابة الموقف الكويتي هذا. وقد علق الكولونيل "كامبل" القنصل العام البريطاني في بغداد بهذا الصدد، في تقريره بتاريخ ١٨ نيسان عام ١٨٦٦ بمايلي: "إن الموضوع يشير إلى السياسة التي يريد نامق باشا اتباعها بشأن الكويت، وأن الوالي سوف يعمل على مد نفوذه إلى موانى الخليج، بعد وصول الباخرتين اللتين أرسلتا من العاصمة العثمانية للعمل في مياه الخليج، وأضاف كامبل: "أن الكويت ميناء حر، ذو أهمية كبيرة، وترفع سفنه الأعلام العثمانية ولكن لا يدفع أهل الكويت "جزية" أي ضرائب أو مكوس للخزينة العثمانية، وأن العلاقة بين الشيخ والباب العالي مثل علاقة الشيوخ من القبائل البدوية الكبرى، والذين يحصلون على المنح الشهرية من بغداد، والموصل، وحلب ودمشق، وذلك مقابل قيامهم بحماية الطرق، فهذا -الشيخ- التزم بحماية سواحل شط العرب من الهجوم عليها من جهة البحر ومقابل هذه الخدمة يتلقى حصة سنوية من التمر من السلطات العثمانية في البصرة".

ورغم تأكيد القنصل البريطاني "كامبل" اعتراف حاكم الكويت "بسلطة" الباب العالي، إلا أنه أشار في نفس الوقت إلى أن "الضعف الفعلي لهذه السلطة، أعطى الكويت ضمانات الاستقلال، وأن ميناء الكويت حر، ويحظى باحترام الإمارات المجاورة الخاصة وأن لديهم القوة الكافية"(٣٧)، وأضاف: "طالما أن مطالب والي بغداد في الكويت تقتصر على دفع الزكاة السنوية، فإن الشيخ لم يكن يعارضه في

ذلك، أما إذا كانت مطالبه تتعدى ذلك، بمحاولة إدخال أي شكل من أشكال الإدارة التركية، فإن الكويت سوف ترفض ذلك وقد تقطع علاقتها بالباب العالي (٣٨).

كان الأمر شديداً على نفس الشيخ صباح الذي خشي على بلده من نتيجة هذا التوتر، واتضحت أمامه أهداف والي بغداد، وأدرك أن ازدهار تجارة الكويت من أهم أسباب تطلع الوالي إلى مد السيادة العثمانية إليها وإنشاء جمرك عثماني فيها.

ولا شك في أن هذه السياسة العثمانية الجديدة واهتمام الدولة العثمانية بمنطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية، جعل الكويت معرضة لخطر امتداد السلطة العثمانية الفعلية إليها في السنوات التالية، كما أن الكويت لم تكن خلالها بمفردها مجالاً للنشاط العثماني.

سياسة مدحت باشا والي بغداد ١٨٦٩-١٨٧٢:

كان مدحت باشا، من أشهر دعاة الإصلاح في الدولة العثمانية، وكان يسعى إلى بسط النفوذ العثماني على الأقاليم الآسيوية التابعة للدولة أسمياً، لتعويض الخسائر الإقليمية العثمانية في أوروبة. وقد اتفق رأيه هذا مع سياسة السلطان عبد العزيز (١٨٦١ – ١٨٧٦)، الرامية إلى إخضاع مقاطعات الدولة للسلطة العثمانية الفعلية.

وأراد أيضاً مناوأة نفوذ الإنجليز في الخليج العربي، وبسط السيادة العثمانية الفعلية على الساحل الشمالي للخليج العربي، أي تنفيذ سياسة نشطة في الخليج العربي. ومما شجع الدولة العثمانية الضعف الذي أصاب الدولة السعودية في أعقاب وفاة الأمير فيصل بن تركي ١٨٦٥، ووقوع الخلاف بين عبد الله وسعود، ولدي الأمير فيصل. ففي عام ١٨٧١، طلب الأمير عبد الله بن فيصل أمير نجد، نصرة مدحت باشا ضد أخيه الأمير سعود، في أعقاب اشتداد الصراع بينهما على السلطة.

ورغم أن الأمير عبد الله من أشد المتعصبين "للحركة السلفية"، ويعد العدو التقليدي للدولة العثمانية، إلا أن والي بغداد رحب بطلب الأمير عبد الله، خاصة وأن

الجيش العثماني أصبح نظامياً حديثاً، كما تم افتتاح قناة السويس للملاحة، مما يعني سهولة العبور إلى البحر الأحمر، ثم إلى الخليج العربي بالعتاد والقوات العثمانية.

وكان والي بغداد يرى أن الصراع بين الأميرين عبد الله وسعود سوف يؤدي إلى تدخل الإنجليز وفرض سيطرتهم على السواحل النجدية والكويت (٣٩). وبعد عدة تقارير أرسلها إلى الباب العالي، رحب الأخير بطلب الأمير عبد الله فبدأت الاستعدادات في بغداد لإرسال حملة إلى الإحساء. وبعد أن استكملت ولاية بغداد الاستعدادات المطلوبة، انطلقت الحملة منها بقيادة نافذ باشا، وكان هدفها الظاهر والمباشر هو إعادة السلطة إلى الأمير عبد الله بن فيصل وإقرار الأمن في نجد. أما الهدف الفعلي فهو إخضاعها، والقضاء على آل سعود والحيلولة دون إخضاع سواحل نجد للانجليز.

تحركت طلائع الحملة في ٢٠ نيسان ١٨٧١، وسيطرت على القطيف في تموز ١٨٧١ ثم توالي نجاحها، وأصبحت نجد في قبضة السلطات العثمانية، وتم تعيين نافذ باشا متصرفاً على لواء نجد الذي يتألف من عدد من النواحي والأقضية هي المبرز – القطيف – الهفوف – قطر (٤٠).

وفي أواخر تشرين الثاني وصل مدحت باشا إلى الهفوف بعد أن حققت الحملة أهدافها في السيطرة على نجد. وإنهاء الحكم السعودي هناك.

موقف الكويت:

لقد ازداد الاهتمام العثماني بالكويت في أعقاب تولي مدحت باشا ولاية بغداد، الذي اعترف بفشل كل محاولات الوالي السابق محمد نامق باشا، لإقناع حاكم الكويت الشيخ صباح الثاني قبول لقب قائمقام، والموافقة على إقامة جمرك عثماني في إمارته.

وقال عن الكويت إنها عرفت كوحدة مستقلة أشبه بالجمهورية حيث يحكم شعبها نفسه بنفسه (٤١).

وكان يعتقد أن وضع الكويت تحت الإدارة العثمانية سوف يمكن الدولة العثمانية من الاحتفاظ بالمناطق الأخرى بواسطة القوة (٤٢). ولذلك اقترح على الباب العالي تأسيس إدارة عثمانية في الكويت، وكان يرى أن شيوخها الذين أعربوا لمندوبه عن اعتزازهم برفع العلم العثماني والتابعية العثمانية، إلا أنهم يخشون الوقوع بسببها تحت التكاليف أي الجمارك والرسوم (٤٣).

وفيما يتعلق بموقف الكويت من الحملة، فقد رحب الشيخ "عبد الله الصباح" بالتعاون معها بناء على طلب من والي بغداد وعبر عن تحالفه الفعال حين اشترك بعدة سفن يصل عددها إلى ثمانين سفينة، وبقيادته بينما كانت القوة البرية المؤلفة من بعض العشائر بقيادة الشيخ "مبارك الصباح"، ولم يكن دور هذه القوة دورا عاديا، فقد اشتركت في المعركة الأولى التي خاضتها القوات العثمانية في القطيف (٤٤).

ولم يقتصر دور الكويت على المساعدة العسكرية، فقد قام الشيخ عبد الله الصباح بنشاط سياسي حين أبحر إلى قطر، والتقى الشيخ جاسم بن ثاني الذي وافق على رفع العلم العثماني على الدوحة بينما رفض ذلك والده الشيخ محمد بن ثاني (٤٥). ورغم أن هناك عدة اعتبارات أدت إلى التقارب القطري العثماني، إلا أنه لا يمكن إغفال دور الشيخ عبد الله الصباح في ذلك.

لا شك من حيث الواقع التاريخي، في أن موقف الشيخ عبد الله الصباح، المتحالف مع الحكومة العثمانية آنذاك لا يثير الاستغراب، فالكويت سبق أن قدمت العون لولاية البصرة في ١٨٣٧، و١٨٤٥، كما أشرنا من قبل.

كما أنه لم يكن من السهل على حاكم الكويت تجاهل الحملة العثمانية، أو رفض التعاون معها، خاصة وأن علاقة ودية كانت تربطه بالأمير عبد الله بن فيصل، وقد أراد الشيخ عبد الله الصباح من هذا التعاون تحقيق عدة مكاسب أهمها أن يجنب إمارته خطر التدخل العسكري، وبالتالي فإن الثمن الذي دفعه الشيخ عبد الله الصباح للحفاظ على استقلال الكويت عن الدولة العثمانية هو المساهمة الفعالة في الحملة.

نتائج الموقف الكويتي على العلاقة مع الدولة العثمانية:

لقد كان موقف الكويت موضع تقدير الحكومة العثمانية، كما توطدت العلاقة الكويتية العثمانية، ودخلت في مرحلة التنظيم حين تم التفاهم بين حاكم الكويت الشيخ "عبد الله الصباح" ووالي بغداد "مدحت باشا" على رفع العلم العثماني على السفن الكويتية، وأن يحمل الشيخ عبد الله لقب قائمقام، واعتبار الكويت قضاء تابعا لولاية البصرة، حسب التنظيم الإداري العثماني للمنطقة وإنشاء جمرك عثماني في الكويت. ومنح حاكم الكويت المزيد من الأراضي الزراعية في منطقة شط العرب، والاستمرار في إعفاء أهل الكويت من الرسوم الجمركية وضريبة العشر (٤٦)، التي كانت مفروضة على سكان الولايات العثمانية.

وهكذا فقد حقق مدحت باشا هدف الباب العالي، فقد كان الصدر الأعظم في ٢٥ من ذي الحجة ١٢٨٦ قد استحسن اقتراح والي بغداد إقامة إدارة عثمانية في كل من البحرين والكويت، وإضفاء مرتبة القائمقام على شيخ الكويت عبد الله الصباح، وإرسال براءات لخطباء المساجد في الكويت، وإقامة قوة عسكرية أمنية فيها مؤلفة من مائة عسكري تركي(٤٧). ولكن لم يتم تنفيذ كل هذه الاقتراحات، ولم ترسل قوة عسكرية إلى الكويت.

لا شك في أن استمرار الإعفاء من الرسوم الجمركية الضريبية جاء تقديرا لموقف حاكم الكويت من الحملة العثمانية، وإدراك مدحت باشا أيضا رغبة أهل الكويت وحكامها في الاستقلال وعدم قبول سلطة عثمانية تلزمهم دفع الرسوم والجمارك.

والحقيقة، لم ينتج عن كل هذه الإجراءات إحداث تغيير فعلي في وضع الكويت، وعلاقتها بالدولة العثمانية، أي لم تلزم الدولة حاكم الكويت بأية التزامات، كما أن الجمرك العثماني الذي أقامه مدحت باشا في الكويت لم يستمر أكثر من عامين، حيث ثبت عدم فائدته. لكن، ليس من السهل على الباحث تجاهل هذه التطورات، فقد

قبل حاكم الكويت لقب قائمقام، ولم يكن بإمكانه في ذلك الوقت رفضه كما حدث عام ١٨٦٦.

أما بالنسبة لرفع العلم العثماني، فإنها لم تكن المرة الأولى، فقد رفعت السفن الكويتية العلم العثماني منذ عام ١٨٢٩ وبدون أوامر من السلطات العثمانية.

ورغم أن الأحداث فيما بعد أكدت عدم تدخل السلطات العثمانية في شؤون الكويت الداخلية، وكذلك الحال بالنسبة لتوارث الحكم حيث ظل آل الصباح حكام الكويت، إلا أن مدحت باشا استطاع تحديد نوع تبعية الكويت للدولة. بقبول الحاكم لقب قائمقام.

وبشكل عام لم تتخذ الحكومة العثمانية إجراءات فعالة لتدعيم نفوذها وسلطتها في المنطقة أكثر من منح بعض حكام المنطقة مثل الشيخ عبد الله الصباح وجاسم بن ثاني لقب قائمقام مع إقامة بعض الحاميات العسكرية في الدوحة والقطيف.

وهكذا فقد لاحظنا كيف أن العلاقات الكويتية العثمانية قد تأثرت بالأحداث والتطورات التي شهدتها شبه جزيرة العرب، ودخلت العلاقات مرحلة جديدة اتسمت بالود ولكنها لم تستمر فترة طويلة (٤٨).

رد الفعل البريطاني، وانعكاسه على وضع الكويت:

لقد أظهر البريطانيون اهتماما بعدم اضطراب الأمن في الخليج العربي نتيجة للحملة العثمانية، فقد أدى نجاح الحملة، ثم امتدادها إلى قطر، إلى إثارة قلق حكومة الهند البريطانية، التي خشيت أن يؤدي ذلك إلى امتداد النفوذ العثماني نحو إمارات الساحل والبحرين. ولذلك حرصت بريطانية على تحديد هذا الامتداد، واهتمت بمسألة نطاق السيادة العثمانية في المنطقة. فقد أثارت مخاوفها خطط الدولة العثمانية، فبدأت العمل على تدعيم نفوذها أكثر في منطقة الخليج العربي. وكان كولونيل "بريدو" Prideaux، المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، قد ذكر عام ١٨٧٦، أن موانى الكويت والقطيف والعقير أصبحت موانى عثمانية رئيسية في الخليج (٤٩).

وفي أيار ١٨٧٨، اقترحت حكومة الهند على وزارة الخارجية البريطانية الاعتراف بسلطة الباب العالي على المنطقة الممتدة من البصرة إلى العقير، الواقعة على الساحل جنوبي الكويت، أما فيما يتعلق بالبحر، فإنه يجب أن تستمر الحكومة البريطانية في متابعة الحماية عليه، وعليها أيضاً ملاحقة "القراصنة" في المياه التركية إذا دعت الحاجة، سواء في البحر أو على الشاطئ.

وفي ٥ كانون الثاني ١٨٧٩، خول وزير الخارجية البريطانية لورد "سالزبرى" Salisbury السفير البريطاني في العاصمة العثمانية "هنري لايارد" Layard، أن يقترح على الباب العالي ترتيباً يتم بمقتضاه إصدار تعليمات للسفن الحربية البريطانية بأن تكون عمليات ملاحقة "القراصنة" على قدر الإمكان خارج المياه الساحلية العربية، شمال العديد، التي تقع جنوب العقير، ولكن لهم السلطة في تتبع السفن والاستيلاء على سفن القراصنة خارج المياه الإقليمية للبحر الرئيسي "شمال العديد، التي تقع جنوب العقير، ولهم السلطة في تتبع سفن "القراصنة" والاستيلاء عليها، في حدود مسافة ثلاثة أميال داخل هذا الجزء من الساحل، عندما يكون هذا ضرورياً للوصول إلى أهدافهم.

وكان هذا الترتيب يتضمن الاعتراف البريطاني بالسيادة الإقليمية التركية جنوباً حتى العديد. وعندما أشار أحد التقارير البريطانية في آب ١٨٨١، إلى أن الحكومة العثمانية تفكر في شن هجوم على عمان، صدرت تعليمات إلى السفير البريطاني لدى الدولة العثمانية "هوايت" White تتضمن اعتراف الحكومة البريطانية بالسيادة العثمانية على الساحل حتى القطيف.

وتعدّ بريطانية ماوراء هذه المنطقة مستقلة. ولكن السفير البريطاني كان يرى صعوبة اعتبار القطيف الحد القاطع الذي يجب ألا يتعداه النفوذ العثماني، لذلك فإنه لم يشر إلى هذه المنطقة عندما قدم الاحتجاج البريطاني للحكومة العثمانية ضد أي عدوان على عمان.

وفي شهر نيسان ١٨٩٣، أبلغ "فورد" Ford السفير البريطاني في العاصمة العثمانية، وزير الخارجية العثمانية، اعتراف حكومته بالسيادة العثمانية على المنطقة

الممتدة من البصرة إلى القطيف (٥٠)، مما يعني الاعتراف بامتداد السيادة العثمانية إلى الكويت.

الوضع السياسي في الكويت حتى توقيع معاهدة ٢٣ كانون الثاني ١٨٩٩:

لقد شهدت الكويت بعض التطورات منذ أواخر القرن التاسع عشر. ففي أعقاب وفاة الشيخ عبد الله الصباح في عام ١٨٩٢، وهو يحمل لقب قائمقام، تولى الحكم بعده الشيخ محمد الصباح (١٨٩٢-١٨٩٦) الذي حمل أيضاً لقب قائمقام، فلم يطرأ على العلاقات الكويتية العثمانية أي تغيير ولم تحاول الدولة العثمانية اتخاذ أي إجراء عملي لفرض الإدارة العثمانية على الكويت.

وكانت الدولة تتعرض لكثير من المشكلات في ألبانية واليمن إلى جانب استمرار مشاكلها مع "فارس حول المحمرة، وشط العرب، بالإضافة إلى مشكلاتها الإدارية، والاضطرابات المرتبطة بمذابح الأرمن في ١٨٩٤ – ١٨٩٦ (٥١).

ومجمل القول، فقد تعددت المشكلات التي كان على السلطان عبد الحميد الثاني مواجهتها، سواء أكانت أزمات سياسية أم عسكرية، وأطماعاً إقليمية دولية (٥٢).

ومن المعروف أنه منذ عام ١٨٧٠ ازداد الاهتمام الأوربي في الخليج العربي، عندما أصبح بمقدور ألمانية دخول ميدان التنافس، وظهرت عدة مشاريع ألمانية وروسية لبناء سكك الحديد، ومحطات الفحم. وقد برز أسم الكويت لكي تصبح نهاية لأهم تلك المشروعات هو "سكة حديد برلين بغداد" مما يعني وصول الألمان إلى الخليج العربي. كما ازداد الاهتمام الروسي بالمنطقة. وتكررت زيارات السفن الفرنسية والروسية إلى سواحل الخليج العربي حيث أصبحت مسرحاً للتنافس بين بريطانية وروسية وألمانية، كما برز اسم الكويت وأصبحت من الأقاليم التي تحظى بالاهتمام البريطاني والعثماني بشكل ملحوظ، وكانت بريطانية وحرصاً منها على طرق مواصلاتها إلى مستعمراتها في الهند، وعلى مصالحها في الخليج العربي، قد

عقدت اتفاقية في آذار عام ١٨٩٢، مع إمارات "ساحل عمان" لكي تحول دون نجاح المشروعات الأوربية في المنطقة.

وبالنسبة للوضع الداخلي في الكويت فقد شهد تحولاً هاماً، حين أطاح الشيخ مبارك الصباح بحكم شقيقه الشيخ محمد، في ١٧ أيار ١٨٩٦ بعد قتله وشقيقه الشيخ جراح.

لقد أثارت هذه الحادثة انتباه الباب العالي، خاصة مع ظهور إشاعات تربط بين تولي الشيخ مبارك الصباح الحكم، ومؤامرة بريطانية مضمونها أن المقيم السياسي في الخليج العربي، هو الذي حرض الشيخ مبارك، وأنه وراء هذا الانقلاب (٥٣) لأن الشيخ محمد الصباح كان يريد طلب الحماية العثمانية.

أما حكومة الهند البريطانية، فقد وصلتها مذكرة أعدها المستشار القانوني بالسفارة البريطانية في استنبول "ستافريدس"، Stavrides في ٣٠ تموز ١٨٩٦ نفي فيها صحة هذه الإشاعة، كما أنكر المقيم السياسي ولسن Wilson هذا الاتهام. وفي تموز ١٨٩٦، زار قائد السفينة سفنكس (Sphinx) الكوماندر "بيكر" Baker الكويت، وفي التقرير الذي أعده جاء فيه أن الكويت مستقلة أسمياً، إلا أن الأتراك يمارسون نفوذاً كبيراً عليها، وفي الواقع تحت النفوذ العثماني، وحاكمها يرفع العلم العثماني (٥٤).

محاولة الشيخ مبارك الحصول على اعتراف عثماني:

أدرك الشيخ مبارك الأخطار التي تحيط به، ولذلك اهتم بالعمل على إقامة علاقات ودية مع السلطات العثمانية العليا، كما بذل جهده وماله من أجل الحصول على اعتراف السلطان العثماني بحكمه وتعيينه قائمقام على الكويت.

لقد أراد حاكم الكويت مواجهة خصمه "يوسف بن ابراهيم" التاجر الذي كانت له مصاهرة مع الحاكم السابق الشيخ محمد الصباح، وكان أمره نافذاً لا يرد (٥٥).

كما أراد المحافظة على الأراضي والمزراع التي تملكها عائلة الصباح في الفأو والتي تدر دخلاً كبيراً.

وكان حمدي باشا والي البصرة من أعداء الشيخ مبارك، وقد استطاع يوسف بن إبراهيم تأليب هذا الوالي ضد الشيخ مبارك وبالتالي حصل على مساندته ودعمه وحاول غزو الكويت، ووضعها تحت السلطة العثمانية الفعلية.

ومن جانبه قام الشيخ مبارك بالتقرب من "رجب باشا" والي بغداد بالهدايا والأموال، فاستماله فاقنع الحكومة العثمانية، أن ماجرى في الكويت من الحوادث العادية، ولكن رغم ذلك فإن السلطات العثمانية لم تتخذ إجراءات سريعة من أجل الاعتراف بحكم الشيخ مبارك، بل يمكن القول إن السلطات العثمانية العليا اتخذت في بادئ الأمر موقفاً محايداً مما هيأ الفرصة لمد النفوذ البريطاني.

على أية حال، فقد تكللت محاولات الشيخ مبارك بالنجاح وحصل على الاعتراف العثماني بشرعية حكمه في كانون الثاني ١٨٩٧، لكن الشيخ مبارك كان قد أدرك خطورة الوضع بالنسبة له قبل صدور الفرمان، لذلك طلب في شباط ١٨٩٧، لقاء المقيم السياسي في الخليج العربي الكولونيل ميد Meade، وتم اللقاء في ٥ كانون الثاني ١٨٩٧، بين جاسكن مساعد المقيم السياسي، والشيخ مبارك الصباح الذي طلب الحماية البريطانية، مثل تلك التي تتمتع بها البحرين والساحل، وأكد أنه يدرك وشعبه أن الدولة العثمانية تريد ابتلاع الكويت، كما أكد أنه ليست هناك أية اتفاقيات مع الدولة، ولمنع مد سيطرتها إلى بلاده فإنه يريد الدخول تحت الحماية البريطانية.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن سبب الزيارة هو إبلاغ الشيخ بإنذار بريطانية له من أنه سوف يحمل مسؤولية أي عملية "قرصنة" بحرية على السفن البريطانية وذلك استناداً إلى ما حدث للسفينة هاريباسا في شط العرب عام ١٨٩٥.

وفي البداية، لم تكن السلطات البريطانية في الخليج مرحبة بهذا العرض الكويتي. وكان رأي المقيم السياسي أن تلبية هذه الرغبة سوف تثير الكثير من

المتاعب مع الدولة العثمانية وأن الشيخ مبارك ربما يهدف إلى الضغط على العثمانيين (٥٦).

ولا شك في أن الاعتراف العثماني جعل العلاقة طيبة بين الشيخ مبارك والسلطات العثمانية، فرحب بلقب قائمقام الذي حصل عليه في وقت متأخر من توليه السلطة، وبذلك دخل الكويت ونفسه في وضع يصعب بسببه الاعتراف بإستقلاله عن الدولة العثمانية بسهولة، بالنسبة لحكومة الهند البريطانية.

والحقيقة أن الحكومة البريطانية لم تتأخر، فقد أدخلت هذه الإمارة الصغيرة ضمن دائرة الاهتمام البريطاني الفعلي، ولذلك ركزت التقارير البريطانية على العلاقة بين الكويت والدولة العثمانية.

كانت الخارجية البريطانية ترى أنه رغم عدم اعترافها مطلقاً، بأن الكويت تحت الحماية العثمانية، إلا أن الشكوك تراودها فيما إذا كان بالإمكان إنكار حقيقة أن الكويت خاضعة للنفوذ العثماني، ولذلك فإن تعليماتها إلى القنصل البريطاني في البصرة كانت هي عدم التدخل، إلا إذا تعرض أمن الخليج للخطر. بل كانت ترى لحماية مصالحها والمحافظة على سلامة الملاحة في الخليج، الاعتراف بأن الحكومة العثمانية هي المسؤولة عن شؤون الكويت.

أما الشيخ مبارك فقد كان يريد التخلص من محاولات خصومه خاصة وأن الاعتراف العثماني بحكمه لم يضع حداً للمتاعب والأخطار التي كان يتعرض لها، فلم يتوقف يوسف بن ابراهيم عن نشاطه، حيث تحالف مع جاسم بن ثاني حاكم قطر، ومحمد بن الرشيد حاكم نجد آنذاك، وحليف الدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٩٨، برزت عدة عوامل زادت من اتساع الفجوة بين حاكم الكويت والسلطات العثمانية، ودفعت بريطانية إلى إعادة النظر في سياستها تجاه الكويت. فقد أكدت التقارير أن هناك تحركات عسكرية عثمانية بالقرب من البصرة، وهدفها الكويت. وأن روسية تسعى للحصول على امتياز إقامة محطة للفحم في

المنطقة، ربما في الكويت بالإضافة إلى محاولتها الحصول على امتياز مد سكة حديد من البحر المتوسط إلى الخليج العربي، وهو المشروع المعروف باسم "كابنيست" بالإضافة إلى مشروع سكة حديد برلين بغداد الألماني (٥٧).

تلك التحركات والأنشطة، سواء، للقوات العثمانية، أو المشروعات الروسية، والألمانية، أثارت القلق البريطاني لأنها تهدد المصالح البريطانية في منطقة الخليج العربي. وظهر لدى حكومة الهند التوجه نحو تغيير سياستها بشأن الكويت. أما وزارة الخارجية البريطانية فإنها لم ترحب في بادئ الأمر أن توضع الكويت تحت الحماية البريطانية، كما أن السفير البريطاني في استانبول "أوكونور" N. O' conor أرسل في ٢٢ كانون الثاني ١٨٩٨ إلى وزارة الخارجية البريطانية مذكرة يحذر من نتيجة القيام بإجراء ما سوف تنظر إليه الحكومة العثمانية على أنه خطوة عدائية ضدها، مما سينتج عنه تعقيد العلاقة معها، وكذلك مع روسية (٥٨).

أما حكومة الهند فقد كانت منزعجة من النشاط الروسي الألماني، وكان كيرزن نائب الملك في الهند، مهتماً بالكويت حتى قبل تعيينه في هذا المنصب، وكان يرى مد الحماية البريطانية إليها، ورغم حذر وتردد وزير الخارجية "سالبوري"، إلا أنه في ٢٤ كانون الأول ١٨٩٨ عبرت وزارة الخارجية عن رأيها إلى حكومة الهند، وأبدت موافقتها على وضع الكويت تحت الحماية، على أن تتحمل حكومة الهند، هذه المسؤولية، والذي يهم وزارة الخارجية البريطانية هو التأكد من أن الحماية لن تؤدي إلى توسيع الأعباء المالية والعسكرية بشكل غير ملائم على حكومة الهند (٥٩).

وأخيراً، وفي كانون الثاني عام ١٨٩٩، وبعد مشاورات عديدة، توصلت حكومة الهند ووزارة الخارجية إلى أنه من الضروري وضع الكويت تحت الحماية بموجب اتفاقية سرية.

وفي ٢٣ كانون الثاني ١٨٩٩، وبناء على أمر من نائب الملك في الهند اللورد كيرزن Curzon، عقد المقيم السياسي معاهدة الحماية، والتي تعد بموجبها الشيخ مبارك الصباح برضائه، واختياره بما يلي:

١- لا يستقبل في بلاده وكيلاً، أو قائمقاماً أو ممثلاً لأي دولة، أو حكومة أجنبية دون الموافقة المسبقة من الحكومة البريطانية.

٢- لا يتنازل، أو يبيع أو يؤجر أو يرهن أي جزء من أراضيه لدولة أخرى أو رعايا دولة أجنبية دون الحصول على موافقة الحكومة البريطانية.

وتنسحب هذه الشروط على أي جزء من أراضي الشيخ التي تكون قد آلت إلى ملكية رعايا أو حكومة أجنبية (٦٠).

ويقول اللورد كيرزن إن التحفظ الذي تضمنته المعاهدة وهو "بدون الموافقة البريطانية" وضع لاعتبارات سياسية خاصة، وبسبب المحاولات العثمانية لاستفزاز بريطانية. (٦١) إذن فقد عقد الشيخ مبارك الصباح هذه المعاهدة وهو يحمل لقب قائمقام، ولم يعد بإمكانه التصرف بأراضي إمارته إلا بعد الحصول على الموافقة البريطانية. وكان السفير البريطاني في الآستانة "أوكونور" قد نبه حكومته إلى ضرورة توخي الحذر عند عقد المعاهدة لأن حاكم الكويت يحمل هذا اللقب (٦٢).

لقد استطاعت بريطانية بعقد هذه المعاهدة إبعاد خطر الألمان والروس عن الخليج العربي، ورغم أنها لم تتناول موضوع العلاقة الكويتية العثمانية إلا أن توقيع الشيخ مبارك لهذه المعاهدة قد ألغى كل مظاهر التبعية للدولة العثمانية، وبذلك أصبحت الكويت تشكل أهمية مباشرة في السياسة البريطانية، كما أصبحت بريطانية مستعدة لاستعمال القوة ضد التدخل العثماني في هذه الإمارة.

ولا شك في أن هذه المعاهدة تعد ضربة وجهت إلى الدولة العثمانية كما أنها حسمت الموقف لصالح بريطانية، التي لم تجد في قبول الشيخ مبارك لقب "قائمقام" ما يؤثر على استقلاله عن الدولة العثمانية، ولذلك تجاهلت هذا الواقع على أساس أن العثمانيين لم يمارسوا سلطة في الكويت.

رد الفعل العثماني:

لم تكن الحكومة العثمانية آنذاك قد عرفت حقيقة العلاقة البريطانية الكويتية، إلا أنها لم تكن بعيدة تماماً عن مجمل ما يجري على الساحة الكويتية، حيث أن كل الدلائل كانت تشير بوضوح إلى أن ثمة اتصالات بريطانية مع الشيخ مبارك.

فقد كانت السفينة العثمانية "زحاف" راسية بالقرب من ميناء الكويت، عندما وصلت السفينة البريطانية "لورنس" ونزل منها المقيم السياسي "ميد" ومساعده "جاسكن"، وقد أبلغ قائد "زحاف" والي البصرة بهذه التطورات ولذلك بدأت السلطات العثمانية في اتخاذ بعض الإجراءات التي اعتقدت من خلالها أنها ستتمكن من مد نفوذها إلى الكويت والحيلولة دون نمو النفوذ البريطاني فيها.

كانت الخطوة الأولى هي إعادة تعيين والي البصرة السابق "حمدي باشا" على ولاية البصرة، في نيسان ١٨٩٩ والمعروف أنه من ألد أعداء الشيخ مبارك، وكان حتى بعد عزله من ولاية البصرة أوائل عام ١٨٩٧ يحث الحكومة العثمانية على فرض سيطرتها على الكويت.

ولا شك في أن إعادته إلى الولاية يؤكد عزم السلطات العثمانية الاهتمام بشؤون الكويت، ومد السيطرة العثمانية الفعلية إليها، حيث أنه بعد عودته إلى حكم ولاية البصرة، أعد بعض الخطط لعزل الشيخ مبارك عن الحكم وإقامة مكتب حجز صحي فعال فيها، بالإضافة إلى مد خط تلغرافي إلى الكويت (٦٣).

كما عينت السلطات العثمانية مديراً لميناء الكويت ولكن الشيخ مبارك رفض استقباله كما فرض رسوماً جمركية قدرها ٥% على كل الواردات بما فيها الواردات العثمانية من ولاية البصرة (٦٤).

الموقف البريطاني:

أثارت هذه الإجراءات من جانب الحكومة العثمانية اهتمام حكومة الهند البريطانية، فكان رأيها الذي عبرت عنه في ٧ أيلول ١٨٩٩، هو ضرورة أن توضح وزارة الخارجية البريطانية للباب العالي، أن الحكومة البريطانية قد دخلت في مفاوضات مع حاكم الكويت المستقل. وأنها لن تعترف بأي حكومة للإنتقاص من استقلاله.

وكان رأي وزارة الخارجية البريطانية يتفق مع رأي حكومة الهند، لذلك فقد أرسلت تعليماتها إلى السفير البريطاني في الآستانة "أوكونور" وطلبت منه تحذير الباب العالي وإبلاغه بأن علاقة صداقة تربط بين الكويت وبريطانية.

كما طلبت منه أن يبين للمسؤولين في استنبول أن أي محاولة تقوم بها السلطات العثمانية لإقامة دار عوائد، أو سلطة عثمانية في الكويت، دون موافقة بريطانية المسبقة، سوف تؤدي إلى نشوب أزمة في العلاقة العثمانية البريطانية.

هذا ولم تكتف الحكومة البريطانية بهذا الإجراء الدبلوماسي، فقد أرسلت البحرية البريطانية سفينة إلى الكويت لحمايتها ضد أي محاولة عثمانية لاحتلالها.

وفي المقابل لم تظهر الحكومة العثمانية آنذاك إصرارها على الاستمرار في محاولاتها تلك، ومن الواضح أنها لم تكن حينذاك ترغب في الدخول في نزاع سافر مع بريطانية.

واللافت للانتباه هو موقفها من الاحتجاجات، والإجراءات البريطانية، فعندما نقل السفير البريطاني في الآستانة، تعليمات حكومته، إلى الوزير العثماني، أكد له الأخير أنه لن تكون هناك محاولة أخرى لتعيين مدير للميناء في الكويت (٦٥).

كما أكد الوزير أيضاً للسفير عدم اهتمام الحكومة العثمانية بتأسيس دار للعوائد الجمركية فيها.

وبهذا يكون الوزير قد أعلن عن تخلي حكومته عن خططها بشأن الكويت، كما أنه بذلك تخلى أيضاً عن والي البصرة ومحاولاته الرامية إلى مد سيادة الدولة العثمانية إلى الكويت.

وبالإضافة إلى هذه التأكيدات، فإن الوزير العثماني أخبر السفير البريطاني: أن السلطان العثماني لا يرى جدوى من تنفيذ اقتراح والي البصرة إرسال حملة (٦٦) إلى الكويت.

لكن عندما علم السلطان عبد الحميد بالموقف البريطاني وأسلوب مخاطبة السفير للوزير العثماني غضب، وقد أبلغ الوزير بعد ذلك السفير البريطاني بموقف السلطان، الذي كان يرى أن بريطانية تتدخل في حريته في اتخاذ إجراء ما في أراض عثمانية. كما أوضح أنه يفهم ويدرك المصالح الحيوية لبريطانية في المنطقة، ولا يقبل تهديدها، ولكن رغم ذلك فإن الحكومة البريطانية لم تكن مستعدة للتنازل والتساهل بخصوص الكويت، ولذلك لم يتراجع السفير البريطاني عن موقفه السابق، وكرر أمام الوزير العثماني، ضرورة عدم ترك المجال لبروز أسباب للخلاف، كما أعاد كلامه السابق موضحاً أن هناك صداقة تربط الشيخ مبارك ببريطانية، التي لن تسمح بأي عمل ضده (٦٧).

وعلى أية حال، فإن التراخي الدبلوماسي العثماني، كان كما يبدو تغطية لإجراء جديد كانت الحكومة العثمانية تنوي القيام به ضد الشيخ مبارك الصباح. فقد سعت إلى تأليب ابن الرشيد، أمير نجد، الذي كان يتطلع إلى السيطرة على الكويت ذات الموقع الجغرافي الهام، وسوق الصحراء الذي يرتاده البدو لشراء كل ما يحتاجونه، ولبيع مواشيهم ومنتجاتهم.

بالإضافة إلى ذلك، فإن استقرار الأسرة السعودية في الكويت، منذ اضطرارها إلى النزوح من نجد في أواخر القرن التاسع عشر في أعقاب سيطرة ابن الرشيد عليها. زاد من اضطراب العلاقة مع ابن الرشيد.

لقد عملت الدولة العثمانية على استغلال هذه الظروف، وكذلك النزاعات القبلية، وتعرض بعض القوافل التجارية التابعة للجانبين لتعديات من قبل بعض القبائل في المنطقة. ومن جانبها كانت بريطانية تسعى إلى إبعاد الشيخ مبارك الصباح عن التدخل في نزاعات داخل شبه جزيرة العرب، لكي لا تتيح الفرصة للتدخل العثماني مما سوف يؤثر على مصالحها في المنطقة.

ويلاحظ كثرة تحذيرها الشيخ مبارك من نتيجة الصراع مع ابن الرشيد، لأنه سوف يؤدي إلى إيجاد ذريعة للتدخل العثماني في شؤون الكويت.

أما الدولة العثمانية، فقد كانت تحاول الاستمرار في سياستها الرامية إلى تحقيق بعض النجاحات في مد سلطتها إلى الكويت أو إثبات تبعيتها لها مما كان له انعكاسه على الاهتمام البريطاني بأمن الكويت واستقرار حكم الشيخ مبارك الصباح.

تعيين محسن باشا والياً على البصرة:

استطاع الشيخ مبارك الصباح، وبالتعاون مع نقيب الإشراف في البصرة، وبالعطايا والأموال، عزل حمدي باشا، وتعيين محسن باشا على الولاية. ويمكن القول إن السلطات العثمانية اعتقدت أن أحد أسباب تصلب الشيخ مبارك تجاه المحاولات العثمانية، إنما يعود إلى أسلوب حمدي باشا والي البصرة معه، أما الوالي الجديد فقد اعترف أنه صديق للشيخ مبارك الصباح.

لقد عمد الوالي محسن باشا إلى انتهاج سياسة استمالة مبارك (٦٨). فقد أوقف كل الخطط التي أعدها سلفه ضد حاكم الكويت. مثل تعيين مدير لميناء الكويت، ومد خط حديدي من الفاو إلى القطيف عبر الكويت وأراد محسن باشا من ذلك جذب حاكم الكويت، لتحسين علاقته بالباب العالي وبالتالي مد نفوذ الدولة إلى إمارته.

لا شك في أنه نجح في البداية، ففي أيار عام ١٩٠٠، أنعم السلطان العثماني على الشيخ مبارك برتبة "الميراميران باش" كما خصصت له الحكومة العثمانية (١٥٠) كارة من التمر (الكاره = ١,٥ طن)، وقد اعتبرت منحة سنوية.

كما أخبر محسن باشا الشيخ مبارك أنه سوف يعطيه منحة خمس سنوات مقدماً(٦٩).

ويمكن القول أن الهدوء ساد العلاقة الكويتية العثمانية لفترة مؤقتة بينما لم يتوقف العداء بين ابن الرشيد، و"يوسف بن إبراهيم "من جهة، والشيخ مبارك الصباح من جهة أخرى.

أما حكومة الهند فقد استمرت في محاولاتها لإقناع الشيخ مبارك بالتزام الهدوء وعدم الدخول في صراع مع ابن الرشيد. ولهذا الغرض فقد أوفد المقيم السياسي مندوبه إلى حاكم الكويت وذلك في تشرين الثاني عام ١٩٠٠ لتحذيره من مغبة اضطراب العلاقة مع ابن الرشيد، وبما أن الشيخ مبارك في ذلك الوقت كان خارج المدينة، فقد أناب عنه ابنه الذي فوجئ به المندوب البريطاني في أثناء استقباله له وشاهد العلم العثماني على قاربه، ولذلك لم يقدم التحذير له (٧٠).

أثر النشاط الألماني:

كانت السياسة البريطانية تجاه الكويت تحكمها عدة عوامل، وأصبحت تستند إلى أسس شبه ثابتة.

وكان النشاط الألماني من أهم تلك العوامل، ففي كانون الثاني عام ١٩٠٠، أفادت التقارير الواردة من السفير (أوكونور) أن الألمان قد عزموا على مد خط حديد بغداد، وأنهم بصدد التفاوض مع السلطان العثماني مباشرة للحصول على مساحة تتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة أميال، من خليج كاظمة لكي تصبح نهاية للخط المزمع إقامته، دون الاهتمام بموقف الشيخ مبارك الصباح، ولكن أكدت التطورات صعوبة تجاهل أهمية موافقة حاكم الكويت وضرورة إقناعه للتعاون مع الألمان لضمان تنفيذ مد الخط، ولذلك عندما زار الوفد الألماني الكويت في كانون الثاني عام ١٩٠٠، وفي أثناء مقابلته للشيخ مبارك وعندما أخبره أعضاء الوفد أنهم حصلوا من السلطان عبد الحميد على امتياز مد الخط إلى الكويت أي أنهم أرادوا منه قبول الأمر الواقع، أجابهم

بقوله أنه لا يعترف بالسلطان إلا بصفته رئيساً للعالم الإسلامي فقط (٧١). وهكذا فإن الأمر لم يقتصر على الحكومة العثمانية، بل امتد إلى ألمانية، وبالتالي فإنه أصبح من الضروري إبلاغ الحكومة الألمانية والباب العالي بطبيعة العلاقة الكويتية البريطانية.

وبعد عدة مراسلات بين الدوائر البريطانية المختصة، أوضح السفير البريطاني في الآستانة للسفير الألماني في العاصمة العثمانية، أن هناك اتفاقية تربط حاكم الكويت ببريطانية، وأن الحكومة البريطانية، لا تسمح للشيخ بالتصرف بأراضيه دون إذن منها (٧٢).

أما محسن باشا، فقد استمر في سياسته الرامية إلى كسب ود الشيخ مبارك الصباح والقيام بدور فعال في أحداث المنطقة. فقد تدخل لمنع صدام كان من المتوقع وقوعه بين قوات الشيخ مبارك، وقوات ابن الرشيد، حيث وجه دعوة إلى الشيخ مبارك الصباح لزيارة البصرة، فرحب الشيخ بهذه الدعوة وقام بالزيارة وهناك منحه الوالي وساماً مجيدياً من الدرجة الثانية، وذلك بناء على أمر سلطاني، كما اتصل الشيخ مبارك بالسلطان العثماني من مكتب التلغراف في البصرة، وأكد أنه سحب قواته وهو بذلك إنما يعبر عن ولائه للسلطان العثماني. كما حاول محسن باشا استغلال هذه المناسبة، وأبلغ مترجم القنصل البريطاني في الولاية أن الشيخ مبارك قد تعهد بأن يتوقف عن جذب القوى الأجنبية (٧٣)، والحقيقة أنها كانت مرحلة هدوء مؤقتة، فقد تجدد الصراع بين ابن الرشيد، والشيخ مبارك في شباط عام ١٩٠١، وأدى ذلك التوتر إلى وقوع معركة "الصريف" وهو موقع على بعد عشرين ميلاً من بريدة، وكان ذلك في آذار عام ١٩٠١، ولا شك في أن هزيمة الشيخ مبارك دفعت بريطانية إلى المزيد من التدخل فاتخذت بعض الإجراءات الهامة، ويأتي في مقدمتها وصول إحدى سفن المدفعية إلى ميناء الكويت وقد زودت قائدها بتعليمات مفادها عدم اتخاذ إجراءات فعالة قبل الرجوع إلى الحكومة البريطانية (٧٤). ونصحت ابن الرشيد بالابتعاد عن الكويت.

تجدد محاولات الدولة العثمانية:

عمدت السلطات العثمانية إلى استغلال ظروف الشيخ مبارك الصباح، في أعقاب هزيمته في معركة الصريف للقضاء على حكمه، ولذلك عادت إلى تشجيع ابن الرشيد وقدمت له معونات مالية وعسكرية (مدفعية) وبعض البنادق.

وبالإضافة إلى ذلك فقد حشدت في نيسان عام ١٩٠١، قوات كبيرة بقيادة اللواء "محمد باشا الداغستاني" وكان هدفها احتلال الكويت (٧٥). ولكن الأسباب المالية، إلى جانب الموقف البريطاني الذي كان يرفض التدخل العثماني في شؤون الكويت أو المساس باستقلالها، حالا دون إتمام هذه الحملة.

ويلاحظ أن المحاولات العثمانية للإطاحة بالشيخ مبارك، أو مد السلطة العثمانية إلى بلاده لم تتوقف، لكن كلها جاءت متأخرة ولذلك لم تثمر كما سنرى.

ففي آب ١٩٠١، وصلت السفينة العثمانية "زحاف" إلى ميناء الكويت، ورغم أنها لم تكن تحمل قوات عسكرية إلا أن قبطان السفينة البريطانية "بيرسيوس" التي كانت راسية في ميناء الكويت حذر القبطان العثماني من محاولة إنزال قوات في الكويت.

أما القبطان العثماني فقد حاول إقناع الشيخ مبارك قبول السلطة العثمانية، لكنه رفض، عندئذ هدده القبطان العثماني، بأنه سوف يغادر الكويت إلى البصرة، لكي يخبر السلطات العثمانية هناك برفض الشيخ السلطة العثمانية، ورغم ذلك لم يتراجع حاكم الكويت، فاستمر المندوب العثماني في تهديده، وحذر الشيخ مبارك، بأنه سوف يعود من البصرة بقوة عسكرية، لفرض السلطة العثمانية في الكويت (٧٦)، ولكن لم يؤد التهديد إلى نتيجة وغادرت السفينة ميناء الكويت.

ولم يكن من السهل على الحكومة العثمانية، تجاهل تهديد القبطان الإنجليزي ولذلك ناقش مجلس الوزراء العثماني هذا التهديد وطلب وزير الخارجية العثمانية من السفير البريطاني "أوكونور" توضيح الأمر، وملابسات تصرف القبطان.

حاول السفير امتصاص الغضب العثماني. واعتبر تقرير والي البصرة عن الحادث غير دقيق، وأن قبطان بيرسيوس لم يكن بالفعل يعرف ما إذا كانت السفينة زحاف تحمل قوات أم لا، وأن هدفه هو الحيلولة دون وقوع أحداث غير سارة.

لكن يبدو أن الحكومة العثمانية قد أدركت آنذاك صعوبة تحقيق أهدافها في الكويت، ولذلك نجدها تسعى إلى محاولة التأكد من نية الحكومة البريطانية تجاه الكويت. فقد استفسر وزير الخارجية العثمانية من السفير البريطاني بهذا الخصوص، فطمأنه السفير البريطاني، وأكد له أنه ليس لدى الحكومة البريطانية نية احتلالها، بشرط أن لا تضطرها الدولة العثمانية لذلك، بتدخلها في شؤون الكويت، التي تربطها ببريطانية بعض الترتيبات، وأكد له أن الهجوم على الكويت سوف يثير المشكلات. وأمام هذا الموقف الواضح، لم يملك الوزير العثماني غير التأكيد للسفير أنه سوف يرفع الأمر إلى السلطان بأسرع وقت (٧٧).

ورغم التأكيدات السابقة، فقد قدم السفير العثماني في لندن في ٩ أيلول ١٩٠١ احتجاجاً إلى وزارة الخارجية البريطانية حول ما أشيع من أن الحكومة البريطانية سوف تجعل الكويت "محمية بريطانية". كما أوضح اعتراض حكومته على الترتيبات المعقودة بين الكويت وبريطانية. ومع ذلك فقد أعلنت الحكومة العثمانية استعدادها إعطاء تأكيدات للحكومة البريطانية بعدم مهاجمة الكويت، بشرط أن تعطى الحكومة البريطانية تأكيدات بعدم إعلان الحماية عليها. ومن الواضح أن هذا الموقف يعود إلى إدراكها عجزها أمام النفوذ البريطاني.

وبالفعل حصلت بريطانية على التأكيدات العثمانية، وذلك بموجب مذكرات تم تبادلها مع الحكومة العثمانية في ٩ و ١١ أيلول ١٩٠١، حيث أكد الطرفان المحافظة على الوضع القائم في الكويت Statu Quo (٧٨).

ولا شك في أن هذا الاتفاق كان يخدم المصلحة البريطانية، وقد أعطى الدولة سلطة أسمية وهمية على الكويت، خاصة وأنه لم يتم الاتفاق على مفهوم "الوضع القائم"، هل المقصود به الوضع قبل ٢٣ كانون الثاني ١٨٩٩ أم بعده.

والسؤال المطروح هو هل أدى هذا الاتفاق إلى تغيير الوضع المتأزم بشأن الكويت. بالنسبة للشيخ مبارك الصباح، حاول في تلك الفترة كسب ود السلطان العثماني، وكان يرفع العلم العثماني، لأنه كما قال "العلم الإسلامي" وأن جده، ووالده رفعا هذا العلم.

ورغم ذلك فإن السلطات العثمانية العليا كانت تعلم أنه لم يكن جاداً في محاولاته، وقد أشار إلى ذلك الصدر الأعظم سعيد باشا في مذكرة أرسلها إلى الديوان الهمايوني في ١٨ رمضان ١٣١٩، حين قال إن العلم العثماني المرفوع على دار الشيخ مبارك الصباح في مدينة الكويت لم يكن إلا "تمويهاً وتلبيساً" (٧٩).

أما بريطانية، فقد كانت ترى أن استمرار رفع العلم العثماني يتناقض مع وضع الكويت المستقل، ومن أجل إلغاء كل مظاهر التبعية الأسمية للدولة، كان رأي المقيم السياسي ضرورة أن يتوقف الشيخ مبارك عن رفع العلم العثماني، وأن يرفع كحاكم مستقل علماً أحمر. وقد أيد هذا الرأي اللورد "كيرزن" نائب الملك في الهند.

ولكن رغم ذلك الاتجاه، فإن السفير البريطاني في الآستانة كان يرى ضرورة التريث محافظة على اتفاق الوضع القائم السابق الذكر، وكذلك كان رأي رئيس الوزراء سالسيوري "Salisbury" ووزير الخارجية لانسداون Lansdowne. والحقيقة أن اتفاق الوضع القائم لم يكن يعني التزام الدولة العثمانية الكامل به أو استلامها، بل أعادت محاولاتها السابقة، وبدأت تجمع قواتها للتمركز على نهر الفرات، في الوقت نفسه كان حليفها ابن الرشيد، يتحرك مع قواته باتجاه الكويت، وينتظر الأوامر العثمانية لشن هجوم عليها.

إذن يمكن القول إن السياسة العثمانية تجاه الكويت لم تكن ثابتة، فهي تحاول استخدام القوة، وفي نفس الوقت نظراً للإجراءات البريطانية الرادعة فإنها تعود إلى انتهاج سياسة محاولة استمالة الشيخ مبارك إلى جانبها. ففي أواخر عام ١٩٠١، أعادت محاولة إقناعه بقبول السلطة العثمانية حين أوفد والي البصرة، وبناء على أوامر الباب العالي "رجب أفندي" نقيب البصرة إلى الكويت، حيث سلم حاكمها برقية من السلطان، مضمونها أن السلطان لا يوافق على استقلاله، ويجب عليه إعلان خضوعه للدولة العثمانية.

أيقن الشيخ مبارك خطورة الوضع، ورد على المندوب العثماني بدبلوماسية، وحاول كسب الوقت حين قال له أنه يرى أن علاقته مع الحكومة العثمانية. كما كانت دائماً (٨٠).

أما الحكومة البريطانية، فلم تتجاهل ما حدث. فقد احتجت على لسان سفيرها في الآستانة، وكعادته في مثل هذه المواقف، أنكر الباب العالي علمه بالبرقية التي حملها النقيب إلى حاكم الكويت، لكن لم يكن يعني هذا الإنكار توقف المحاولات العثمانية. ففي أواخر نفس الشهر وصلت إلى الشيخ مبارك معلومات من وكيله في البصرة، مفادها أن "النقيب" سوف يغادر "الفاو" إلى الكويت ومعه رسالة تهديد من السلطان "عبد الحميد الثاني" إلى الشيخ مبارك الصباح، كما أخبره أن هناك محاولة تجرى لعزله ونقله إلى الآستانة.

لقد أكدت التطورات اللاحقة صدق هذه المعلومات. فقد وصلت في الأول من كانون الأول ١٩٠١ السفينة العثمانية "زحاف" إلى ميناء الكويت، وهي تحمل النقيب وشقيق والي البصرة، وقابلا الشيخ مبارك حيث سلمه النقيب (الإنذار) الذي كان يحتوي على تعليمات من السلطان، ويخيره بين أمور ثلاثة:

١- السفر إلى عاصمة الدولة العثمانية لكي يعين عضواً في مجلس الدولة، وبمرتب كبير.

٢- يغادر الكويت إلى أي مكان آخر.

٣- إذا قبل السلطة العثمانية، فإنه سوف يبقى في الكويت، وإلى جانبه حامية عسكرية عثمانية.

طلب المقيم السياسي من القبطان "سيمونز" قائد السفينة بومون أن يتوجه إلى الكويت وذلك حين أطلعه على مضمون التحذير العثماني، وطلب من البريطانيين إعلان الحماية الفعلية على بلده.

كما أوضح للقبطان أنه ما لم يحصل على تأكيد بريطاني فإنه سوف يضطر إلى الاتفاق مع الحكومة العثمانية، التي كانت قواتها آنذاك في موقع قريب من الكويت. أما القبطان "سيمونز" فقد طلب من الشيخ مبارك، عدم الرد على العثمانيين، بأن يطلب منهم مهلة للتفكير، وبالفعل طلب الشيخ مبارك مهلة فوافق "النقيب" على طلب الشيخ، ولكنه سرعان ما غير رأيه، ربما بسبب رحيل السفينة الثانية "ردبرست" إلى بوشهر لمقابلة المقيم السياسي البريطاني هناك، للتشاور، ولذلك اضطر الشيخ مبارك إلى الاستجابة لطلب النقيب. ووعد بالرد عليه ظهر نفس اليوم، لكن السلطات البريطانية أسرعت باتخاذ المزيد من الإجراءات، فقد وصلت السفينة الحربية "سفنكس" إلى "ميناء الكويت". وفي الموعد المحدد اجتمع حاكم الكويت مع "النقيب" بحضور قبطان "سفنكس"، والقبطان "سيمونز". وفي أثناء اللقاء تحدث الشيخ مبارك وأوضح للمندوب العثماني القبطان "سيمونز" ولم يسمح له بالرد.

عند ذلك قال القبطان الإنكليزي إن طلب السلطان العثماني، يعتبر انتهاكاً لاتفاق المحافظة على الوضع القائم في الكويت (٨١). وأمام هذا الموقف المتشدد من الشيخ مبارك، والسلطات البريطانية لم يجد المندوب العثماني أمامه غير الإبحار إلى ولاية البصرة بدون نتيجة.

لا شك في أن هذه الحادثة، أكدت للشيخ مبارك حرص الحكومة البريطانية على استقلاله عن الدولة العثمانية، خاصة وأن الحكومة البريطانية كانت قد أكدت له أنها لن تسمح بأي هجوم على بلاده، وإذا دعت الضرورة فإنها سوف تستخدم القوة لمنع وقوعه.

ولمزيد من التأكيد فقد أرسل حاكم عام الهند رسالة إلى حاكم الكويت أخبره فيها: أنه يستطيع الاعتماد على الدعم والمساندة البريطانية، إذا استمر في مراعاة ارتباطه مع بريطانية، واتباع النصائح البريطانية، وطلب منه عدم مغادرة الكويت.

إن هذه الرسالة زادت من إصرار الشيخ مبارك على مواجهة محاولات السلطات العثمانية التي لم يكن من السهل عليها القبول بفشل محاولاتها، ولذلك فقد أنكر الباب العالي، وكذلك قصر السلطان علمهما بما قام به "النقيب". بل إن وزير الخارجية العثمانية اعتبر أن مجيء الشيخ مبارك إلى الآستانة أمر محرج والأكثر من ذلك هو تأكيد الوزير العثماني أن الحكومة العثمانية لا تنوي إرسال قوات إلى الكويت أو الإخلال باتفاق الوضع الراهن بأي طريقة (٨٢).

لقد أدت هذه التطورات إلى المزيد من التقارب الكويتي البريطاني بالإضافة إلى بروز المزيد من اهتمام الدول ذات المصالح الاستراتيجية في الخليج العربي بالكويت. فقد ظهر الاهتمام الروسي على نحو أوضح، حيث قام القنصل الروسي في بوشهر بزيارة الكويت ولقاء الشيخ مبارك في ٢١ كانون الأول ١٩٠١، حين رست السفينة الروسية "فارياج" Faryag، وعرض عليه باسم الحكومة الروسية المساعدة لضمان استقلاله (٨٣). كما زاره القنصل الروسي في بغداد وعرض عليه الصداقة مع روسية.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن خطر ابن رشيد لم يكن قد زال، بل تدهورت الأوضاع نوعاً ما في نفس الفترة حين أصبحت قوات ابن الرشيد على بعد ١٥ ميلاً من ولاية البصرة، فسار الشيخ مبارك بقواته إلى الجهرة للتصدي لهجوم قد يقوم به ابن الرشيد.

هذا ولقد أثارت هذه التحركات قلق السلطات البريطانية فأمرت سفنها الحربية "فوكس"، و"دبيرسيوس" بالإبحار من ميناء بومبي إلى ميناء الكويت كما قامت بإنزال بعض المدافع في الجهرة.

أما الباب العالي فقد احتج على هذه الإجراءات، واعتبر قصر السلطان إنزال المدافع البريطانية في الكويت أمراً يمس سيادة الدولة العثمانية على أراضيها، وأن بقاءها في الكويت خرق لاتفاق المحافظة على الوضع القائم هناك (٨٤).

وفي نفس الوقت لجأت الحكومة العثمانية أيضاً إلى أسلوب آخر للضغط على الشيخ مبارك الصباح، وذلك في أواخر كانون الأول ١٩٠١، وهو حظر تصدير الإمدادات والأغذية من الأراضي العثمانية إلى الكويت. فاعتبر نائب الملك في الهند ووزير الخارجية البريطانية أن هذا الحظر انتهاك لاتفاق المحافظة على الوضع القائم في الكويت، أما الباب العالي فقد عاد إلى الأسلوب السابق في التعامل مع الاحتجاجات الدبلوماسية البريطانية، حين أنكر علمه وألقى المسؤولية على والي البصرة، الذي لم يرجع إلى الحكومة العثمانية عندما فرض هذا الحظر. ولذلك فقد صدرت الأوامر إليه برفعه (٨٥).

والحقيقة لا يمكننا القبول بأن والي البصرة كان يتصرف بمحض إرادته ولكن نلاحظ عدم التنسيق بين الإدارات العثمانية العليا، والسلطات المحلية.

ولم تشأ الحكومة البريطانية في إثارة الحكومة العثمانية وتوسيع شقة الخلاف معها بشأن الكويت، خاصة مع تزايد الاهتمام الروسي والألماني بها. ولذلك فقد شرح السفير البريطاني وجهة نظر الخارجية البريطانية، وأكد أن هذه الإجراءات سوف تتم إزالتها بزوال الخطر عن الكويت.

وفي نفس الوقت بدأت الحكومة العثمانية سياسة جديدة، وكان سعيد باشا "الصدر الأعظم" يرى أنه نظراً للأهمية البالغة لميناء الكويت في ربط البحر المتوسط بالخليج العربي، على أساس أن ميناء الكويت سوف يصبح نهاية الخط الحديدي، فإن منع ابن الرشيد من التعرض للكويت، والعمل من أجل تحسين العلاقة بينهما هو الأفضل لمصلحة الدولة العثمانية، وأنه يجب لفت نظر الدول الأجنبية لذلك (٨٦).

وبالفعل فقد صدرت أوامر لوزارة الداخلية العثمانية ووفق الإرادة السنية لمنع ابن الرشيد من الهجوم على الكويت (٨٧)، ونتيجة لذلك قامت الحكومة البريطانية بإصدار تعليماتها في ٢٦ كانون الثاني ١٩٠٢ إلى السلطات البحرية البريطانية، بالتوقف عن اتخاذ أي استعدادات دفاعية في الكويت مؤقتاً، لأنها ترى أن الكويت لم تعد مهددة. وبالفعل تم إزاحة المدافع من الجهرة وأعيدت إلى السفينة البريطانية (٨٨)، هذا وقد تم تبادل المذكرات بهذا الشأن بين وزير الخارجية البريطانية "لانسدوان"، والسفير العثماني في لندن (٨٩).

ورغم كل الشواهد التي تؤكد أن الكويت تحت الحماية البريطانية فإن رئيس الكتاب الهأيارني كان يرى أن وقوع نزاع أو قتال بين ابن الرشيد والشيخ مبارك سوف يتيح الفرصة لتدخل القوة البحرية الإنكليزية، للدفاع عن شيخ الكويت، مما ينتج عنه تأسيس حماية فعلية فيها.

وأشار إلى أن هذا الوضع سوف يفسح المجال للإنكليز لمحاولة حمل جيران الكويت، في نجد وربما ابن الرشيد على قبول الحماية البريطانية. ولذلك كان رأيه هو عدم السماح لابن الرشيد بالتعرض للكويت (٩٠).

ولكن بموجب مذكرة رئيس الكتاب للديوان الهأيارني إلى الصدارة فقد أكد أن اعتراف الدولة العثمانية بالحفاظ على الوضع القائم في الكويت، لا يعني الاعتراف بحيادها، ولا يخل بالحقوق السيادية للدولة عليها كما أكدت المذكرة أهمية الاستمرار في بذل الجهود لصيانة هذه الحقوق ولا سيما أمام المقالات التي كانت تنشرها بعض الصحف الإنكليزية (٩١).

وفي أوائل كانون الثاني ١٩٠٢، اتخذ الباب العالي خطوة هامة، أراد منها تقليص نفوذ الشيخ مبارك الصباح، وذلك باحتلال بعض المواقع في شمال الكويت (في أم قصر – سفوان – جزيرة بوبيان) (٩٢)، وقد أرادت الحكومة العثمانية بذلك الحيلولة دون امتداد النفوذ البريطاني إلى هذه المواقع الهامة لنهاية الخط الحديدي.

وعندما احتج السفير البريطاني على هذا الاحتلال وطلب توضيحاً لذلك، لأنه يشكل تهديداً للشيخ مبارك وإخلالاً باتفاق المحافظة على الوضع القائم، أجابه وزير

الخارجية العثمانية توفيق باشا بقوله: إنه لا يعلم أين تقع هذه المواقع، وليست لديه معلومات عن إرسال القوات العسكرية إليها. وأنه لا بد من الاستفسار من ولاية البصرة للبت في هذا الموضوع.

لكنه قال للسفير البريطاني إن الدولة العثمانية لديها الصلاحية المطلقة في إرسال عساكرها إلى أي نقطة من أراضيها، إذا دعت الحاجة لذلك (٩٣)، أما الشيخ مبارك الصباح فقد احتج، واعتبره اعتداء على حقوقه الإقليمية.

ومنذ ذلك التاريخ "كانون الثاني ١٩٠٢"، بدأت مشكلة الحدود بين الكويت وولاية البصرة، أي بداية النزاع الإقليمي الطويل.

لكن نلاحظ حرص الحكومة العثمانية بعد ذلك، وحكومة الاتحاد والترقي على استمالة الشيخ مبارك باستخدام أسلوب الترغيب معه، من أجل المحافظة على الوضع القائم، كما أظهر الشيخ مبارك مواقف مسالمة تجاه الدولة خوفاً على ممتلكاته في البصرة.

ولكن تطورت الأحداث، ودخلت الحكومة العثمانية في مباحثات مع الحكومة الإنجليزية لحل المشكلات المعلقة بينهما، وقد أسفرت عن عقد اتفاقية في ٢٩ من تموز ١٩١٣ وقد تم التوقيع عليها دون التصديق، وبموجبها اعتبرت الكويت قضاء مَستقلاً في الدولة العثمانية.

وبنشوب الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤، ووقوف حاكم الكويت إلى جانب بريطانية، أعلنت الأخيرة أن الكويت إمارة مستقلة تحت الحماية البريطانية، مما يعني إلغاء ما جاء في الاتفاقية السابقة.

وبانتهاء الحرب العالمية عام ١٩١٨، وبهزيمة الدولة العثمانية انتهت مرحلة الصراع والتنافس البريطاني العثماني حول الكويت، لصالح بريطانية. فقد تنازلت الدولة العثمانية عن كل ادعاءاتها ومطالبها في البلاد العربية، بموجب معاهدة سيفر التي عقدت بين الحلفاء والدولة العثمانية في ١٠ آب ١٩٢٠م، ثم معاهدة لوزان التي تم التوقيع عليها في ٢٤ تموز عام ١٩٢٣، وبموجبها تخلت الجمهورية التركية عن كل مطالب وحقوق لها في البلاد العربية.

الخاتمة

يمكن تلخيص الأدلة على إستقلال الكويت عن السلطة العثمانية على النحو التالي:

أولاً: زيارة الشيخ صباح الأول لبغداد عام ١٧١٨، دون أي التزام تجاه الدولة العثمانية بل مجرد اعتراف بالولاء والتبعية الإسمية للدولة العثمانية الإسلامية الكبرى دون اقترانه بأي مظهر من مظاهر السلطة الفعلية.

ثانياً: التقريرات الأجنبية خلال القرن الثامن عشر.

ثالثاً: بدء الاتصالات بين الكويت وبريطانية لأول مرة ١٧٧٥، حين حولت شركة الهند الشرقية الإنكليزية طريق تجارتها وبريدها عبر الكويت، دون التقيد بالحصول على موافقة الحكومة العثمانية.

رابعاً: لجوء الثائرين على السلطات العثمانية في ولاية البصرة إلى الكويت.

خامساً: ترحيب حاكم الكويت بانتقال وكالة شركة الهند الشرقية الإنكليزية إلى الكويت من البصرة (١٧٩٣ – ١٧٩٥).

سادساً: تناقض السياسة التجارية بين الكويت والولايات العثمانية.

سابعاً: خلو تقرير كوليبرك (١٨٢٠) من أي إشارة إلى علاقة الكويت مع الدولة العثمانية.

ثامناً: انتقال شركة الهند الشرقية من البصرة إلى الكويت في مطلع القرن التاسع عشر.

تاسعاً: استعانة السلطات العثمانية بحاكم الكويت في فك حصار قبيلة بني كعب للبصرة وحماية ميناء البصرة ١٨٤٥.

عاشراً: تقرير "كمبل" المقيم السياسي في الخليج العربي في عام ١٨٥٤ الذي يؤكد التبعية الإسمية على الرغم من رفع العلم العثماني وتلقي بعض المنح نظير حماية شط العرب.

حادي عشر: تقرير "بلي" في تموز ١٨٦٣ – خريطة الرحالة بلجريف.

ثاني عشر: رفض الشيخ صباح بن جابر قبول منصب قائمقام، وتأسيس جمرك عثماني في الكويت.

ثالث عشر: تقرير الكولونيل "كامبل" القنصل العام في بغداد.

رابع عشر: توقيع معاهدة الحماية في ١٨٩٩/١/٢٣ مع بريطانية.

خامس عشر: رفض الشيخ مبارك استقبال مدير ميناء الكويت الذي عينته السلطات العثمانية.

سادس عشر: عدم اعتراف شيخ الكويت مبارك الصباح بموافقة السلطان عبد الحميد على إعطاء الألمان امتياز مد الخط الحديدي إلى الكويت.

سابع عشر: اتفاق المحافظة على الوضع القائم في الكويت في أيلول ١٩٠١.

أما الأدلة الأخرى التي تظهر بعض التناقض فهي:

أولاً: تقرير بروكس ١٨٢٩ المرسل إلى حكومة الهند، الذي أشار باعتراف حاكم الكويت بسلطة الأتراك، إلا أنه لا يوضح مظاهر السلطة العثمانية.

ثانياً: رفع السفن الكويتية العلم العثماني عام ١٨٢٩، ورفع الشيخ جابر العلم على قصره. وذلك في أعقاب نجاح الحملة البريطانية وتدمير قوة القواسم.

ثالثاً: اعتراف الشيخ جابر الصباح، ومن بعده ابنه الشيخ عبد الله أمام مبعوثي السلطات الإنكليزية بأنهما يرسلان أموالاً إلى الباب العالي، وفي نفس الوقت تؤكد التقارير الإنكليزية أن السلطة العثمانية في الكويت وهمية.

رابعاً: التفاهم بين مدحت باشا والي بغداد وحاكم الكويت الشيخ عبد الله الصباح.

خامساً: تقرير قائد السفينة سفنكس.

ومن سياق هذا البحث يتضح لنا أن الدولة العثمانية اكتفت، ولفترة طويلة باعتراف حكام الكويت بالتبعية الإسمية، التي لم يترتب عليها التزامات السيادة الفعلية مثل دفع الرسوم، ولذلك فقد فشلت المحاولات التي قام بها والي بغداد "محمد نامق باشا" في الستينات من القرن التاسع عشر لمد سلطة الدولة العثمانية إلى الكويت.

أما المحاولات التي قامت بها الدولة العثمانية منذ أواخر القرن التاسع عشر، فقد كانت مصدر قلق للشيخ مبارك الصباح، ولذلك سارع إلى طلب الحماية البريطانية والحقيقة أن هناك عدة عوامل ذاتية، وخارجية كان لها دورها في عدم نجاح المحاولات العثمانية، وتتمثل العوامل الخارجية في النفوذ البريطاني في المنطقة، وعجز الدولة العثمانية عن مواجهته، أما العوامل الذاتية، فإنها ترتبط بعدم ثبات السياسة العثمانية تجاه الكويت وسياسة ولاة البصرة التي اتسمت أحياناً بالتسرع.

الهوامش

١- د. جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، **دراسة لتاريخ الإمارات العربيــة** ١٨٤٠ – ١٩١٤، القاهرة ١٩٦٦ ص١٨.

٢- د. ميمونة الخليفة الصباح، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية – جامعــة الكويت – عدد خاص – السنة السابعة عشرة ذو العقدة ١٤١٢. أيـــار ١٩٩٢. **الاستقلال ظاهرة سياسية هامة في تاريخ الكويت.** ص١٣٦.

3- Extract of a report on the people live on the shores of the gulf presented in 1756 by the dutch Residents on the Island thrag – vankniphasen and van der Hulst to the governor General of the Dutch Indius.

لم يرد حتى الآن اسم الشيخ مبارك الصباح بصفته من حكام الكويــت غــير الشــيخ مبارك حاكم الكويت خلال الفترة ١٨٩٦ – ١٩١٥.

٤- د. أحمد مصطفى أبو حاكمــة، **تــاريخ الكويــت الحديــث** ١٧٥٠-١٨٦٥-١١٦٣-١٣٨٥. ذات السلاسل. دولة الكويت ١٩٨٤ ص١٧.

٥- شيخ الإحساء رئيس قبيلة بني خالد.

Carsten Niebhur – **Travels Arabia** Translated to English by Robert Hevons – Edinburgh. 1792. Vol 11- P. 127.

٦- د. أحمد مصطفى أبو حاكمة – **تاريخ الكويت** – القسم الأول – الجزء الثاني – مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٣ – ص ١٧٣ – ١٧٤.

7- Richard Schofreld **Kuwait and Iraq – Historical Claims and Territorial disputes** – The Royal Institute of International Affairs 1991 – p. 4.

٨- د. أحمد مصطفى أبو حاكمة – **المرجع السابق.**

٩- **المرجع السابق.**

١٠- د. عبد العزيز سليمان نوار، **المصالح البريطانية في أنهار العــراق** ١٦٠٠-١٩١٤، الأنجلو المصرية ١٩٦٨ ص٣٠.

11-India office library and records L, p; s/20 c239 q. **Precis of Koweit Affairs** – Saldanha 1904.

١٢- د. عبد العزيز سليمان نوار، **المرجع السابق**، ص٢٨.

١٣- لم تحدد المصادر المعاصرة المنطقة التي أقامت فيها الوكالة هل هي جزيرة فيلكة أم مدينة الكويت، أنظر د. أحمد مصطفى أبو حاكمة، المرجع السابق – ص ١٧٦- ١٧٩.

14-L/ P, s/20 – c- 240. **Precis of Koweit Affairs.**

15-Brucks 1829 **Memoir Descriptive of the Navigation of the Gulf.**

١٦- عبد العزيز رشيد، **تاريخ الكويت**، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٣، ص٢٠.

17-**Precis of Koweit Affairs.**

١٨- د. أحمد مصطفى أبو حاكمة، **تاريخ الكويت** – الجزء الثاني القسم الأول، لجنة تاريخ الكويت ١٣٩٢ – ١٩٥٣. مطبعة حكومة الكويت ص ١٥٤ – ١٥٥.

١٩- عبد العزيز رشيد **المرجع السابق** ص١٩-٢٠.

20-Richard Schofield. **OP. Cit.** P. 8.

21-L.P.S. 20 C 240. W. P. Jhonstone – Political Agent in Basra – No 27 th April 1860.

22-Richard Schofield. **Op. Cit.** P. 8.

23-**Precis of Koweit Affrirs.**

24-Richard. Schofield. **Op. Cit.** 8.

٢٥- د. جمال زكريا قاسم. **المرجع السابق**. ص٢٦٤.

26-Public record office 88/18843, report on the tribes around shores of the gulf – con fidential – col. Pelly.

٢٧- جون كيلي – **بريطانية والخليج العربي** ١٧٩٥ – ١٨٧٠. ترجمة محمد أمين عبد الله – الجزء الثاني – وزارة التراث القومي – سلطنة عمان، ص ٥٩٧- ٥٩٨.

٢٨- ترسيم الحدود الكويتية العراقية الدولية – الحق التاريخي والإرادة الدولية – إعداد لجنة من مختصين مركز البحوث والدراسات الكويتية دولة الكويت ١٩٩٢. ص١٣.

٢٩- أصدر السلطان عبد المجيد الأول منشور كلخانة عام ١٨٣٩ ويعتبر أول خطوة في طريق الإصلاح، وفي عام ١٨٥٦ صدر مرسوم التنظيمات الخيرية، وفي عام ١٨٦٤ صدر قانون أو نظام الولايات الذي بدأ بتطبيقه على ولاية بغداد في عام ١٨٦٩ حيث تم تقسيم الولاية إلى عشرة سناجق هي: بغداد – شهرزور – السلمانية – الموصل – الدليم – كربلاء – الديوانية – البصرة – العمارة – المنتفق. د. جميل موسى النجار **الإدارة العثمانية في ولاية بغداد في عهد الوالي مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني ١٨٦٩/ ١٩١٧**. الطبعة الأولى مكتبة مدبولي – القاهرة ١٤١١-١٩٩٠ ص ١٣٠.

٣٠- د. جميل موسى النجار. **المرجع السابق**، ص ٥٦-٥٧.

31-**Precis of Koweit Affairs** letter from W.p Johnstone, British Agent.

32- Barsa 4 th April 1866.

33-**Ibid.**

٣٤- **مذكرات مدحت باشا** – حياة سياسية – منفا حياتي برنجي كتاب، ١٣٢٥ – ص١٠٢-١٠٣.

35-**Precis of Koweit Affairs.**

36-**OP. Cit.**

37-**Op. Cit.**

٣٨- جون كيلي – **بريطانية والخليج** ١٧٩٥ – ١٨٧٠، الجزء الثاني ترجمة محمد أمين عبد الله عمان – وزارة التراث القومي والثقافة ص ٥٩٨.

٣٩- مجلس خصوصي – رقم ١٦٦٧-٢١ ذي القعدة ١٢٨٦ هجري، الأرشيف العثماني – استانبول.

٤٠- أنظر: محمد عرابي نخلة – **تاريخ الإحساء السياسي** – ١٨١٨ – ١٩١٣ ذات السلاسل – دولة الكويت ١٩٨٠، ص١٥٠-١٦٦. أنظر أيضاً د. أحمد مصطفى أبو حاكمة **تاريخ الكويت الحديث** ١٩٨٤. ص ٢٥٣- ٢٥٥.

٤١- رقم -٦٨٢- سياسي – الباب العالي، رقم ١٤ رسالة والي جدة ١٩ رمضان ١٢٨٨ استانبول. الأرشيف العثماني.

٤٢- **مذكرات مدحت باشا** – حياة سياسية – منفي حياتي – برنجي كتـــاب ١٣٢٥، ص١٠٢.

٤٣- والي بغداد – مدحت باشا إلى الصدارة ٨ ذي القعدة ١٢٨٦ هجري اسـتانبول، الأرشيف العثماني.

٤٤- رئاسة الوزراء – داخلية – برقية من ولاية بغداد ١٠ آذار ١٢٨٧. الأرشـيف العثماني.

45-F.O 78L 237 – col Herbert to Midhat Pasha – Bagdad July – 17 th-1871.

٤٦- وزارة الخارجية العثمانية ٤٨١ – بغداد – البصرة – الكويت. والي بغداد إلـى وزارة الخارجية – ١٣٢٨ – رقم ٤. خصوصي ٥٤٠. الأرشيف العثماني.

٤٧- **المصدر السابق.**

٤٨- يرى د. حسين البحارنة مايلي: أن السيادة هي المآذارة الإدارية الفعلية لمختلف السلطات الدولة السياسية من تنفيذية وتشريعية وقضائية في الإقليم المطالب بـــه، أي أن السيادة هي السلطة الكاملة على الإقليم في الداخل والخارج. مجلة الوثيقة. دورية محكمة – يصدرها مركز الوثائق التاريخية – دولة البحريـــن – العــدد التاسع عشر – السنة العاشرة ذو الحجة ١٤١١ تموز ١٩٩١.

49-**Precis of Koweit Affairs. Ibid.**

٥٠- إن وصف القراصنة الذي أطلقته بريطانية على عرب الســاحل "القواســم" لا يستند إلى الحقيقة العلمية، ولكن تعارض المصالح والمنافسة التجارية بين القـوى الأجنبية وخاصة بريطانية والعرب كان وراء هذه التسمية.

٥١- لوريمر – **دليل الخليج** – القسم التاريخي. الجزء الأول ترجمة ديوان حـــاكم قطر، ص ٤٧٦-٤٧٨-٤٩٢.

٥٢- د. عبد العزيز محمد الشناوي، **الدولة العثمانية – دولـــة إســلامية مفـترى عليها.** الجزء الرابع – ١٩٨٦ الأنجلو المصرية ص١٨٤١.

٥٣- د. جمال زكريا قاسم. **المرجع السابق** ص ٢٦٠.

54-India – office Io Lp.s/ 11-19. B 127.

٥٥- الشيخ يوسف بن عيسى القناعي. **صفحات من تاريخ الكويت ذات السلاسـل**. دولة الكويت ١٩٨٤. ص ٢٤ – ٢٥- ٢٩.

56-I. O. Lp. S/ 1-19 B-127.

57-I.O. Lp. S 3 Home correspondence vol 181. Confidential. No 1 O'conor to F.o. Dec. 22 1898.

58-I.O. Lp. S/11 – 19 b 127.

59-Precis of Koweit Affairs.

٦٠- د. نجاة عبد القادر الجاسم. **التطور السياسي والاقتصادي للكويت بين الحربين ١٩١٤ – ١٩٣٩** الأنجلو القاهرة ١٩٧٣ ص١٩.

61-Record Kuwait 1899 – 1961- volume 1 Internal Affairs 1899. 1921. Government of India, to Lord Hamilton. Telegram February 11.

62-India office. Lp. S/ 1 – 19 – 80 127.

63-**Precis of Koweit Affairs**.

64-India office – correspondence part1. No 8 . O'conor to salisbury 6 th June 1899. 272. Secret.

65-I.O. correspondence. Part. 1 No 86 O'conor to Salisbury. 6 th June 1899. 292-Secret.

66-**India office** L, P s/ 11 53/3

67-**Ibid**.

68-**India office** R. L15/1/53/3 No 158 Bushire 9 th June 1900. Confidential From captain Kemball officiating political Resident to secretary to the covernment of India Foreign Department.

69-**Ibid**.

70-**Precis of Kowait Affairs**.

71-**India office** L.p. s/ 11 – 19 B 127 Kowait.

72- **Ibid**.

73-**Ibid**.

74-**India office** R/ 15/ 1/ 53. No 158.

٧٥- القنصلية العامة للامبراطورية الروسية. بغداد. رقم ٩٤٥-٢٩٠ نيسان ١٩٠١ رقم ٢١٧ يوري نيوكو لايفنتشي إلى كروغلوف.

76-**Precis of Kowait Affairs**.

77-**Ibid**.

٧٨- ٤٨١ - بغداد البصرة الكويت ١١ أيلـــول ١٩٠١. مـــن وزيـــر الخارجيـــة البريطانية إلى السفير العثماني، لندن، الأرشيف العثماني، استانبول.

٧٩- الصدر الأعظم سعيد باشا. إلـــى الديـــوان الـــهأيارني ١٨ رمضـــان ١٣١٩ الأرشيف العثماني - استانبول ٤٢٣/٣٦.

80-**Precis of Kowait Affaris**.

81-**Ibid**.

82-**Ibid**.

83-Busch. **Britain and the Persian gulf** – University of California Press. 1967 – 213.

٨٤- مذكرة رئيس الكتاب الهأيارني إلى الصدارة العظمى ١٦ شـــوال ١٣١٩ ٢-٦٩/٢ الأرشيف العثماني. استانبول.

85-Precis of Kowiat Affairs.

٨٦- مذكرة الصدر الأعظم سعيد باشا. إلى الديوان الهأيارني ٥ ومضـــان ١٣١٩. ٤٢٣/٨ استانبول.

٨٧- الصدر الأعظم إلى الديوان الهأيارني ٤ شوال ١٣٢٠ - ٤٣٩/٩ الأرشـــيف العثماني - استانبول.

88-Precis of Kowait Affars.

٨٩- مذكرة رئيس الكتـــاب الـــهأيارني ٢ شـــوال ١٣٢٠ - ٢٥-٢/٦٩/٦٢/٤٢٤ الأرشيف العثماني. استانبول.

٩٠- مذكرة رئيس الكتاب - الديوان الهأيارني إلى الصدارة ٦٠/٢/١٢ - ٢٣ شوال ١٣١٩. الأرشيف العثماني. استانبول.

91-**India office**. L/P.s/ 10 B 166.

٩٢- مذكرة وزير الخارجية العثمانية توثيق باشا إلى الصدارة ٤٢٥/٧ - ٣٠ شوال ١٣١٩ الأرشيف العثماني - استانبول.

المصادر والمراجع

الوثائق الإنكليزية:

- India office Library and records
- L, P, s/20 c. 239. Precis if Koweit.
- L, P, s/10 – 13-166. Kuwait. Affairs Saldanha. 1904.
- Lp. S/ 11 – 19B 127.
- Lp. S/3 Home Correspondence vol 181 no. 1.
- Correspondence Part 1.
- No 8 – No 86.
- R/ 15/1/53 No 158.
- Public Record office F-o 88-18843.
- F-o 78-237.

الوثائق التركية-الأرشيف العثماني:

- إدارة مجلس مخصوص. رقم ١٦٦٧.
- رقم ٦٨٢. سياسي الباب العالي. رقم ١٤. والي بغداد مدحت باشا إلى الصدارة.
- ٨ ذي القعدة ١٢٨٦.
- رئاسة الوزراء – داخلية من ولاية بغداد. ١٠ آذار ١٢٨٧.
- وزارة الخارجية العثمانية – ٤٨١. بغداد البصرة – الكويت رقم ٤- خصوصي ٥٤٠. والي بغداد إلى وزارة الخارجية – ١٣٢٨.
- مذكرة الصدر الأعظم إلى الديوان الهأيارني، ٢٥ ذي الحجة ١٢٨٦. رقم ١-٢ /٦٩.
- الصدر الأعظم سعيد باش إلى الديوان الهأيارني. ١٨ رمضان ١٣١٩- ٨٦/ ٤٢٣.

- رئيس الكتاب – الهأيارني إلى الصدارة العظمى. ١٦ شـوال ١٣١٩. ٢-٦٠٩/٢.
- الصدر الأعظم سعيد باشا إلى الديـوان الـهأيارني ٥ رمضـان ١٣١٩. ٤٢٣/٨.
- الصدر الأعظم إلى الديوان الهأيارني ٤ شوال ١٣٢٠. ٤٣٩/٩.
- مذكرة رئيس الكتاب الهأيارني – ٢ شوال ١٣٢٠. ٢٥-٢/٦٩/٦٢/٤٢٤.
- رئيس الكتاب الديواني الهأيارني إلـى الصـدارة ٢١/٢/٩٠. ٢٣ شـوال ١٣١٩.
- مذكرة وزير الخارجية العثمانية توفيق باشا إلـى الصـدارة ٤٢٥/٧. ٣٠ شوال ١٣١٩.
- روسية: القنصلية العامة للإمبراطورية الروسية. بغـداد رقـم ٨٣٥. ٢٩ نيسان ١٩٠١. رقم ٢١٧.
- وثيقة هولندية مترجمة:

  Extract of a report on the people live on the shores of the gulf presented in 1756 by the Dutch Residents on the Island – tharg – vankniphasen and vander – Hulst to the Governor General of the Dutch Indius.
- مذكرات مدحت باشا – حياة سياسية – منفا – برنجي كتاب ١٣٢٥.

المراجع العربية والأجنبية:

- د. أحمد – مصطفى أبو حاكمة – تاريخ الكويت الحديث. ذات السلاسـل. دولة الكويت ١٩٨٤.
- تاريخ الكويت – القسم الأول – مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٧.
- د. جمال زكريا قاسم – الخليج العربي – دراسة لتاريخ الإمارات العربيـة – ١٨٤٠- ١٩١٤ القاهرة ١٩٦٦.

- د. جميل موسى النجار. الإدارة العثمانية في ولاية بغداد في عهد الوالي مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني. ١٨٦٩ – ١٩١٧. الطبعة الأولى مكتبة مدبولي القاهرة.
- جون كيلي – بريطانية والخليج العربي ١٧٩٥ – ١٨٧٠ ترجمة أمين عبد الله. الجزء الثاني. وزارة التراث القومي – سلطنة عمان.
- عبد العزيز رشيد – تاريخ الكويت – دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٣.
- د. عبد العزيز سليمان نوار. المصالح البريطانية في أنهار العراق ١٦٠٠– ١٩١٤. الأنجلو المصرية ١٩٦٨.
- عبد العزيز محمد الشناوي – الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها – الجزء الرابع ١٩٨٦ – الأنجلو المصرية.
- لوريمر – دليل الخليج – القسم التاريخي – الجزء الأول ترجمة ديوان حاكم قطر.
- د. ميمونة الخليفة الصباح. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. جامعة الكويت عدد خاص السنة السابعة عشرة. ذو القعدة ١٤١٢ أيار ١٩٩٢ "الاستقلال ظاهرة سياسية هامة في تاريخ الكويت".
- د. نجاة عبد القادر الجاسم – التطور السياسي والاقتصادي للكويت بين الحربين ١٩١٤ – ١٩٣٩ الأنجلو المصرية ١٩٧٣.
- الشيخ يوسف بن عيسى القناعي. صفحات من تاريخ الكويت. ذات السلاسل. دولة الكويت ١٩٨٤.
- Busch – Britain and the Persian – gulf 1894 – 1914. University of California Press. 1967.
- Richard Schofield. Kuwait and Iraq – Historical claims and territorial Disputes international affairs 1991.

